أحمد عوده

رواية

دار الينابيع للنشر والتوزيع - ١٩٩٦

روايةُ: البَاشكَار

أحمَد عودة

روايةُ: البَاشكَار

الأعمال الكاملة: 2

الطبعة الثانية:

دار الجيل العربي للنشر والتوزيـع: 2022م

رقم التصنيف: 813

الموضوع الرئيسي:

1- الآداب

2- الرواية العربية.

رقم الإيداع: (1996/3/446)

جميع الحقوق محفوظة للجمهور

دار الجيل العربي للنشر والتوزيـع

خلوي 8789591 79 00962 *Mobile*

e-mail: aljeelalarabi@yahoo.com

مراجعة وتحقيق: مظهر عاصف.

لوحة الغلاف: يوسف حيمور.

تنويه عابر:

يُسمحُ للقارئ بإعادة إصدار هذا الكتاب وأي جزءٍ منه أوتخزينه واستنساخه ونقله، كليّا أو جزئيا، وفي أي شكل وبأي وسيلة، سواء بطريقة إلكترونيّة أو آلية، أو الاستنساخ الفوتوغرافي، والتسجيل واستخدام أي نظام من نظم تخزين المعلومات واسترجاعها، ولا يلزم الحصول على إذن خطي مسبق من الناشر بناء على رغبة المُحقّق.

تعريف بالكاتب:

هو الأديب الأردني «أحمد عودة» من مواليد قرية إذنبَّة - الرملة- فلسطين المحتلّة- عام 1945. ويُعد أحد أعمدة رابطة الكتاب الأردنيين، وأحد مؤسسيها الأوائل، وعضو في اتحاد الكتّاب العرب. احترف كتابة القصة والرواية ونصوص المسرح قبل احترافه كتابة المسلسلات المتلفزة، وحيث إنه من روّاد المشهد الثقافي الأردني فقد كانَ يرفدُ الصحف والمجلات الأردنية والعربية بمقالات نقدية أدبية، وببعض البحوث الفكرية واللغوية.

تمحورت أعماله الورقية حول القضية الفلسطينية بشكل كبير، وإن تطرَّق من خلالها لكينونة الإنسان وعلاقته مع الأرض والآخر في كل مكان، ناهيك عن قضايا الأمة العربية بمجتمعاتها وهمومها المشتركة، وامتازت لغته العربية بالجزالة السلسلة كانعكاسٍ تام لمهنتهِ التي مارسها كمدرس للغة العربية في مدارس القدس وعمّان حتى تقاعده، وتفرّغه الكامل للإنتاج الأدبي.

يعتبر من أوائل الروائيين العرب الذين اتجهوا لكتابة المسلسلات التلفزيونية مواكبةً منهم لعصر الصورة والصوت، ومن الرواد الذين نقلوا اللهجة الأردنية العامية والريفية والبدوية عبر مسلسلاتهم إلى الشاشات العربية.

وقد مارس الكتابة الإبداعية طوال حياتِه قبل أن توافيهِ المنية في «حي الربوة- ماركا الجنوبية- عمان- الأردن». في مساء 9 نيسان من عام 2016.

مؤلّفاته:

حين لا ينفع البكاء- قصص - عمان - مكتبة الشرق - 1973

زعتر التل- قصص- عمان- رابطة الكتاب الأردنيين- 1979

المنعطف - قصص بغداد - وزارة الثقافة - 1980

الولادة والموت - قصص - اتحاد الكتاب العرب - 1982

جمجوم - قصص - بغداد - وزارة الثقافة والإعلام - 1982

ساعات الصفر - رواية - بيروت - دار الوحدة - 1983

الفواصل - قصص - دمشق - اتحاد الكتاب العرب - 1984

الكلب المخدوع- قصص للفتيان- عمان- دارابن رشد- 1986

عيون المدافع- قصص- دمشق- اتحاد الكتاب العرب- 1995

الفخ - قصص - عمان - وزارة الثقافة - 1996

الباشكار - رواية- عمان - دار الينابيع – 1996

مسرحيات:

الكنـــــز.

أصـل المسألـة.

شلــة الأنـس.

أفلام تلفزيونية:

المريض.

عذابـات حلـوم.

طلقـة الرحمـة.

الانتظـار.

مسلسلات متلفزة:

ويبقى الأمل - باللهجة الأردنية.

الفرح المنسي - باللهجة الأردنية.

الحائـــــر - باللهجة الأردنية.

حارة الزين - باللهجة الأردنية.

الريحانيـــة - باللهجة الأردنية.

خط النهاية- باللهجة الأردنية.

خط البداية - باللهجة السعودية.

الزمـــن دوار - باللهجة السعودية.

مرايا الحب - باللهجة المصرية.

هذا قراري - باللهجة السورية.

الأماني المرّة - باللهجة السورية.

مُقدّمة:

هذه الرواية هي آخرُ ما نشرَه الأديبُ «أحمد عودة» في حياته من أعمالٍ ورقية، وقد أصفُها بالعمل الذي يصلحُ كمرجعٍ للأقلام التي تحاولُ احترافَ الكتابة الإبداعية؛ لِما تحمله هذه الرواية مِن وصفٍ دقيقٍ للحدث، أو للشخصية، أو للتخبّطات النفسية وأحوالها وتقلّباتها السريعة التي تُنتجُ في النهايةِ شخصيةً أبرعَ ما فيها خديعتُها للذات. فقد تساعدُ المبتدئَ على كيفيةِ بناء الحدث واستراجع بعضه في السرد؛ وكيفية تمرير أفكاره كمسلّمات سيما حينَ يُشرّح النفسَ البشرية بالتدريج الوافي.

سلحفائيةُ الحدث والمسار الدرامي لم يكن عبثًا؛ بل أجزمُ أنه أسلوب تقصَّده واتّبعه الكاتب كي يسلّط الضوء على «هادي الجنزاري» الذي يقومُ بما تقوم به أنت من أعمالٍ يومية، ويشعرُ بما تشعرُ به أنت خلال يومك ومع محيطك، ويفكّر بما قد تفكر فيهِ قبل أن ينخدع لنفسهِ عبر انحدار تدريجي يقوده نحو الهاوية، وإن كنت لا أنفي عن الأديب تأثر قلمه الواضح عن غير قصدٍ _ربما_ بفن السيناريو الذي خاض غمارَه أربعينَ عامًا على الأقل، وقد يتجلّى هذا أثناء دمجه للسيناريو

والحوار في مشاهدَ متتالية مرئيّة على الورق؛ لذا ورغم سوداوية الحدث فقد يساعدك هذا الدمج أن تتلمسَ خفّة ظل البطل في كثيرٍ من الأحيان، وقد تتوقفُ مليًّا عند جملة معترضة أو وصفٍ عابر؛ كانعكاسٍ تام لتفاعلك مع إحدى الشخصيات التي قد تشيعُ في محيّاكَ الابتسامةُ قبل أن تشيعَ في وجهها؛ لقدرتهِ الغريبة على نقل شعورَ الشخصية إليكَ قبل وصف تفاعلها مع الحوار أو الحدث.

لكنّك قد تتساءل: لماذا قسا الكاتب على بطله كلَّ هذه القسوة، ولم يتعاطف معه نهائيًّا رغم أن من عادة الكتّاب منح أبطالهم الطيبين نهايةً مُشرقةً نوعا ما؟! بل لعلّكَ قد تتمنى أثناء مواكبتك للحدث وقد أحببتَ شخصية البطل وفلسفته ألّا يفعل هذا، أو يتجنَّب ذاك؛ بيد أنك ستهزُّ رأسك أسفًا وآسفًا حينَ يخيَّب ظنَّك في الوقت الذي قلت فيه: الآن سيستيقظ من غيبوته، ويعود إلى رشده.... تسأل هذا وأنتَ تدرك تمامًا أن الحبكةَ الروائية واضحةَ المعالم وتخلو من التعقيد؛ إذ تنطلق من نقطة الصفر إلى النهاية بمسارٍ واحدٍ تقريبًا إلا من بعض الاستدراكات الحدَثيّة الخادمة للشخصية، حيث أراد الكاتب لقلمهِ الانغراقَ بالواقعية تمامًا دون شوائب المُحال والخيالات اللا معقولة؛ على الرغم أنه منح «لهادي» حقَّهُ بالتكهّن بردّات فعل الأبطال الآخرين، وخفايا نفسيّاتهم، وأسباب تفاعلهم

وتفاعلاتهم من وجهةِ نظرهِ بمنأى تام عن صوت الرواي الذي أوجدَه معظمُ الرواةِ في أعمالهم من أجل حيادية الطرح.

وحدهُ البطل من سردَ الرواية فلم نسمع صوت «خالد زهران» إلا من خلاله؛ وهو الذي قاسمَه ربعَ دائرةِ البطولة بعد أن تمسّك بمبادئه تمامًا على النقيض منه، غيرَ أن الصراعَ بينهما حدث في الوقت الذي غاب فيه «خالد» عن المشهد، فلم يعرف أن صاحبَه قد خطَا خطوتَه الثانية في طريق الانحدار؛ بعدَ أن مهّدت له ظروفُه وتناقضاته وحماقته غير الواضحة مناخًا مُناسبًا لذلك.

بدأ الانهيار في الطائرة التي حملته إلى وطنٍ يخلو من أمّه؛ ومن سلاحهِ الذي حمله على كتفه في الخنادق، ثم حين بدا واثقًا مِن كونه سيمسك الفحم بيديه دون أن تتلطخ بسواده، حتى إذا التقى ب «جوهرة» تنصّل بالكامل من تاريخٍ لا يليق بشخصه من الأساس.... هنا احترفَ خداع نفسهِ عبر حواراته الداخلية التي رفضت أن تعترف بحقيقته، وهنا طفت على السطح تلك الشخصيةُ التي خدع بها القارئ الذي تعاطف معه بداية؛ فبدا أنه يفكّر بعاديّة الشخص المعتاد على هذه الشخصية الجديدة التي يبدو أنها كانت تقبع في أعماقه ليس إلا؛ فلمّا تسنّى لها الظهور لم ينكر عليها ذلك. إذ لم يبرر ولم يستذكر ما يوقظه، ولم يوخزه ضميره ولو للحظة. بدا يفكرُ كما أنه يختزل هذا الشخص الذي من المنطقي إذن أن يكون

كما هو عليه الآن من تحوّل... ربما عند هذه النقطة قد يفهم القارئ السبب بعدم تطرق الكاتب لشخصية «هادي» القديمة في الخنادق التي ذكرها مرارًا، والتي ربما انتظرَ أن يفصح عنها وعن ذاكرتها كجزء هام من أدب المقاومة؛ وكأنه يريد منك ألّا تصدّقَ كلَّ ما تسمع من هذا البطل، أو من غيره، كإشارة منه أن الرياء قد يجد له مكانًا أيضًا في أحداق الموت المتربصة في أقرب نقاط المواجهة، وأن الدليلَ على ما تقول هو أن تكونَ في مكان الحدث لا أن تتحدث عنه في مكانك.

ولأن هناك بالطبع مَن يفقد الذاكرة، فهناك أيضًا من يفقد ذاكرة شخصه عن سبقِ إصرار وترصدٍ بالكامل، لذا استساغ البطل أن يخطو الخطوة الثالثة التي تبلورت في كلمة «أمرك» التي قالها بتذلّلِ العبيد للدكتور «فلحي مشتاق» ثم بخطوةٍ تالية سريعةِ الإيقاع أثناء تسلّمه شهادة تُقسم عنه أمامَ من قرأها بأنه خصيٌّ يشتهي ما تشتهيه النساء، حتى يقوده المنحدرُ إلى قيعان «المحمودي» الذي ينتظره بفارغ الصبر.

لكنَّ القارئ قد لا يغفرُ للبطل الذي لم يتطرق للمثاليات بتاتًا؛ تعريةَ نفسهِ بالكامل أمامَه. قد لا يغفر أنه بدا مُتحدِّثًا إلى صديقٍ حميم كحكّاء يروي ما شعرَ به وعاشهُ دون تزييفٍ وترقيع للمشاعر والأحداث؛ لأنَّ حزنًا غريبًا قد يصيبهُ جرّاء ما سمع منه؛ فالبطل الذي كان ينظرُ للعلاقات غير الشرعية كحرامٍ لا خلاف عليه؛ راح ينظر إليهِ كغريزة خاصّة بالحب،

أمَّا الخمر الذي وصفه باسمه قبل السقوط فقد استحال إلى مشروبات روحية ليس إلّا، كلفتات ذكيّة من الكاتب للدلالة على تغيّر الشخصية من خلال السرد دون ذكر ذلك والوقوف عندها، ولعلَّ هذا ما دفعه إلى السماح لبطلهِ بضبطِ عقارب ساعته وفقَ التوقيت الجديد الذي سبقَ توقيت موطنهِ بساعتين لم يكن يقبل قبلها بتناغم التوقيتين في ساعةٍ أهدته إياها «عبير» التي نسيَها أيضًا من جملة ما تناساه في الغربة.

«بت عبدًا مُطيعا ذليلا» هذه الجملة والخطوة ما قبل الأخيرة التي اعترفَ فيها جهارًا نهارًا البطلُ أخيرًا بانهياره الأكيد؛ وانتهى من خلالها بإيجاد الأعذار الواهمة للآخرين، والكذب الفاضح السخيف على نفسه. بينما كانت الخطوة الأخيرة هي ذاتها الأولى عبر جملة الأستاذ «بكري» ومفارقاتها الكثيرة من البداية حتى النهاية... «لماذا تغضب؟ هي خطوة واحدة حقًّا ولكنّها تكفي للسقوط».

وقد أرجأتُ ذكر البطلة «نيران» لأنها الشخصية الوحيدة التي عاشت بين سطور هذه الرواية في عتمةٍ لا يصلُها الضوء إلّا نادرًا، لأنّ الكاتب أرادَ لها أن تكونَ ظلًّا «لعبير» الوطن، حيث تتشابه الملامحُ والأحداق في الوطن تشابهَ الطبائعِ والمشاعر النقيّة التي تسيرُ باتجاهٍ واحدٍ نحو الشرق والمشرق بكلِّ ما فيها.

وعطفًا على ما سبق فقد قمتُ بطباعةِ هذه الرواية من جديد مُستندًا على النسخة الورقية في طبعتها الأولى التي صدرت عن «دار الينابيع للنشر- عمان- 1996م» والتي احتجتُ في كثير من الأحيان للتحقق من بعض جملها وكلماتها بالرجوع إلى النص الأصلي المطبوع على آلة كاتبة قديمة، والمحفوظ كصور «سكان» في ملفات حاسوب الأديب الراحل، ولأنَّ النص النهائي المحفوظ اختلف عن المطبوع بشكلٍ كبير؛ ولأنَّ الحبرَ المستخدمَ فيها تراوحَ بين متناقضين من الوضوح الأسود والتلاشي الأبيض جرّاء السنين؛ فقد توخّيت الحذر بنقل أكبر كمٍّ مما استنتجه من النسختين عند حدوث الحيرة والشكّ في سطرٍ ما؛ سيما أن النسخة المطبوعة التي اعتمدتها حمَلت بعض الملاحظات والإشارات والتعديلات الطفيفة من قلم الأديب... أمَّا القارئ لمجموعة الأديب القصصية «جمجوم» فقد يلحظُ تشابهًا غريبًا بين شخصية «السبتي» في قصة «كلبة الشيخ» وبين «هادي الجنزاري» في مشهد الفندق عبر حواراته النفسيةِ الحمقاء، وإصراره الدؤوب على خداع نفسه، وكأنَّ الأديبَ ظلَّ مُقتنعًا طوالَ حياتهِ أن خطوةً واحدة تكفي دومًا للسقوط.

مظهر عاصف

الإهداء . . .

إلى التـي رافقتنـي في رحلةِ العمر....

وكانت معي على الزمن؛ فخاضَت غِمارَ مجاهلِه

وطارَدت فلولَ مهازلِه....

إلى سِهَام

(1)

أخيرا وجدتُني داخلَ طائرة عملاقة تنقلُ المسافرين والبضائع؛ بعد أن كان كل ما أعرفه من الطائرات تلك التي تبذر الرصاص والقنابل؛ لتجعلني هدفًا لها من جملة أهداف مبعثرة في الخنادق والعراء.... استغربت وجودي فيها واستغربتُ أكثر أنْ وجدتني أجلسُ بجوار رجل أنكرَني ثلاثين عاما؛ هي أعوام عمري كله، ولم يعترف بأني ابن اخيه إلا منذ شهر كان مقدَّرًا لي أن أقضيه معه بعد استخراج شظية من جسدي، وكان مقدرا له أن يقضيه مجازا من عمله في الخليج.

ظلَّ طول الرحلة يحكمُ خيوطَ وصايته علي ويشتت آخر حصون مقاومتي السفر على هذه الصورة المفاجئة. «منذ الآن ستكون ساعدي اليمنى في الشركة.... كل شيء جاهز كما ترى، التأشيرة وعقد العمل وما أن نصل حتى أقدِّمَك لشريكي. كنتَ ستقعُ في خطأ قاتل لو تابعتَ ما تسميه طريق الكفاح المسلح».

لم ترق لي غنّةُ السخرية من الكفاح الذي مارسته زمنا حتى ربضَ مذاقَه في العروق. مع هذا سألته إن كان شريكه هذا سيتقبّلني بمثل هذه البساطة. ضحك ملء شدقيه حتى توارت عيناه الضيّقتان أصلا خلف هضاب وجنتيه.

- المحمودي؟ إنه أكثر من أخ يا ولـد.... إنه شريكي.

ثم حرّض ذاكرتي بلهجة مشحونة بالتأنيب.

- ألم تسمع ما قالته زوج عمك حَسنة وابنة عمك أنيسة عنه؟

وقبل أن ألملمُ ما كالتاه للمحمودي هذا من ثناء وجدت حلمَة أذني في يده يفركها؛ وقد أطلَّ من عينيه بريقٌ غريب.

- عليك منذ الآن أن تتركَ طيشَ الشباب والأساليب التي عفا عليها الزمن؛ لتفكر جديّا في العمل المثمر وبناء عش الزوجية. ثم وهو يضغط على الحروف.

- أنيسة لن تنتظرك إلى الأبد.

تجاهلتُ تلميحاتِه عن الماضي الذي ما زال حاضرا في دمائي؛ وحاولت أن أستحضر ملامح أنيسة التي يرشحني للزواج منها. لم تسعفني ثلاثُ جلسات معها في لملمة هذه الملامح.... ظلت غائمة حتى اعتصرتُ الذاكرة. لم تفرز غير استدارة وجه مزروع ببلهٍ فطريّ وإقبال على الحياة يتخذ

صفة الإندفاع الممجوج؛ جعلتني لا أطيق الصبر على البقاء معها أكثر من خمس دقائق في كل مرة، حين كانت تريد أن أبقى الدهر كله وهي تسافر بعينين جاحظتين في وسامتي المفرطة، وربّما هي _بل هذا أكيد_ من قالت لأبيها «أريد هذه الدمية الجميلة». ولهذا السبب وحَسبْ فَطِنَ إليَّ وتخطى جبال القطيعة؛ واعترف بأني ابن أخيه فكانت هذه الرحلة.

تنبّهت على لكزة في الخاصرة، التفتُّ لأجده يفرش لي ابتسامة عريضة فكدت أصيح فيه «قبلت السفر من باب الفضول وسأعود إلى ما كنت فيه، ولن أتزوج ابنتك» لولا ذاك الحنان المبكر الذي لمحته يسبح في ملامحه؛ وهو يدفع إليَّ بورقة لأكتب ما يمليه علي من كلام أطيّرُه لحظة هبوطنا في المطار الخليجي؛ إلى زوجه وابنته يخبرهما بسلامة الوصول. وصلنا، وكان قد انتهى من الإشارة بيده إلى مكتب البريد في المطار، وراح يساعد السائق برصِّ المتاع والهدايا في مؤخرة السيارة.

كنت على وشك أن أعود أدراجي وأسأله إن كان حقا ما زال مصرا على أن يبرق بصفحة كاملة؛ حين اقتحمتني منه تلك الصرخة التي لم يحمل الأثير غيرها لتحمله سيارة الإسعاف إلى المشفى فيموت هناك.

لم أصدق في البدء ذاك الطبيب وهو يخبرني بأنه قد فارق الحياة.... لم أصدق لا حبًّا في عمي ذاك الحب الذي يرفض الفواجع إن نزلت بالأحباب. «فأنا لم أحب هذا العم قط.... ما همني حقا أن يتركني وحيدا في هذه الرقعة من الأرض التي لا أعرف فيها أحدا ولم أمد إليها جسور الحلم».

قفز إلى ذهني «المحمودي» فاتصلت بالشركة. اقتحمني صوتٌ غليظ ظلَّ صاحبه يصرخ مستوضحا بعد كل جملة مني، فلم أدر إن كان الحزن قد بعثر الكلمات من حلقي أم أن الرجل أصابه الصمم. سمعت آخر الأمر شتيمة سقطت تحت حزام أمي ثم أعقبها طنين إغلاق الخط. أحسستُ لحظتها أني بت وحيدًا تمامًا في هذه الأرض، وأن عليّ وحدي مسؤولية القيام بترتيبات استلام الجثمان ودفنه هنا، أو العودة إلى حيث انطلق بي وهو يغريني بالسفر ويرفو ترددي بخيوط الورد.

تشابكت الأفكار في رأسي فلم أجد القدرة على استيعاب ما كان يثرثر به السائق المتهم والمحاصر بمسدس الشرطي، ولا فهمت ما كانت تقوله فتاة مهروسة الملامح تدفعُ التهمة عن السائق الذي ربما كان زوجها، أو قريبها أو صديقها.... أغلقتُ كلتا أذني أدفعُ عن رأسي الطنين وتركتُ المكان مُزمعًا الذهاب إلى الشركة.

لحظة أن لفظني باب المشفى لم يقلقني الصهدُ الفائر من البلاط ومِن إسفلت الشارع.... ألقيتُ بجسدي داخل سيارة أجرة ولمحت بطرف عيني الشمس وهي تزحف ببطء إلى كبد السماء. وَرَدت إلى قلبي المُضعضع نسمةُ ارتياح لأن عمي استبقَ الطائرة التي ستطيرُ في الغد، ثم عاد إلى الانقباض؛ إذ لولا هذا التغيير المفاجئ لما مات هو ولما ألفيت نفسي في هكذا وضع.

اخترقت بي السيارة شوارع عريضة شبه خالية من المارة. روّادها الحقيقيون من السيارات الفارهة التي تخطف نفسها من المكان والزمان خطفا ربما أثار حفيظة السائق؛ فداس على دواسة البنزين بغيظ مفرط وراح يُجري الغيارات دفعة واحدة. ألفيتُ نفسي راكبا طائرة أخرى بلا أجنحة توقفت بي أخيرا أمام بناية من ثلاثة طوابق. نفحتُ السائق الأجرة كما أصدر لي صوته الأمر، ثم زحفت بجسدي إلى الخارج فنثَرَت السيارة التي أقلَعت في الحال سحابةً من الغبار والدخان؛ استعرضتُ عليهما _ وأنا ما زلت واقفًا_ أيامي الماضية، وتيقّنتُ أن أسوأها على الإطلاق تلك اللحظة التي رأيتُ فيها عمي مهروسًا بين سيارتين؛ لا يماثلها سوء إلا لحظة أخرى وجدتني فيها مجبرا على تقديم نفسي لرجل لا أعرفه «أنا ابن أخِ المرحوم شريكك» رمقتُ نفسي فألفيتُ أن القوام الفارع واستقامة الكتفين واستدارة الصدر وعنفوانه لم يعد لها وجود.

أعتى النكسات والمواقف السابقة في حياتي لم تحوّلني في نظر نفسي مسخًا ولم تشتتني كحالي الآن.

تذكرت أمي. هبطت إلى رأسي لذكرها رصاصة.... فلولا إلحاحها ذلك الإلحاح المدمر.... لولا دموعها التي فتحتها لتزحزحني عن موضعي فترى وأرى عالما جديدًا وحياة غير الخنادق والبنادق؛ لما وجدت نفسي هنا. تململ الحقد في صدري. كدت أحقد عليها لولا أن رفعت أيامُها السوداء رأسَها لتُبعِدَ السوادَ بعد وفاة زوجها أبي؛ وتنكّرِ أخيه لي ولها في أحلك ساعات العمر. شعشعَ وجهُ أمي وخلتها ترفع يديها لي كعادتها تخيط لي ثوب الدعاء المزركش؛ فتركت الرصيف إلى باب زجاجي فتح لي قبل أن أصله بأمتار.... تلكأت عند الباب أجمع شتات نفسي إلى أن اقتحمني صوت غليظ.

ـ ماذا تبغي؟

أحسست بالصمت ينبثق من مواضع شتى.... تلفتُّ فارتطمت عيناي بوجه داكن البشرة، مدكوك الملامح تبرقُ في وسطه عينان تنضحان باللوم من تحت كوفية بيضاء رأيتُ إلى الرجل داخل غرفة زجاجية مُشرعًا كلتا يديه وقد تحول اللؤم في عينيه إلى اتهام لم أدر سببا له. كرر السؤال بما يشبه الطرد فقلت بصوت مخنوق:

- المحمودي.... صالح المحمودي.... أين أجده من فضلك؟

ضجّ الشكُّ في عينيه وراح يفترسني من الرأس وحتى القدمين ثم منهما إلى الرأس. أخيرا قال بفظاظة:

ـ لم أطلب منك أن تذكر اسم الشيخ صالح بالتفصيل. ليس في الشركة غير شيخ واحد وغير مدير واحد بهذا الاسم.

هبطت في الحظة نفسها يد على كتفي. التفتُّ لأرى رجلا حاسر الرأس عن شعر أبيض مجزوز في نحو الخمسين؛ تتضارب على وجهه المجدور مشاعر شتى. وجدته يحشر نفسه في الحديث الدائر بلا سابق إنذار إلا من لمسة لكتف الفظة نوعا.

- يطيل لنا في عمره.

لم أدرِ لمن الدعاء إلا بعد أن أكمل موبِّخا.

ـ الشيخ معه الحق.... كل الحق إن غضب منك؛ فمن لا يعرف الشيخ المحمودي؟ مَن؟

ثم سحبَني من ذراعي جانبا وقال هامسا بمودة أنكرتها عليه.

ـ سأوصلك إليه ولا تهتم بذاك القنفذ.

ثم ضغط ذراعي راجيًا.

- ولكن لا تنس يا أفندم أن تذكرني عند المحمودي.... محسوبك شعبان.... قل له شعبان وهو يعرف. لا أحد هنا بهذا الاسم غيري.

انقدْتُ إلى يده القابضة على ذراعي. مضيتُ في ذهولي ومضى وهو يلعن الرجل الذي قابلني عند الباب؛ واصفا إياه بالقنفذ مرة وبالكبش مرة وبالرجل الزجاجي مرات اعجبتني، وذكَّرني للمرة العاشرة وهو يتوقف بي أمام غرفة المدير بأن اسمه شعبان. ذهب يهبط الدرجات قفزا وتركني لمصيري المجهول مع رجل ليس عدم معرفتي به ما يسبب لي الاختناق؛ وإنما تغيّر الحال التي علي أن أقدّم فيها نفسي إليه. نقرتُ الباب بعد تردد وأنا ألعن شعبان على ذهابه الأقرب إلى الهروب. سمعت صوتا يقول أمرًا «ادخل» وحين فتحت الباب تسمرت عيناي على رجل بدشداشة بيضاء وكوفية تماثلها لونا لا يكاد يَبين من خلف المكتب. استقبَلَتني عينان تغرقان في الكحل ووجه مفلطح يغرق هو الآخر في صفرة قد يكون باعثها اليرقان.

سألني بصوت غليظ عما أبغي وحين طرحت السلام واقتربت منه هالني ما في عينيه من جحوظ؛ وما على وجهه من اصفرار مريع كان مع سمرته الفطرية أمرًا مُنفِّرًا يقرض العين إن استقرت عليه.... لمت نفسي على الوقوف طويلا عند ظاهره.... صافحتة بثبات فانزلقت يدي في يد رخوة خلت أنها

بالون ستنفثئُ من ضغطي عليها. قدَّمتُ نفسى بكثير من الحرج وحين استوعب الرجل من أنا؛ غرق في الحزن أو هكذا خُيِّل إلي من وجومه وصمته ثم ترحَّمَ على عمي قائلا إن موته مفاجأة محزنة قبل أن يدق على صدره استعدادا بأن سيتولى بنفسه ما يلزم. أراحني كلامه نوعا ما ولكن لا أدري لماذا كلما نظرتُ إلى عينيه صدمني جدارٌ من اللؤم أو الشماتة بما حدث؟! لست أدري! ارتحت لكلامه ولم أرتح لصاحب الكلام فحمَلتُ عدم ارتياحي لأدفنه على شاطئ البحر الذي أوهمت نفسي وأنا أغادر المتوسط؛ أنني سألاقي أيضًا بحرًا هناك.

استلقيت على رمل لم يكن قد فارقه الصهد بعد. تركت عيني تسافران على سطح الخليج وفي أعماقه. لم تصافحني تلك الزرقة التي عهدتها كلما رفعت رأسي من الخندق، أو كلما تمشّيت لتغتسل قدماي بموجات فتية. طويت عيني. سقطتا على حافة ورقة غير منتظمة.... أخَّرتُ البرقيةَ التي أملاها عمي عليّ. حاولت أن أقرأها. لم أستطع.... خذلني حزن قسري وحروف كتبتها في لحظة قرف.... لم أدر كم مضى من الوقت وأنا على هذي الحال إلى أن انبثقت مصابيح البواخر الراسية في الميناء القريب؛ فأدركت أني قضيت وقتا طويلا في الجلوس.... تذكرت لحظتها أكثر من أي وقت مضى أن عمي ما زال في المشرحة وأن عليَّ في الغد الإدلاء

بالشهادة قبل أن يُحكم على السائق، وقبل أن يتسنى لي أن أتسلم الجثمان.

تذكرت أني منذ الحادثة لم أذرف عليه دمعة واحدة تكون مظهرًا ملموسًا للحزن أو الفجيعة. استعرضت أسبابا عدة كان أهمها ذاك الموت المفاجئ للرجل الذي دأب خلال شهر مضى يسخر منه؛ حين كان يأتي على ذكر الكفاح. هجم عليَّ القرفُ لهذه الذكرى وحشا كاسرا فحملتُ حقيبتي ومضيت أسأل عن البيت.

كان الظلام دامسًا، ورطوبةُ شهر قضاه عمى وزوجه وابنته بعيدا عن البيت جعلت منه جثة منتنة. لم تقلقني الرائحة كثيرا. وضعي الذي ألقاني إليه الرحيل المفاجيء لا يسمح لي باختيارٍ أفضل. أخرجت الولاعة. أشعلتها باحثا عن مفتاح النور. ضغطته فترجرج النيون ثم انبثق عن صالة فسيحة رُصَّت في جنباتها مقاعد وثيرة؛ قدَّرتُ أن لم يمضِ عام واحد على ابتياعها. تهالكتُ على أقرب مقعد فطقطقتُ مفاصلي لطول اللف والدوران. فطِنتُ إلى أني نسيت الباب مفتوحا. تركته بعض الوقت متكاسلا عن النهوض إلى أن هاجمتني حرارةٌ كانت تلحق بي وأتجاهلها؛ فقمت أبحث عن جهاز التكييف، وجدته أعلى تلفاز كبير ملون. ضغطت زرا فهدرَ برعونة ثم استوى صوته ناعما بيد أنه لم يجلب الارتياح. مضيت إلى الباب أغلقة ثم اكتشفت بعد الجلوس أني نسيت المفتاح في

الخارج فقمت متأففا، جذبته بعنف واستللت المفتاح ثم صفقته اصطفاقة ارتجّ لها البيت.

وأنا في طريقي إلى الكنبة من جديد تعثرت بحقيبة ملابسي، وألقيت بنفسي قسرًا على الكنبة تفاديا للسقوط. سقطت حافظة الأوراق حيث وضعتها على المسند لتكون من تحتي. رغم الضيق شعرت بارتياح نسبي؛ فذلك الشرطي الذي صحبني في سيارة الإسعاف إلى المشفى سلَّمَني أوراق عمى ومفاتيح البيت؛ وإلا لمَا فطنت لها بالتأكيد، ولَتَحيرت أين اقضي الليلة هذه والليالي التالية إن اضطررتُ للبقاء؛ ولم أعد سريعا إلى ليل الخنادق.

سقطت عيناي على صورة بالحجم الكبير لعمي قبالة الباب بحيث أن الداخل لا يفوته أن يراها. تكاد ابتسامته العريضة أن يتشقق عنها الإطار المذهب. تسيل منها سعادة رجل لم يعرف التعاسة قط مع أملٍ كبير أن لن تعرفه. تجاوزت الابتسامة سريعا ودققت النظر في العينين. رغم صغرهما كانتا تحدقان إلي بنظرة استطلاع غريبة غاصت في لحمي تنقّب هناك عن أشياء مبهمة؛ ربما تتجسس عيناه علي إن كنت حزينا كما تقتضي الحال أم أنني شامت لهذه الضربة القاضية.

أغمضت عيني وطرحت على نفسي السؤال عينه فاستبعدت على الفور موضوع الشماتة هذه، فتحت عيني من جديد. دققت

في ملامح الوجه اكتشفت لأول مرة أن هناك شبهًا كبيرا بينه وبين أخيه والدي؛ الذي لم أره إلا من خلال صورة واحدة ووحيدة تكسّرت من فرط حرص أمي على لفها بخرقة كانت في يوم من الأيام بيضاء. كانت تقول «لم يبق من المرحوم غير هذه الصورة، والمئتا دينار التي استأثر بها أخوه بدعوى أنه وضعَها أمانةً عنده». ثم تفطن إلى أنني أمامها فتقول بكثير من الحسرة والفرح «وهادي ابني أغلى ما تركه المرحوم». وطفا زهوها أكثر حين رأتني أعانق الرشاش وأتمنطق بالرصاص، فقالت: «هذا الشبل من ذاك الأسد». كان ذلك رأيها قبل أن تصيبني أول رصاصة يعقبها رصاصات وشظايا منذرة بأنها ستفقد آخر الأمر ابنَها الوحيد.

ربما لهذا تجاوزت عن كرهها المزمن لعمي؛ فصارت تلهج بذكره وبما جمع من ماله في دول النفط، وتتغزل بابنته الحسناء التي لم تكن رأتها أو رأيتها قط إلا حين رافقته وأمُّها في إجازته الأخيرة؛ فألح عليه «بكري» أستاذي وجاري أن يترك ولو لساعة حي الفنادق الفاخرة حيث اعتاد النزول فيتناول في معيَّته الغداء؛ يستذكران أيام الصبا والشباب حين كان الخروجُ في مظاهرة احتجاج بطولةً نادرة.

هي ساعة حقا قضاها عمي مع الاستاذ و بكري، ولكنها أفرغت ساعات من المعاناة مني ومن أمي، وساعات من الجهد والنفاق من عمي كي يقنعني بأن الدم لا يصير ماء؛ وأن

الظفر لا يخرج من اللحم.... ليوجهني بعدَها باتجاه السفر معه، وإذ وجدني جبلا صخريا لا يتزحزح استنفرَ دموع أمي ومكانةَ الاستاذ بكري عليَّ.... قال هذا: النضال أنواع.... تستطيع أن تناضل وأنت هناك.... اذهب وجرب، قال هذا ومضى تاركًا دموع أمي تفعل فيَّ فعلها حتى أفرَخَت هذا السفر.

سحبتُ عيني عن صورة عمي بضيق إلى صورة أخرى تجمعه وزوجه وابنته، حاصرني الضيق بعشرة رؤوس، تهالكت على المقعد مغمض العينين؛ انثالت عليّ لحظات اللقاء المتكررة مع عمي، مع الأستاذ بكري، مع ابنته هديل التي صارت مدرسة. انثالث عليّ نظراتها المثقلة بالعتاب قبل أن أودعها وقبل أن تتمنى لي التوفيق «لا بأس من التجربة فأنا أعرفك جيدا، وأعرفُ أن لن تأكلك دول النفط فيمن أكلت وأنسَتهم الديارَ والأحباب».

تقاطرت علي لحظات الاستعداد للسفر برفقة عمي والجلوس في قاعة المسافرين؛ ثم الوقوف أمام سلم الطائرة العملاقة فيما شمس الصباح ترش على الكون رذاذا من الفضة لم يكن مبهجا في حينه. تخيلت نفسي لحظتها إلى جانب الرفاق، وإذ جاءتني ضغطة خفيفة على الكتفين مِن يد «سعيد الجنزاري عمّي» تأكّد لي أن المرء في كثير من الأحيان لا يختار ما يريده بالضبط، وحين أحاطني بذراعه والابتسامة العريضة

قلت أن لا بأس من التجربة. حاولت أن اقنع نفسي بأن الارتحال في سبيل العيش هو نـوع آخر من الجهاد، وأن التبرع بالمال أمر في غاية الأهمية أيضًا؛ غير أني لم أجد مناصا من الاعتـراف بأن هناك من سبقوني إلى المجـد، فالتضحية بالنفس أرقى الأمور.

ألقيت نظرة طويلة على ساعتي، قارنتها بساعة يصلني نقرُها الخافت من فوق الباب الرئيس، هممت بأن أضبطَ أرقام ساعتي بما يوافق هذا التوقيت ولكن كففت عن ذلك في اللحظة عينها «فأنا لن أبقى هنا حتما». عاد إليّ التفكير المضني في ضخامة الوقت المتبقي على زحف الصباح. تلفتُّ مِن حولي حائرا. أوقعتُ عينيّ على جهاز التلفاز في أرجاء الصالة علني أعثر على كتاب فلم أجد وكذا كانت حال غرفة الجلوس. وقعَت عيناي على هاتف مثبت على الجدار المواجه لباب غرفة الجلوس. مضيت إليه أتحسسه بحسرة فلا أحد هنا أعرفه يمكنني أن أتحدث إليه، ومن أحدسُ أنه يعرفني أخجل أن أكشف له عن أني تركت الخنادق وارتحلت.

تركت الصالة إلى الداخل، رأيت بابا فمضيت إليه أفتحه فهجَمَت عليّ الرطوبة والظلمة إلا من حزمة نور صغيرة تسقط من الصالة بانتظام. تحسست الجدار بحثا عن مفتاح النور. ضغطته فانبثق ساطعا مُظهِرًا سـريرين عريضين ومرآةٍ كبيرة على حامل خشبي رُصّت عليها أغراض الزينة

بغير نظام، حدستُ أنها غرفة نوم عمي وزوجه حسنة وأن هذه مرآتها، ومن الصورة الكبيرة فوق الباب مباشرة بتُّ موقنا من أن سأجد أكثر من صورة في كل ركن وزاوية من هذا البيت؛ لصاحبه الذي فيما بيدو يحرص على أن يكون موجودا في كل مكان. اكتشفتُ صورة أخرى أصغر حجما فوق السرير تضمه وزوجه وهى في طرحة الزفاف. أطلتُ النظر إلى ثغرها القابض على ابتسامة عريضة كأنما تخشى أن تفر منها، ثم انتقلت إلى صورة زوجها فكان يحدق ويبتسم ابتسامة امرئٍ غيرَ سعيد تماما لحظتها؛ غير أنه مهيّأ للسعادة أو يتوقع من الأيام الآتية أن تكون حبلى بالفرح.

أطلتُ الوقوف أتملّى من موجودات الحجرة المتخمة بالكماليات، فلم أفطن إلى أني جئت بحثا عن كتاب، نقبت باهتمام أكثر ولمَّا لم أجد غادرت تاركا الحجرة مضاءة. عبرت ممرًّا ضيقا وظهري إلى الحمام. كانت هناك غرفة قبالته فتحتها فاستقبلتني الرطوبة المعهودة والظلمة؛ وقبل أن يستوي خفقان النيون أيقنت أني في حجرة أنيسة. سرير منفرد تهدلت ملاءتُه حتى لامست الأرض، كأنما طوّحت بها صاحبة السرير للتو كي تغسل وجهها بعدما فوجئت بأنها تأخرت عن المدرسة. شاهدت خزانة صغيرة قرب السرير عليها كتب مرتّبة. انطلقت نحوها بحماسة لأكتشف أنها في جملتها كتب مدرسية منزوعة الأغلفة.... انتزاعها كلها بلا استثناء لم يكن

محض مصادفة بقدر ما هو ثأر منها لما سببته لصاحبتها من إزعاج آخر عام دراسي كانت تتوقع فيه الرسوب، فلم تنجح.

ألقيت الكتب العارية بقرف وقد أيقنت أنني الليلة على غير العادة لن أقرأ شيئا كما عوَّدني الأستاذ بكري، كان يقول: «لا بأس أن تقرأ أي شيء ولكن إياك أن تأخذ كل ما تقرأ على أنه مسلمات، ضعه تحت مجهر العقل ثم انطلق لتبنِّي قناعاتك الخاصة». استدرت لأغادر الحجرة فتلقفتني صورة أخرى لعمي بالحجم الكبير مزروعة فوق الباب. أيقنت أكثر أن الليلة مكتوب علي منازلة سيف الوقت ووجه عمي.

عدت إلى الصالة. تكوّمت على كنبة في مواجهة التلفاز المغلق. لم أدر من شدة الإرهاق أني غفوت إلا حين فتحت عيني على حزمة من الضوء كانت تنصبُّ من النافذة المقابلة على وجهي؛ تلدغُه بسياط ساخنة كأنما آتية لتوها من الحجيم. نهضت أتخلص من ملابسي الملتصقة بلحمي.... تفقدت القميص والبنطال ولدهشتي لم يكن هناك أثرٌ للتجاعيد كأنما قضيت الليل متكوما على هيئة واحدة. وشى بهذا ألم فظيع في عظام الصدر والترقوة وفقرات الظهر.

رحبت بالنوم على أي صورة كانت فذلك وحده الكفيل بتخليصي من التفكير المضني دونما طائل، فما حدث قد حدث ولا رادُّ له مهما تعددت الحيل.... توصَّلت وأنا في طريقي إلى

الحمام أن عليَّ العودة إلى الرفاق والخنادق. ضحكت من الغربة، وصرخت بأعلى صوتي «ومتى أيها الشقي لم تكن غريبًا؟» سلَّمت جسدي للماء البارد ينهلُ من رشاشٍ قوي.

أحسست بانتعاش مفاجيء فمضيت إلى الصالة حيث تركت حقيبتي. هممت بفتحها لأرتدي من تلك الملابس التي اشتراها عمي كي تناسب ابن أخيه الموظف الجديد. يبدو أن المظاهر كانت معبودةَ ذاك الرجل. تركت الحقيبة مقفلة كما خرَجَت معي من بيتنا في المخيم؛ وكما لمسَتها أمي لآخر مرة وهي ترجوني أن تحملها إلى السيارة التي تعذّر عليها دخول الزقاق.

ارتديت القميص والبنطال اللذين رفضت أن استبدلهما ببذلة أشار علي عمي أن أرتديها لأنها تجعل مني «ابن اكابر». رفضتُ فتجاوز عن هذا الإنذار المبكر بأنه لن يستطيع تشكيلي كما يشاء.

دفعت شعري المُسترسل عن جبهتي وتلفتُّ حولي بحثا عن مشط. رأيت مرآةً بجانب الباب لم أكن اكتشفتها لشدة ازدحام الأثاث في الصالة ككل ركن في البيت. دققت في وجهي النظر لأقف على آثار يوم كان أطول بكثير من ليل الخنادق والقصف.

أدهشني أن مجريات يوم أمس لم تصادر ولو قيراطا واحدا من الوسامة المفرطة ومن نضارة الشباب. كل شيء يتلألأ في موضعه كما لمسته أمي قبل أن اغادر؛ ومن ثم وهي تنحني علي تمدُّ عنقها من نافذة السيارة لتشبعني لثمًا وتقبيلا وضمًّا. كل شيء مكانه. الجبهة العريضة يتوّجُها ويسيل من حولها شعر متهدّلٌ غزير ضارب إلى الصفرة يتوسطه خط مستقيم يكاد يبلغ منتصف الرأس. البشرة المشدودة بأوتار الشباب تغلَّبَ لونُها الوردي على سمرة خفيفة محببة. العينان الواسعتان مُشرعةُ الرموش يستقر فيهما لون زيت الزيتون النقي. الأنف المسحوب مُشرَّعُ العَرنَين بغير إفراط. الشفتان المكتنزتان مزمومتان بعض الشيء كأنها تتأهبان لالتقاط شيء ما. الذقن المستديرة تتوسطها نقرة صغيرة تُكمِّل مع الشامة على الخد الأيسر بؤرة أخرى للوسامة المفرطة. إنه الوجه الذي يحسدني عليه كل من يراني، ومع الحسد لا مناص له من الاعتراف بأن هناك خالقًا وهو على كل شيء قدير.

تراجعت إلى الخلف ألوم نفسي على أني وقفت أكثر من اللازم أدقق على غير العادة في وسامتي. دفعت المشط جانبا ورتبت شعري بأصابعي فماتت ابتسامتي فجأة إذ طالعتني صورة عمي معكوسة في المرأة.... برمت جسدي بضيق وخطفتُ لفافة تبغٍ ما إن سحبت منها النفس الأول حتى وجدتها في غاية

المرارة؛ فألقيتها على بسطة الدرج أثناء خروجي قاصدا المشفى.

تكالبَت علي وأنا أدلف من الباب الزجاجي ذكرياتُ الأمس فهاجمني إحساس بأني فقدت عمي. أنعشتني ابتسامة الطبيب الذي أخبرني بكثير من الحذر والحرص بأن الأمر النهائي بتسليم الجثة ينتظر أمرا من النيابة؛ وأن مثل هذا الأمر لم يصل بعد، وأفضى إلي بلهجة بدت وكأنها خاصة لا علاقة لها بالرسميات؛ أن المرحوم جاءته الضربة القاضية من تكسر عظام الصدر ودخول شظية منها كالسكين إلى القلب، وأنَّ هذا لا يحدث إلا نادرا في حوادث لسيارات. دعاني آخر المطاف إلى أن أشرب معه شايا أو قهوة قائلا بابتسامة كسرت حدَّةَ ما أكابده من إحساس بالضيق والقهر.

- يبدو أنك لم تذق شيئا منذ أمس.

أمَّنتُ على حدسه بلا أدنى إحساس بالحرج؛ فأصرَّ على أن أرافقه إلى مكتبه زاعما أنه هو أيضا لم يذق شيئا، وهذا مضر للغاية سيما وأنه مضطر لتدخين لفافته الأولى في عدَّاد الأربعين التي عليه أن يقصف أعمارها؛ على حد قوله من ساعات الصباح وحتى لحظة أن يستسلمَ للنوم. شعرت لعفوية الرجل وملامحه المريحة بكثير من الاطمئنان؛ فرأيت من السخف ألّا أستجيب لدعوته سيما وأن ساعتي تشير إلى أن

الوقت ما زال مبكرا على دخول دهاليز الشرطة والمحكمة إذا ما لزم الأمر. ولمّا لم نكن قد تعارفنا بعد مد يده إليّ مصافحا بمودة.

- خالد.... خالد زهران.

وأكمل كأنما يمتصُّ الكلمات.

ـ أنا أصلًا من ترشيحا المحتلة التي غيَّر الصهاينة....

قاطعته بما يُشبه الصراخ.

ـ وأنا أصلا من يافا.

وإذ ضجّت في عينيه اللهفة والاشتياق لم أجد مناصا من مضاعفة الضغط على يده، وحين استوعبتُ ملامحه ونبرةَ صوته هتفتُ بلا تحفظ.

- اسمي هادي.... هادي الجنزاري.

ظلت يدانا متشابكتين إلى أن دخلنا مكتبا تشع من جنباته برودة منعشة ليس أقل منها هذا الود. أحسست وأنا أجلس أنني لم أغـادر الخنادق، وإذ حطّت على كتفي يدُ خالد زهران أيقنت أنني عثرت علــى أول صـديق في هذي الديار.

(2)

لا أدري متى غفوت في ليلة هاجمتني جيوشُ الذكريات كلها وبلا استثناء تعيبُ عليَّ هذا الرحيل. وجدت ظهري ملتصقا بالكنبة حيث تكوّمت من أول الليل.... نزعتُ القميصَ الذي التقصقَ بالجلد وأنا في طريقي إلى الحمام بحركة فظَّة آلمتني.... قلت «إنني أستحق هذا الألم وأكثر» ونزعت ما تبقى من ملابسي وطوّحت بها وأسلمت جسدي للماء، وإذ تنبهت للساعة نزعتها عن معصمي بعصبية، وحين انحنيت لأضعها على رخام النافذة القريبة من الحوض وقعت عيناي على اسمي محفورا على الغطاء الداخلي. لقد فعلتها هديل.... كيف فاتني أن ألحظَ ذلك من قبل. لمَ لمْ تخبرني حين أعطتني الساعة قبل أن يتقرر سفري بيومين اثنين؟ بدا لي في حينه أنها تقايضني بساعتي القديمة «تليقُ بمن يسافر إلى بلد بعيد، بمن سيلتقي أناسا ينظرون فيما ينظرون إلى ساعته». انطلت علي حيلتها هذه وغاب عني أن لها محاولات عدة لإهدائي أشياء أخرى؛ بَدءًا بسلسلة ذهبية تنتهي بمجسم صغير لفلسطين قائلة: إن الموضة دارجة بتعليقه في الرقبة؛ وانتهاءً

بقميص مشجر بعصافير كلُّ زوجين منها يتناجيان على غصن يانع. حين رفضته غدا وجهها الأبيض أصلا وهي ترمقني بعتاب مرٍّ أكثر احمرارا وجمالا. هذا الجمال الذي لا يبدأ أو ينتهي من عينيها الزرقاوين بلون سماء صافية بلا غيوم. كانت المرارة لا تزال عالقة في حلقها إثر رفضي القميص. ربما لهذا تغابيت وتخليت لها عن ساعتي القديمة لتعطيني هذه الساعة. قلت وأنا أتملّق حزامها الفضي:

- مقايضة في غير صالحك.

رشقتني بزرقة عينيها لائمة ثم أطبقت على ساعتي القديمة وانتزعتها، ولكن حين وضَعَت هذه بدلا منها في معصمي فعَلت ذلك بأناةِ مَن لم تعد تخشى رفضي المقايضة؛ وإذ عدت يومها إلى البيت حطّت نظرات أمي أول ما حطّت على معصمي، لمحت على ثغرها ابتسامة مواربة اختزلت من عمرها سنين مددا؛ فغدت كالمهر وهي تمضى لتأتي لي بالغداء، فتأكد لي أن هديل قد استشارتها في الأمر، لتجد لها حيلة تحطم بها كبريائي الهجين مع كل ما كان وما زال بيننـا.

هديل من جملة الأشياء التي اعتدت عليها في المخيم ومنذ الطفولة التي كانت تنثرني وإياها في الزقاق، تخصّني بالفستق والحلوى من دون الأولاد الآخرين. كنت أجلس ألتهم ما تنثرهُ بين يدي وتجثو أمامي تداعب خرزة زرقاء حَكَمت أمي عليّ

بأن أحملها في رقبتي لتدفع عني حسد الحاسدين، وأطالت شعري حتى أبدو كالبنات فلا يستغرب أحد جمالي فيحسدني عليه... فأمرض فأموت.

لقد اندحرت هديل من الزقاق بعد ما بلغت العاشرة، واندحَرَت معها حباتُ الفستق والحلوى؛ وإن ظل السور الواطئ يشهد لقاءات تسنح بها الإجازات. تحتل أمي وأمها زاوية بينما أحتل وهديل زاوية أخرى نتحدث بعد أن كنا نلعب.

لم أعد صبيا بشعر طويل أحملُ خرزةً زرقاء ولم تعد هديل طفلة. أخذت تكبر وتستدير ويلتف جسدها وينهد صدرها، وتتجمع في عينيها زرقةُ سماءٍ بلا غيوم؛ ولكني أبدًا لم أنظر إليها أكثر من كونها طفلة تتهيأ للعب البريء؛ وضفيرتا شعرها الأصفر تنامان فوق فستان يكاد لالتصاقه بجسدها أن يكون جزءًا منه. كانت أناقتها الزائدة عن الحد تثير أعصابي بيد أني لم أجد مناصا من إطرائها؛ ليزدادَ يوما بعد يوم حرصُها على هذه الأناقة، فلم أدر أيًّا منهما يعطي الآخر تناسقه المدهش؛ ذوقُها في انتقاء الملابس أم جسدها الملتف؟! أكتشف الآن على هذا البعد الشاسع بيننا أنها كانت في غاية الضرورة مثلها مثل أبيها وأمي.

غادرت الحمام ثم تذكرت الساعة فعدت واختطفتها عن رخام النافذة ورحتُ أتملّى من اسمي المنقوش عليها، ثم دسستها في

معصمي بأناة وراق لي النظر إليها بين فينة وأخرى لغايةٍ أبعد ما تكون من معرفة الوقت؛ أو لتذكيري بقضيةٍ عليَّ أن أدلي بشهادتي فيها، مِن ثمَّ لأقصدَ البحر.... فلا بد من أن أقصد البحر. تمددت على الرمل بعدما فارقته السخونة بفعل انحسار الشمس واندحارها خلف تلال قد تكون وهمية. ارتكزت على مرفقي وعبَّيتُ نظرةً من البحر فلم ترتد إليّ مفعمة بذاك الشوق الذي كان يهطل في صدري؛ كلما سمعت أمي تحدثني عنه حين كانت تنتظر أبي على شاطئ بحر يافا.... أو كلما وقفت بنفسي على روعته كلما تسللت إليه. شعرت بغصة تتجمع في حلقي ثم تربض فيه كوحش كاسر. استلقيت على ظهري مُغمِضا عينيّ ثم فتحتهما على سماء بدت لي صافية وإن لم تكن قد تخلّصت من القتام بعد. أبهجتني تلك الزرقة التي تنوس فيها كذبالة قنديل أوشك زيته على النفاد. أغلقت عيني أخبىء فيهما تلك البهجة قبل أن تفر....

تمرُّ أحداث اليوم من أمامي فيلمس الارتياح طريقه إلي وقد صدر أخيرا أمرٌ باستلام الجثة؛ وقد ألفيتُ صالح المحمودي سبقني إلى إنجاز الإجراءات الضرورية كافة؛ مما يتعلق بشهادة الوفاة ومراسم الدفن بعد أن أقنعني بأن لا ضرورة لتسفير الجثمان. قائلا: «إن الميت لا يهمّه في أي إرض يدفن». شكرت له صنيعه فاستنكر أن يتلقّى شكرا على واجب وكاد أن يصيبني إحساس بأنني لم أفقد عمي؛ لولا أني ألمح

في كل مرة أقابل هذا الرجل شيئا ما غير مريح في أغوار عينيه الجاحظتين وتحت طيات بشرته الصفراء المترهلة.

غصت بيدي في الرمل. أخرجتها ممتلئة ثم تركت ذرَّاته الناعمة تنزلق من بين أصابعي ببطء. تساءلت ربما للمرة المئة إن كان قبولي أن يدفن عمي هنا هو القرار الصحيح؟ غاصت يدي في الرمل كرَّةَ أخرى وتساءلت على ذراته الهابطة برفق؛ إن كنتُ قد حاذيت الصواب والمنطق بقولي في المحكمة إن السائق لم يكن في السيارة لحظة أن داهمت عمي؛ وهو مشغول برص المتاع والهدايا في صندوق سيارة الأجرة؟ أنا لم أر شيئا ولم أسمع صرخة المغدور المكتومة إلا بعد انضغاطتِه بين سيارتين؛ أما المعلومات التي أدليت بها فقد استسقيتها من فم السائق الجاني، ومن بين شفتي فتاة كانت ملتصقة به طول الوقت في مكان الحادث، في سيارة الإسعاف، في المشفى، وأخيرا عند قضبان المحكمة حين انتهيت من شهادتي.

لم أر في حياتي كلها امتنانا أبلغ من ذاك الذي رأيته في عيني السائق الذي عرفت أن اسمه «كاظم»؛ وفي عيني الفتاة التي قالت لي إنها شقيقته «نيران». كانت وقت الحادثة قد وصَلت لتوّها في الطائرة التي جاءت بها لرؤية أخيها. كان صوتها ينبىءُ بالفاجعة النازلة عليها. أقنعتني من حيث لا أريد بالنظر إليها نظراتٍ أبعد ما تكون عن الضيق. رأيت وجهها

مخروطيَّ الشكل يخالط بياضه لون برونزي، وإحساس بالحرن أو العذاب جعلها مع نظراتها التائهة في عينيها النجلاوين لوحةً؛ قد لا تكون جميلة عند التدقيق في كل جزء منها، بيد أن النظرة الشاملة تجعلها معبرة خاصة وهي تكرر رفع يديها لتدفع خصلة من شعرها الفاحم وقد تَحرَّنَ دائما على جبينها العريض. حين دققت النظر في عينيها وصلني أولُ خيط من الإحساس بوحدة الحال بيني وبينها، فكلانا في الظروف نفسها فُجِع بقريب أحدهما انتهى عمره، والآخر سيعدُّ دقائقَ ستة شهور عليه أن يقضيها في السجن. حين صدر الحكم تنبّهت على نفسي وأنا أحاول التخفيف عن نيران المفجوعة، وإذ التفتَت إليّ التفاتة مباغتة وحمَلَت عيناها إلي فيضا من الدهشة لكوني أحقُّ منها بالتسرية؛ شعرت بالخجل فصار همي أن اهرب. ربما شعَرَت بذلك فاستبقَت يدي في يدها، وراحت تهزها هزّات توافق نبرةً تحاول تشكيلها بما يوافق امتنانها لموقفي، ونبل مشاعري حيال أخيها وحيالها، وهي التي لم يعد لها من أحد هنا تلجأ اليه.

شعرت في اللحظة التالية إنها إنما ترشحني لهذا اللجوء.... وأكَّدَت على ذلك بأن أبدت استعدادها لمرافقتي إلى المشفى والمشاركة في الدفن. شكرتها أعفيها من متاعب أخرى فعادت إلى الإلحاح وعدت إلى الشكر، ولمّا وجَدتُ أن ذلك قد طال أكثر من اللازم سحبتُ يدي فاستوقفتني قائلة إنها ستكتب لي

عنوان متجر أخيها وهاتفه وكذا عنوان وهاتف البيت.... خطفتُ الورقة منها وأوليتها ظهري فاستوقفتني مرة أخرى.

- لم تخبرني أين تسكن؟

التفت. حطت عيناي عليها فاحترت ما الذي يشتتني؟ رموشها المشرعة أم ذاك السواد القابع في العينين؟ تنبّهت على صوت يكرر السؤال فحركت يدي حركات مبهمة، ومضيت إلى سيارة ربما توقفت لحركة يدي. لمحتها والسيارة تمضي ترفع يدًا أثقلَها الإحباط. لم تدرك مشاعري في تلك اللحظة شيئًا غير يقيني من أن تلك الفتاة قد رمتها المصادفة البحتة في طريقي؛ وأن لن تمحوها المصادفات.

انتشلني زعيقُ فرامل سيارة رينج كومار وهي تترك الأسفلت المخصص للوقوف؛ لتتوقف توقفا مفاجئا بالقرب مني ناثرة موجة عاتية من الرمل علي. رمقت السائق فكان صبيا لم يتجاوز الخامسة عشرة على أكثر تقدير. قمت أنفض شعري وثيابي مما علق بها من رمل ورأيتُ إلى الصبي يترجل؛ ثم يقف بدشداشته البيضاء قبالتي وفي عينيه نظرة تحد صارخ إن كان لدي أي اعتراض، أو حتى إن كنت منزعجًا مما حدث. نظرت إلى أذيال دشداشته وكوفيته التي تلعب بأطرافها نسمةٌ خفيفةٌ بدأت بالتطفل على المكان؛ فلم أجد أبلغ من الرد على نظرته ووقوفه من أن أرفع يدي بتحية ساخرة، ولدهشتي

تقبَّلَها على أنها ضعف ورضوخ إذ انتفخت أوداجه ومضى بخيلاء رافعا ذيله يغمس ساقيه في الماء حتى الركبتين. هززت كتفي امتعاضـا وحاولت أن أستلقي ثانية لولا ان اقتحمني لغطٌ شديد. حسبت أن الصبي قد أغراه الاندفاع إلى البحر فغرق، ولما رأيته على بعد مترين من الشاطئ تلفتُّ حولي فكان رواد الشاطئ يلوون أعناقهم ويشيرون بأيديهم ثم يمضون هرولة إلى مكان قريب تجمّع فيه عدة أنفار متباعدين.

غذذتُ السير لأرى خلقا كثيرين تجمعوا من حول سيارة جنَّحَت عن الساحة الإسفلتية؛ ورجل يصارعُ وحده رفعَهَا من الخلف وهو لا يفتأ يصـرخ «ابني.... ابني يا عالم» من غير أن يساعده أحد.... دافعتُ المتجمهرين للفرجة، وإذ رأيت طفلا لم يتجاوز الرابعة محشورا بين العجلتين الخلفيتين الغارقتين في الرمل اندفعت بحماسة أرفع السيارة؛ ولعلَّ الرجل اطمأن إلى حركة هيكلها فتركني أرفعها وحدي وانشغل في تطمين الطفل؛ إلى أن صارت السيارة في وضع يسمح له بسحبه، فضمَّه إليه بقوة يلومُه على هذا اللعب الذي كاد أن يودي بحياته، ثم حمله ليغسل وجهه بماء البحر يخفف من امتقاع لونه، وحين عاد كان ما يزال يضمه إليه بقوة، ثم وضعَه على المقعد الأمامي وجلسَ هو خلفَ المقود قبل أن يفطن إلى أنه نسي أمرا. فتح البابَ وانطلقَ بقامته الضخمة المترهلة وقد

دلَّت هيئته أنه لا يعرف من ساعده؛ لولا أنه لم يجد غيري واقفا بعدما انفض الجميع وغادورا المكان. شدَّ على يدي شاكرا قبل أن يلعن هؤلاء الناس الذين تركوه مع ابنه يصارعان الموت مكتفين بالفرجة. اقتربت من الطفل أداعب شعره وأفرك له أنفه حتى ضحك فانهال الأب مرة أخرى بالشكر قائلا في كثير من العرفان بالجميل.

- لا أدري كيف اشكرك!

أكّدت له أنني لم أفعل شيئًا أستحق عليه الشكر؛ غير أنه هزّ رأسه بمعنى دعك من هذا ثم مدَّ يده إلى جيبه. أخرج رمزةً من النقود، شطرها نصفين ودفع إليّ بواحد. دفعت يده بخشونة جعَلَته يحسّ بأنه قارف ذنبا لا يغتفر إلا بمزيد من الشكر، وإلا بتقديم نفسه دافعا إلي بطاقة صغيرة.

تناولتها منه بابتسامةٍ اتسعت بعدما قفز الطفل من السيارة واحتضنني فرحت ألاعبه وأضاحكه مجددًا وسط نظرات الرجل؛ الذي تعجَّب من براعتي بإضحاك ابنه، أو لأنني نسيته على ما يبدو وأنا ألاحق الطفل ويلاحقني وهو يستغرب بالضحك البريء. بدا الطفل كأنه لم يلعب مع أحد في حياته القصيرة هذه، وبدوت بأني أنتهز الفرصة لملاعبته عشقًا ببراءة الأطفال، حتى إذا تعبنا ابتسم الرجل مُشيرًا إلى بطاقته التي في يدي.

- الدكتور فلحي مشتاق. هذا عنوان ورقم هاتف كل من العيادة والمنزل. بإمكانك أن تزورني وقت تشاء لنتعارف أكثر وأعبر لك عن شكري بطريقة أقل سخفا مما حاولت الآن.

ثم تخلّى عن تأجيل الزيارة إلى وقت لاحق بأنْ عرَضَ علي أن أرافقه إلى البيت حالا؛ كي تتشرفَ المدام بمعرفتي وتقديم الشكر لي. أدركتُ من تقلُّبِ حال الرجل أنه غير جاد تماما، وأنه مدفوع بشهوة الرد على إيجابيتي وعلى سلبية المتفرجين. شكرته فلم يلح ولكنه لم يتركني إلا بعد أن ضمِنَ وعدا مني أن أزوره في موعد لاحق قريب؛ وذهب من غير أن يحدد إن كان يفضل ذلك في العيادة أم في البيت.

ألقيت نظرة على البطاقة ثم دسستها في جيبي. ارتطمت أصابعي بورقة أخرى حين أخرجتها قرأت على غبشة المساء «نيران». طويت الورقة بعناية وهممت أن أغيّبَها في جيبي ثم عدت ونشرتها لأقرأ الاسم مرة أخرى، وإذ اشتعل الخليج والميناء بأنوار السفن وقَر في نفسي شعور بالارتياح؛ فرحت أستحضر ملامحها الدافئة بالحزن، ونظرة عينيها وغنّة صوتها المبحوح فهالني أن يكون ذلك كله حاضرا في الذهن كأنها أمامي.

تساءلت إن كان ما حدث هو ما يجعلني أفكر في أول فتاة صادفتني في هذه البلاد! قلت «ربما» وحين عادت ملامحها

وغنة صوتها تتشكل أمام عيني استبعدت أن يكون هذا هو السبب. كففت عن السير فجأة أواجه البحر الذي بدا يعلن عن وجوده بهدير خافت تُعرِّفُه موجاتٌ صغيرة. هتفت بصوت يثقله الشجن «لا بد أن أراها» وإذ زلزلتني رغبة في أن ألقي بجسدي في أحضان البحر سمعت اسمي آتيا من الخلف. استدرت لأرى «خالد زهران» داخل سيارته. مضيت نحوه هرولة فقال وهو يضغط يدي بحرارة ومن ثم يفتح لي الباب:

- لم أصدق عيني في البدء.

ثم وهو يشير بيده إلى تكويني الباهر.

- لكن مثل هذا الكيان الفريد لا يعثر عليه المرء بسهولة في هذه البلاد؛ وربما في بلاد أخرى كثيرة.

توترت أعصابي فوسامتي وقوامي المُنّسق يكونان دائما أول ما يجري فيهما الحديث عند التعارف؛ وبعد أن تبدأ خطوات الصداقة تتمدد في بطن الزمن. لم يشعر بضيقي فقد انشغل بتحريك ناقل السرعة قائلا بطريقته العفوية:

- أنت الليلة أسيري.

ورفع سبابته محذرا وهو يزيد من السرعة.

- إياك أن تقول لا.

رفعت كلتا يدي مُسلِّمًا بالأمر الواقع وقد غمرتني لقربـي منه مشاعر الألفة فدفعتني إلى الاعتراف بأني جائع، فصاح.

- إذن هيا لنأكـل.

التفتُّ إليه أتملّى ملامحَه الدافئة، فوجدته أقرب إلي مما توقعتُ لذا خجلت من الكشف له عن ماضيّ القريب وأسباب ارتحالي عن المخيم والخنادق.

سألني فجأة إن كنتُ قد عزمتُ على البقاء بعد الذي حدث، ولم ينتظر ردي إذ أكمل ناصحا.

- ابقَ يا رجل ما دمت قد غامَرت و جئت إلى هذا الجحيم.... على أي حال كلها غربة.

سألته إن كان قد جرّب السكن في مخيم. ضحك فاختزلت الضحكة من عمره عشرة أعوام رغم شعره الأبيض والغصـون التي تفترش جبينه باستمرار. كفّ عن الضحك فجأة. تغصَّنَ وجهه أكثر وارتعشت طاقتا أنفه المشرع وسط وجه مربوع لا تنقصه الوسامة؛ حين يبتهج أو يحزن وفي كلتا الحالين يظل مهيب الجانب والطلعة. قال بصوت يذبحه الأسى:

- وهل كان لنا خيار؟ لقد أخبرتك من قبل أنني من ترشيحا، ولكني لم أخبرك بأن نشأتي في الحقيقة كانت في مخيم صبرا.

أسفت لأن لقاءنا الأول في مكتبه سيطرت عليه أحداث يومي الأول في هذي البلاد؛ فقلت باللهجة الحزينة ذاتها:

- ونشأتي أيضا كانت في مخيم و كذا مولدي.

أطلق ضحكة مغلولة وتساءل وهو يسحب الكابح بعصبية:

- ترى هل تكون المخيمات هذه آخر المطاف؟

قلت بحماسـة:

- آخر المطاف ترشيحا ويافا.

صوّب إليَّ نظرة حملت كلاما كثيرا يودّ لو يقوله، ولكنه اكتفى بتربيت كتفي وبالقول باسخفاف أو إشفاق:

- تعال املأ معدتّك فالمعدة أحيانا لا الرأس ما يتوجب علينا أن نملأ.

وظلّ يعزف على هذه النغمة بعد أن جاء النادل الإيراني بالطعام؛ كما عزف عليها ونحن في طريق العودة.... «لا جدوى من أي شيء.... لا جدوى من أن يأتي الإنسان إلى عالم مبني على الخديعة والانتهازية والمكر.... ولكن بما أننا

نعيش في هذا العالم فعلينا أن نتسلح بالوعي وبالبندقية كي تدفع عنا الذئاب من كل نوع».

قفز إلى خاطري أنه يعرف عني كل شيء فينعى على رحيلي، وكدت أن أرد له الصاع صاعين ما دام يمثل هذه الوطنية والحماسة لولا أن دلت ملامحه وآخر كلماته أن ما قاله كان عارضا كسؤاله المفاجئ.

- سمعت أن طفلا صدمته سيارة والده وأنه قد مات. هل سمعت بذلك أثناء وجودك على الشاطئ؟

نفيتُ أن يكون الطفل قد فارق الحياة وذكرت له على استحياء ما كان من الناس ومني، وأخرجت له بطاقة فلحي مشتاق دليلا على الصدق.

- إنه ابن الدكتور فلحي مشتاق، وقد أعطاني هذه البطاقة وأصر على أن أزوره.

أوقف السيارة فجأة والتفت إلي التفاتة ضج فيها ذعر حقيقي. خطف البطاقة. نظر إليها ثم دفعها إلي مغمغما بسخرية.

- فلحي مشتاق؟ إذن تعرفت عليه؟!

لم أدر سببا لهذه السخرية ولهذا الأسف وسمعته يقول بلهجة حاسمه كأنما يتحدث إلى طفل.

- أنصحك بألّا ترى هذا المخلوق مرة أخرى.

وصلنا أخيرا بيت عمي فلم يفسر لي السبب وأنا بدوري لم أسأله. عرضت عليه أن يدخل معي فأبى واعدا بأن سيزورني في وقت لاحق، وانطلق يزعق بالعجلات فأرجعت ذلك إلى أنه نسي في غمرة ما أثارته معرفتي بفلحي مشتاق من إحساس لديه بالأحباط؛ فنمت أنا أيضا محبطا.

استيقظت وساعتي أو ساعة «هديل» تشير إلى التاسعة. تذكرت أني من يومين أجترُّ هذا الخمول ويجترّني دون أن أفعل شيئًا سوى الاستحمام وتأمل الصورة والنوافذ؛ فقفزت من السرير وكلي تصميم على الذهاب إلى الشركة لأقف على وضع عمي وأرعى مصالحه فيها. تذكرت أني سأقابل المحمودي مرورا بالرجل الزجاجي وشعبان؛ فاقتحمني إحساس بالانقباض وإذ وجدت ألّا مناص من الذهاب ارتديت ملابسي على عجل؛ وطفقت أبحث عن مفاتيح سيارة عمي. وجدتها بعد جهد جاهد معلقة بمسمار فوق مرآة زينة زوجه. تفقّدتُ رخصةَ القيادة فاعترضني خاطر إن كانت سارية المفعول هنا، ولكي أتخلص من الحيرة أزمعت على الإتصال بنيران وسؤالها ولما تذكرت أنها مثلي قليلة الخبرة؛ ولمَّا لم أكن أعرف رقم بيت خالد زهران أو المشفى حيث يعمل أخرجت بطاقة فلحي مشتاق وطلبته على رقمه في البيت. رد على صوت أنثوي كأن صاحبته قد تركت السرير لتوها؛ أو

لعل هذه الغنة فطرة فيه. قدَّرت أنها زوجه، قلت لها إني أريد الدكتور فسألتني من أكون، ذكرت لها اسمي فلم يعن لها شيئا فاضطررت إلى ذكر حادثـة الشاطئ فهتفت بحماسـة لم تقلل من صوتها المثقل بالنعاس فبان فطرة فيه.

- آه.... هادي الجنزاري. إذن أنت من أنقذت ابني الوحيد؟ أريد أن.....

انقطع صوتها فجأة وران صمتٌ أعقبه فلحي مشتاق يهدر بالغضب عمّن أكون! ذكرت له اسمي ولما هجم عليه الصمت ذكرته بحادثة الشاطئ فهتف وقال إنه كان يتوقع مني أكثر من الاتصال بالهاتف.

ـ أهذا وعد الرجال؟ كان عليكَ أن تزورني فورًا لا أن تتصل.

أكدت له أن الزيارة لا بد آتية، وأحسست من نبرة الإكبار في صوته بالحرج لأني أتصل سائلا في أمر يبدو له جد تافه، بيد أنه لدهشتي تلقفه باستحسان ونفى أن أكون قد سبب له إزعاجًا من أي نوع، ثم أردف بثقة مفرطة:

- لا تهتم. وإن حدث واعترضك أحد فما عليك إلا أن تتصل بي، أو تقول على الأقل أنك من طرف الدكتور فلحي.

ورفع طبقة صوته وهو يذكر اسمه فشكرته معتذرا على هذا الإزعاج؛ فلامني مؤكدا أنني على العكس برهنت بذلك أنني ذو نظرة ثاقبة تعينني على اكتشاف من في أيديهم الحل والربط في هذه البلاد.

وضعت السماعة ببطءٍ متسائلا عن دوافع خالد زهران لتحذيري من فلحي هذا. لم أجد سببا معقولا غير عدم الاستلطاف الذي يحمله أصحاب المهنة الواحدة لبعضهم بعضا. خرجت أصلصل بالمفاتيح ولما وصلت السيارة خشيت أن تكون لطول الاهمال تيبَّست مفاصلها؛ ولكن محركها هذر من أول دورة للمفتاح، وقبل أن أغادر المرآب جابهتني صورة عمي معلقة في حافظة شمعية صغيرة تتدلى من المرآة؛ فدهشت مرة أخرى من هذا الإصرار على أن يكون موجودا في كل مكان.

انفرج شدقا باب الشركة ووجدتني وجها لوجه مع الرجل الزجاجي. توقعت أن يكون أكثر دماثة وأن يغادره بعض عبوسة؛ ولكنَّ وجهَه المتهجم مدكوكَ البشرة قطع هذه المرة أيضا عليه سبل المحاولة، وإذ تذكرت أنه الوحيد هنا مَن لم يعزّني بعمي حدست أن بين الرجلين من الأحقاد ما لا يمسحه الموت. حاولت أن اتجاهله فلعلع صوته يسألني عما أبغي. تظاهرت بأني لم أسمع فوجدته يتدحرج أمامي بقامته القصيرة المكتنزة، ثم يسد الطريق سائلا بما يشبه الصراخ.

ـ سألتك ماذا تبغي يا محترم؟

استفزني صوته وقبضة الاتهام المشرعة في عينيه المصبوغتين بالكحل. قلت برود:

ـ أنت مخطئ.... فأنا لست محترما.

هرش رأسه من تحت الكوفية البيضاء وعاد إلى تكرار السؤال فقلت ملوّحا بقبضتى أمام وجهه تماما:

ـ في كل مرة تسألي مثل هذا السؤال وفي كل مرة أردُّ بأني أريد المحمودي.

لم أدر أني أجبته على سؤاله إلا بعد أن ازداد غُلوًّا وسعارا.

ـ وأنا قلت لك أكثر من مرة أن اسمه الشيخ صالح.... الشيخ صالح المحمودي.

وضغط بأضراسه على الاسم واللقب فَمَطَطتُ شفتى مطوّحا بحافظة الأوراق حتى استقرت على كتفي.

ـ لا فرق ما دمتَ تفهم من هذا أني لا أريدك أنت.

لطم فخذه بيده وزفر من أنفه الكبير ورمقني شزرا قبل أن ينحني انحاءةً ساخرة مشيرا بيده أن أمر. ظهر شعبان على البسطة، ولعله كان يصغي لما يدور بيد أنه آثر الظهور في

زمان ومكان لا يمكن للرجل الزجاجي أن يراه وهو يرحب بي. سمعته يطوّح بيده إلى الخلف ويغمغم بكلام لم أصغ إليه جيدا. ضقت ذرعا به ولكنه أصر على أن يوصلني إلى باب مكتب المحمودي. نسيني للحظات أمام الباب بعدما نقره وفتحه رافعا يده بالتحية ثم أغلقه في وجهي. خرج بعد هنيهة يفترسني بعينين فارقتهما الألفة قال بجفاء:

- تفضـل.

وحين دخلت رأيتُ تقطيبةً يغالبُها المحمودي إضافة إلى اختزاله النهوض هذه المرة إلى النصف ليستقبل يدي بكف باردة؛ فأدركت سرَّ تغيّر شعبان هذا التغير المفاجي. أشار بحركة غير متسقة من يده أن اجلس فجلست أمام رجل أنذرني برودُه بأنه غير مستعد لتقديم أي خدمات أضافية غير تلك التي كانت منه يوم الدفن. رأيت إليه يسحب أوراقا من درج المكتب يقلِّبُها بحركة من لا يجد كلاما يقوله؛ أو من يعزفُ عن سماع أي كلام.

شرع يحك أنفَه الكبير بظاهر كفه قبل أن تتجمد عيناه على علبة مُطعَّمة بصدف من ألوان المكتب. فتحها ومدها نحوي فظهرت أنابيب رمادية من سيجار لا بد أن يكون فاخرا. أخذت واحدا فرمقني بطرف عينه بما يشى أنه كان يتوقع أن أرفض شاكرا. تناول واحدا وراح يقرض قشرته السميكة

ويبصق الفتات كيفما اتفق. سقطت شظية مجبولة بلعابه على ظاهر يدي فتركتها مخفيا قرفي. لاحظها هو فلم يبدُ عليه أي إحساس بالذنب أو الحرج. أخيرا غرس السيجار بين أسنانه ففعلتُ مثله وطفقت أبحث عن ولاعتي؛ وأنا حريص على أن أنظف يدي بجلد المقعد من غير أن يشعر. أشعلت الولاعة وقربتُ لهبَها من طرف سيجاره فتفشى تحت بشرة وجهه الصفراء شيء من الرضا والزهو؛ فقال على الفور بعد أن دفع أول غيمة من الدخان الأزرق عبر شفتيه الغليظتين:

ـ كنت أتوقع أن تقضي وقتا أكثر من هذا قبل أن تأتي طلبا للعمل.

قلت وأنا أضع ساقا على ساق:

ـ الواقع لم آت اليوم من أجل العمل.

تشكّلت على زاوية فمه ابتسامة لم أدركها. تناول ولاعته الذهبية وراح يشعلها ويطفئها قبل أن يقول بلهجة من يقرأ خواطري.

ـ إذن فتوقعاتي في محلها. عمّك قد أخبرك قطعا بأنه الرجل الأول في الشركة.

«لقد أخبرني بشيء كهذا وأفهَمني بطرق شتى أن كلمته في الشركة لا تصير اثنتين ولكن لمَ يقول: المحمودي هذا كله؟»

- لم أفهم.

صمتَ لفترة أطول وهو لا يكف عن إشعال ولاعته وإطفائها، ثم نظر إلي ورأسه ما زال مُنحنيًّا، وتثاءب حتى برزت أضراسُه الملبّسة بالذهب.

- ما علينا. على أي حال أنت لا بد تعرف أني من أرسل إليك التأشيرة وعقد العمل، ولكن ما لا تعرفه أن ليس من عادتي ان أرجع عن كلمة صدرت مني.

ثم رفع أصبعه مُنبّهًا.

- لا تفهم من كلامي أني راجعت نفسي بشأنك. على العكس فحين رأيتك دخلَت من الباب العريض إلى نفسي؛ وقلتُ لها إني عثرت على الرجل الذي يستطيع إقناع العملاء ومخاطبتهم بما يليق به وبسمعة الشركة.

وكوَّرَ يدَه بالقرب من وجهي ثم أتبعها بحركة شاملة حول جسدي.

- فأنتَ ما شاء الله لم تُبقِ من الكمال والزين شيئا لغيرك، وهذا طريق لطيف للدخول إلى نفوس الناس! أو إلى جيوبهم على الأصح.

كان الغيظ قد بدأ يتجمّع ذراتٍ صغيرة وحين أقفل جملته هذه هَطلَ الحنقُ في صدري مدرارا. رفعت يدي أوقفُ زحفَ لسانه ونظراته المتوقدة بالمكر.

- أرجوك. لا أرغب في أن يكون عملي انطلاقا من شكلي ومظهري.

وارتفقتُ سطحَ المكتب وانحنيت نحوه مُركِّزًا عيني في عينيه المشدوهتين.

- ثم لا تنس أني ابن أخ المرحوم شريكك... تذكيرك بهذا يجعلك تطرح مسألة عملي جانبا على الأقل.

رشقني بنظرة باردة وغمغم.

- إذن فلقد خدعت فيك، فأنت لم تفهمني حقا!

قلت ساخرا:

- دعني أفهم إذن.

سدَّدَ إليّ نظرة باردة وقال بهدوءٍ من يعرف سلفا أن النتيجة لصالحه.

- باختصار شديد ولكي لا تتعبني أو أتعبك؛ ما عليك أن تعرفه يقينا أن عمّك لم يكن أكثر من موظف في شركتي هذه؛ كالكثير من الموظفين. صحيح أن منزلةً خاصةً كانت له بسبب خبرته وتفانيه في العمل، ولكن هذا لا يعني أنه كان أكثر من موظف، لم يكن شريكا على الإطلاق حتى وإن كان يَلذُّ له أن يصرّح في كل مناسبة بأنه شريكي. كنت أتغاضى عما ينقله الموظفون إلي كيلا أحرجه ما دام الأمر لا يتعدى الكلام؛ وحب الظهور لاكتسابِ منزلة خاصة في الوسط الراقي. يبدو أن عمك أطلق هذه الكذبة _وأنا آسف لهذا التعبير_ وصدَّقَها فبات يتصرف على هذا الأساس، وأنا لم أرَ مبررا لإيقافه عند حدّه ما دام هذا الوهم يجعله حزمةً من النشاط.

هربتُ من عينيه أتطلّع عبر النافذة فكان الصهدُ يتسلّق الفضاء؛ وسرعانَ ما دبَّت السخونة في أطرافي رغم هدير جهاز التكييف. ربما لاحظ تشتتي فأكمل بصوت يقطر حقدا وشماتة.

- كان حمارَ شغل ربما لوهمه بأنه كان يعمل لنفسه ما دام شريكا وله النصف.

ضربت المنضدة بكلتا يدي وأنا أنهض زاعقا.

ـ كفاك تقطيعا في أوصال رجلٍ ميّتٍ كان في يوم ما زميلا لك.

ثم وأنا أنحني ببطء ليتراجع هو إلى الخلف بالمقدار نفسه.

ـ إن كنت تعتقد بهذه الأكاذيب أنك في غاية النباهة وخفّة الدم فأنت وحدَكَ لا عمي مَن يسبح في الوهم... لستُ لقمةً سهلةً إن كنتَ تظنّ ذلك؛ فإن بدوتُ في نظرك القاصر كذلك فأنا أقتلعُ أثناء بلعي الحلقَ والأمعاء قبل خروجي سالمًا معافى.

وحين استقمت واقفا أحدجُه بنظرة ملتهبة عاد إلى وضعه السابق يعدّل من كوفيته؛ بينما يده تترددُ بالضغط على زر بدا مثبتًا أسفل مكتبه قبل أن تستقرّ على سطحِ المكتب، ولمّا لم يكن اصفرارُ وجهه يساعد على إظهار فزعه أو اضطرابه دلّني على ذلك ارتعاش السيجار بين أصابعه. دفنتُ السيجار أمامه في المنفضة وحملتُ حافظة الأوراق والمفاتيح بما يشبهُ الخطف وقبل أن أستدير ذاهبا جاءني صوته محذرا.

ـ مع قلة أدبك هذه، أمنحك فرصة أخيرة كي تعمل عندي.

رمقتُه شزرًا من فوق كتفيّ فرأيته ينهض ويوليني ظهره يداعب شِيشَ النافذة؛ بغير ما هدف إلا لإظهار عدم اكتـــــراثه بي. عبّر عن ذلك بالقول من غير أن يستدير.

- إذن أنصحك بأن تطلب من شعبان كي يدلّك إلى مكتب عمك فتأخذ صورته المعلقة هناك؛ وكذلك أغراضه إن كانت له أغراض.

أحسست بعرق بارد ينزُّ من جبيني فسارعت إلى الخروج قبل أن يتحول سيولًا تفضح قلة حيلتي. صفقتُ البابَ من بعدي ونزلتُ الدرجات هرولةً بعدما لمحت شعبان يطلّ برأسه من أحد الأبواب المجاورة لغرفة المحمودي ثم يختفي بسرعة. اندفعت إلى خارج المبني ومنه إلى السيارة. لم يكن في ذهني إلا أن أتغلّب على تردّدي فأرسل إلى الأستاذ بكري بنبأ وفاة عمي؛ ليقوم بدوره بنقلهِ إلى زوجه حسنة ومن ثم يطلب منها المجيء وحدها أو مع ابنتها؛ علّهما تفضحان سيل الأكاذيب التي انهالت من فم المحمودي، ومن عينيه اللتين أعرف الآن لمَ لمْ أرتح قط كلما نظرت فيهما.

جلست في السيارة محاولا أن أكتب صيغة البرقية فلم أستطع. تركت الورقة والقلم فبزغَت في خاطري ملامحُ نيران، هممت بالذهاب إليها ثم عدلت عن ذلك بسبب ما حاق بي من تشتت وضياع، ووجدتني أتحرك باتجاه المشفى الحكومي لأطرح

المشكلة بين يدي خالد زهران. قصدت مكتبه وقدماي تهاجمان البلاط الكاتم للصوت بشراسة ورعونة. قابلتني عند الباب ممرضة حين سألتها عنه قالت إنه غادر منذ ساعتين لأمر تجهله، وحين شكرتها واستدرت كي أذهب استوقفتني.

- إن كنت تريد الدكتور خالد لأمر هام _ وهذا ما يبدو عليك_ تعال لأدلك على جرجس.

ولما سألتها عمن يكون جرجس هذا من باب رد الاعتبار لاهتمامها ولرغبتها في إسداء خدمة ما لي، قالت باندهاش أن كيف لا أعرفه.!

- إنه كبير الممرضين، وهو صديق حميم للدكتور خالد.

شكرتها ثانية مؤكدا أني أريد الدكتور خالد شخصيا ومضيت قاصدا باب الخروج؛ فسمعت خطواتها تتعقبني حتى إذا دخلت السيارة وأغلقت الباب رأيتها واقفة بالباب. لم أتملَ من وجهها جيدا بيد أن ملامحها وعربيتها المفككة وشت بأنها من شبه القارة الهندية. سخرتُ وأنا أدير المحرك من هذه الملاحظات الصغيرة، ثم أرجعتها إلى ما أبدته الفتاة من لطف نزل بلسما على حلقي الذي جففته رياح المحمودي الساخنة.

استرجعتُ كل ما قاله بالحرف الواحد، قابلت بينه وبين ما استطعت أن أجمعه من عمي خلال المدة القصيرة التي عرفته

بها عن قرب؛ فلم أجزم إن كان بريئا حقا من تلك التهم. أغاظني هذا أكثر فضغطت دواسةَ البنزين فجأةً علَّ السرعة تخلّصُني من ضيق يفور من مسامات جلدي مع العرق؛ وتقربني من نيران التي لا أدري بالضبط مدى استعدادها لتقبّل شخص منهوك مثلي؛ لم تره على هذه الحال حتى وهو يرى عمه يصرع أمام عينيه.

بدا لي وأنا أوقف السيارة وكذلك بعدما ترجلت أن المتجر مغلق. حاولت أن أتأكد بالنظر عبر الزجاج اللماع؛ ولكني لم أر غير صورتي. تبيَّن لي أني منكوش الشعر وأن الضيق فعل فعله في وجهي. لم أشعر إلا والباب الزجاجي يفتح وأنا على هذه الهيئة من الإنحناء والتحديق. رأيت نيران تضرب كفا بكف دلالة اغتباط لم يأخذ مداه على وجهها المخروطي.

ـ أنتَ أم شبحُك؟

أنعشتني غنّة صوتها المبحوح فمددت يدي قائلا:

ـ كنت أحاول التأكد من أنني في المكان المناسب.

قالت وهي تسحبني إلى الداخل ضاحكة.

ـ لست بحاجة إلى الدفاع عن نفسك.

ثم وهي ترشقني بنظرة جانبية من عينيها الشهلاوين.

ـ لم أفكر في أنك كنت تنظر إلى صورتك.

لم أدر إذا كانت بهذا تلمِّحُ إلى ذكائها أم إلى وسامتي. أحببت أن يكون ذكاؤها هو الغالب. قدَّمَت لي مقعدا غير أني ظللت واقفًا أتفحص المتجر. لم يكن كبيرا كفاية ولكنه مرتب ونظيف بما يناسب النسوة اللاتي أقيم خصصيا لهن. أبديت إعجابي بالمكان فشكرتني بصوتها المبحوح الغارق في غنّات الحزن، وإذ دققت في وجهها النظر كانت هناك مسحة منه تسبح تحت بشرة البرونز؛ مختزلةً الكثير مما تحاول إبداءه من سرور لمقدمي. عزوت ذلك إلى ما حدث لأخيها. قالت بعدما استجبت لإشارة من يدها بأن أجلس.

ـ لقد أعطيتك العنوان من غير أن يكون لدي أدنى أمل في أنك ستفعلها وتأتي.

ثم أطلقت ابتسامة مُبتسرَةً ولكنها كافية لإظهار ثناياها الناصعة المندفعة قليلا إلى الأمام؛ ما أعطى ثغرها الصغير فتنة إضافية على تلك التي تسببه حركة يدها شبه المستمرة لرفع الخصلة الفاحمة النائمة أبدا على الجبين.

ـ شكرا لأنكَ خيّبت ظني.

أشرت عليها أن تجلس وإذ فعلت قلت وأنا أسافر في ملامح وجهها المريحة رغم ما يُغلِّفُها من حزن.

- أرجو ألّا تظني للحظة أني حاقد على أخيك. ما حدث كان خارجا عن إرادته وإرادة عمي.

أرسلَت إليّ نظرة مباشرة مفعمة بالامتنان، ودلَّت حركتُها وهي تترك وضع التحفز لتجلس بارتياح على أنها كانت بانتظار هذا التوضيح الصريح وكأنها لم تكفها شهادتي، وحين أصرّت على الخروج لتحضر شرابا باردا تساءلت بيني وبين نفسي فيما لو أن موقفي هذا سيتغير لو أن علاقتي بعمي اتخذت امتدادها الطبيعي! وحين عادت بزجاجتين يعلوهما حباحب الماء كان الإحساس بالضيق والقلق قد فارقني تماما، ووجهي الذي كان مشدودا لحدِّ الإيلام ومربدا كما عكسه الزجاج تفشت فيه النداوة.

كرعت من فم الزجاجة مُهملًا كوبا أتت به نيران لأصب فيه السائل البارد. نَحَّت بدورها كوبَها جانبا ورأيتها تجاهد للقبض بفم ضيق الفتحة على فم الزجاجة. لم يسعفها غير امتلاء الشفتين لا سيما السفلى منهما؛ أما نحرها وهي ترفع وجهها بما يوافق انسكاب السائل فكان سامقا لا يشوبه ذاك السمار الداكن الذي أراه حيث تلفَّتُّ في هذي الديار.

ران بيننا صمت كان بعكس العادة خفيف الظل قطعَتهُ بصوت ينز منه الحرج.

- في هذا الوقت من النهار يكون الناس في مكاتبهم أو بيوتهم. يخرجون في فترة ما بعد العصر لينتشروا في الأسواق كالنمل.

انشغلت بالنظر إلى نقطة من الشراب حرَّنت على شفتها السفلى. في اللحظة التي تمنيت أن تبقى هكذا برزَ طرفُ لسانها ثم غابت القطرة معه؛ تاركا لمعانا خفيفا على لماها الذي تركته مُعطلا من الأصباغ، ربما بدافع الحزن على أخيها، وربما ليقينها بأنها هكذا أجمل. تعجبت من انسياقي لمراقبتها عن كثب أحصي حركاتها وسكناتها. قلت استجابة فورية لإحساسها بأني اراقبها.

- ما تقولينه يدلّ على أن هذه ليست أول مرة تأتين إلى هذي البلاد؟

قالت وهي ترفع الخصلة الفاحمة وهي تعرف أنها لن تغادر الجبين:

-هذه هي المرة الثالثة.

ثم قطبت جبينها غير عالمة بمدى ما يرميه ذلك على كاهلها من سنين.

- ولكنهـــا أســـوأ المرات.

ثم وهي تنقر على سطح زجاج خزانة الألمنيوم نقرات رتيبة.

- أشعر أحيانا بأنني كنت شؤما على أخي.

شردتُ ببصري إلى الشارع الخالي من المارة. قلت في حزن مماثل:

-أتـدرين؟ لقد قلت هذا عن نفسي. قلت إني كنتُ شؤما على عمي.

ثم كرعتُ الزجاجة لأعطيها مهلة لطرد الحزن، وصار بإمكاني أن أبدو أكثر تفاؤلا.

- ما تشعرين وما أشعر به مجرد أوهام، فلا معنى لسوء الطالع.

شاع في محيّاها الرضا غير أن مسحة الحزن التي تغلّف الوجه كانت تأبى دائما على الاندحار تماما؛ فتقنع الناظرَ إليها بأنها وإن ضحكت أو حتى قهقهت فذلك كله من خارج القلب. عزوت ذلك مرة أخرى إلى ما حدث، وكان علي أن أمضي نصف ساعة على الأقل في حديث متصل عن فنون القضاء والقدر؛ حتى إذا ما شعرت بأنني قلت ما ينزع فتيلَ إحساسها بالذنب، وأنها باتت مهيأة لسماع نكتة والضحك منها؛ رأيتها أحسن حالا حقًّا غير أن مسحة الحزن تلك ظلت قابعة في

مكان ما تحت بشرة البرونز؛ تنبئُ عن وجودها الدائم كبركانٍ خامد لا أدري متى يثور! فتزيد سنَّها خمسةَ أعوام على الأقل وقد قدَّرت أنها في مثل سني، في الثلاثين.

جرى الحديثُ غضًّا بيننا. طفقَت تتحدث بإسهاب عن زياراتها شبه اليومية لأخيها في السجن، وكيف تقضي الوقت في المتجر قبل أن تعود إلى البيت لتشغل نفسها بأي شيء كيلا تظل نهبا للإحساس بالضيق والوحدة.

ـ لحسن الحظ فأنا أجد ما ما يشغلني.

كانت لهجتها من الصدق بحيث شعرت بأنها.قادرة رغم كل شيء على تشكيل حياتها وإبهاج من يجالسها، ولمَّا سألتني كيف أقضي وقتي كدت من فرط النشوة أن أخبرها بما كان من المحمودي، ولكني آثرت أن أرجئَ ذلك إلى وقت لاحق أكون فيه أكثر ضيقا؛ وتكون هي أكثر استعدادا لإضافة مشكلات أخرى إلى رصيدها منها. قمت أتفحص موجودات المتجر وكنت ألمحها تتفحصني عن كثب، وتحرص على أن تراقبني من أكثر من زاوية. قلت إنه شكلي الجذاب للمرة الألف الذي لا تجد النسوة فيَّ شيئا غيره؛ وكذا كثير من الرجال. أمعنت في تفحص الملابس والديكور لأتيح لها فرصة أكبر لدراستي. كانت مستغرقة لدرجة أنها لم تتفوه بأي كلمة منذ نهضتُ؛ كما أنها لم تسمعني إلا بعد المرة الثالثة وأنا اعلن

لها عن اضطراري للذهاب. قالت أخيرا كمن تصحو من حلم جميل وهي تحدق إلى يدي الممدودة.

ـ لم نتحدث عن كل شيء بعد؟

قلت ضاحكا :

- وماذا نُبقي للمرات المقبلة؟!

أغَضَّت من بصرها للحظة وقد تضرَّجت وجنتاها بحمرة السرور، وحين نهضَت رموشُها المشرعة وقَفتُ أكثر على نجالة عينيها وسوادهما فلم أدر ما الأكثر حلكة! عيناها أم شعرها الفاحم؟! ألقت بعد تردد في يدي يدا رخصة وشيَّعتني إلى الباب. ظلت واقفة هناك إلى أن دخلتُ السيارة وأدرت المحرك، وحين رفعت يدي لها مودعا رأيتها تقبل نحوي هرولة. ارتفقت النافذةَ المقابلة فأخذت خصلة شعرها النافـرة حقها أكثر من الإغفاء على جبينها العريض. قالت بعتاب:

ـ لم تعطني عنوان البيت ورقم الهاتف!

وقر في نفسي أن إغفال ذلك للمرة الثانية سيدفعها إلى التعلق بي أكثر؛ ولما أصرَّت وحاولتُ أن أصف لها البيت وأعطيها رقم الهاتف وجدتني عاجزا عن ذلك، وأحسست بعجزي على الفور.

- إذن اتصل بي بعد ثلاثة ايام.

ثم أكَّدَت.

- اتصل بالهاتف ولا تأتِ.

ابتسمتُ من طَرافة الطلب وهززت رأسي بالقبول وأنا موقن بأني سأنقضُ هذا العهد في أقرب فرصة مواتية. لمحتُها وأنا أغادر ببطء تسحب عينيها بتثاقل عني؛ بعد أن سحَبَتهما بتثاقل أكثر حين ربضَت ابتسامة على شفتي من طرافة الطلب، ثم شرَعَت تتلفت حولها لتتأكد من أن أحدًا لا يراها معي، أو لتتأكد من أن أحدا يراها.

ظلّ طوفان من النشوة يغمرني إلى أن برز وجه أمي فجأة واقتحمتني عيناها على غير العادة؛ كأنها مناخس لما تظنّه خيانة لا تغتفر لها ولهديلي. حين كنت أتأخر في القاعدة أجدها جالسة عند البوابة المتداعية وهديل معها تطمئنها على أني بخير؛ ولكنها لا تطمئن حتى بعد أن تراني.... لا تطمئن إلا بعد أن تتحسس وجهي وتلثمني وتضمني إليها عندما تقول «ها هو كنزي وقد عاد إلي» ويشرق وجهها بذلك الفرح الطاغي الذي جعلني مرارا أشعر بالذنب لما أسببه لهذه المرأة من عذاب. تغدو كمهرة تحدث جلبة وأصواتا ربما هي ما

يجعل الأستاذ بكري يطل برأسه من فوق السور وهو يغالب ضحكة.

- هنيتي يا أم هادي. الحمد لله على السلامة. تعالي يا هديل ما دام هادي قد رجع.

كانت هديل تمضي وفي عينيها لهفة أن تبقى مدة طويلة فتشيّعها أمي بنظرة امتنان وإعجاب، وتلومني بنظرة أخرى لأني لا أعير هديل اهتماما تستحقه.

- ابنة حلال.... شهد مُصفّى هذه البنت.

وتكمل دائرة التلميح بالدعاء الصريح.

- الله بجعلها من حظك ونصيبك يا هادي يا ابن بطني.... قادر يا كريم.

أضحك وأندفع نحوها أضغطُ بكلتا يدي على رأسها أعصره بلطف.

- ستأخذني منك يا عجوز يا طيبة.

تلثم يدي بالتناوب.

- فلتأخذك.... الله يهنيك ويهنيها.

ثم تعبث بشعري وتطقطق بشفتيها تغالب ظنونا ربما غَزَتها.

- لا. هديل ليست من هذا النوع.... إنها ابنة أصول.

أعانقها بحب.

- حتى وان تزوجت من غيرها فهل تعتقدين أني سأتركك؟

تقلقل رأسها مؤكدة أن لا.... ثم تعبثُ بالرشاش طويلا وعيناها علي؛ وقد بزغَ فيهما شك مقيم إن كنت أفكر في الزواج حقا.

أتخيلها الآن جالسة أمام باب الحوش المتداعي تنتظر الأخبار عني كما كانت تنتظر دائما؛ وهديل تطمئنها على أني بخير وهي في أمسِّ الحاجة إلى ما يطمئنها.

غابت أمي وغابت هديل فجأة من ذهني. طردهما المحمودي بهراوة حين اقتحمتني عيناه فجأة؛ فطيَّرَتا نشوة باقية من هذه الذكريات.... طردتهما وقد قررتُ أن أطيِّرَ برقيةً إلى الأستاد بكري أخبره فيها بما حدث؛ ليخبر بذلك حسنة ما دام سيحدث هذا آخر الأمر، وطفقت أبحث عن مكتب للبريد.

(3)

استيقظت من النوم في اللحظة التي ترَعَ صالح المحمودي كأسه بكأسي قائلا:

ـ اشرب في صحة عمّك الكذاب.

كانت الكأس الثانية أو الثالثة وأنا الذي لم أذق في حياتي الخمر قط. شيء كالنار تنزل في حلقي وربض يعوي في الأمعاء فاستيقَظَت آثارُه معي. نفضتُ رأسي أُسقِطُ ما علق به من هذا الكابوس، وتركت الفراش إلى الحمام.

كانت المدينة ما تزال تأخذ حقها من الراحة وبرودة منعشة نوعا بعد نهار قائظ. عدت إلى حجرة أنيسة واستلقيت في الفراش وأنا أعجب من حلم كهذا يجمعني بصالح المحمودي على شرب وصخبٍ وضحكات لا تنتهي. قلت أن أحلم بالمحمودي شيء منطقي، الغريب أن أسامره وأجالسه وأضاحكه وأنادمه بدلا من أن أخنقه. تنبّهت وأنا أدور في أرجاء البيت كالفرخة المذبوحة على صوت جرس يئز أزيزا متصلا. مضيت من تشتتي إلى الهاتف. رفعت السماعة وحين

ظل الجرس يلعل مضيت إلى الباب أفتحه؛ وأنا اتساءل عمن تراه يقصدني. تصدّى لي وجه صالح المحمودي راسمًا على شفتيه الغليظتين ابتسامة رجراجة عَجِزَت عن اغتيال ولو جزء ضئيلٍ من صفرة الوجه. ظللت للحظات أحدق فيه غير مُصدّق أن هذا الواقف أمامي هو المحمودي نفسه. قال وكأنما يقرأ خواطري:

ـ أجل أنا الشيخ المحمودي بشحمي ولحمي.... لمَ تستغرب؟

ثم عبر إلى الداخل بجسده القصير المكتنز وجلس. وحين حاول أن يضعَ ساقا على ساق خذله ساقاه القصيرتان وفخذه المربربة؛ فاضطر إلى رفع جذعه كله لهذا الغرض.

ـ لعلك لم تتوقع مجيئي بعد كل ما حدث منك! معك حق لو تقصَّدتَ بقلةِ الأدب شخصا غيري. لكني متسامح ولعل هذه الخصلة هي ما جعلت عمك يطلق كذبة الشراكة ثم يصدقها.

أعطيته ظهري محتدا.

ـ حسبتُ أنك أفرغت سمومك كلها بالأمس.

أكمَلَ كأنما لم يسمعني.

لقد بحثت لك بعد خروجك عن أعذار معقولة حتى وجدتها؛ فأنت جئت مزروعا بآمال عريضة لتجد الواقع على النقيض

تماما مما كان يقوله عمك الذي دأَب علــى زراعة الخليج بطيخـا.

سددتُ إليهِ نظرةً مشتعلةً بالغيظ فنهض مادًّا ذراعه على طولها كيما تبلغ كتفي ردًّا على ما قد قلته وحسبت أن لم يسمعه.

- أنت مخطىء إذ تظن للحظة أني مولع بالنبشِ في سيرة الأموات. ما حدث كان قاسيا علي، ولعل قيامي بالواجب في حينه يقنعك بأني لا أحمل أي ضغينة لعمك.

وضغط كتفي ما وسعه من ذلك واستطرد بثقة من يعرف أن مركزه من القوة حيث لا تزحزحه الزلازل.

- ولكن الحقيقة يجب أن تقال كيلا تظل في مَهمَّة وحيرة في أمرك؛ فأنت شاب تتقد نشاطا ومن الخطر على شبابك أن تدس نفسك في أوهام لا أساس لها الصحة.

جلسَ بصعوبة فجلستُ تاركًا بيننا كنبة ومنضدة. ألقيت عليه نظرة مباشرة وقلت:

- حتى هذه الساعة أجدني مُجبرًا على تصديقك، ولكن حين يتأكد لي أنك حاولت خداعي فستجدُ عظمي أقسى من الفولاذ.

رمقني بنظرة لم يخفَ ما فيها من إعجاب ثم مد يده إلي.

- اتفقنا.... ضع يدك هنا إذن.

ترددت فاستحثني بنبرةٍ متحدية.

- عاهدني أن نكون أصدقاء حتى تكتشف أني حاولت خداعك.

ظلت عيناه مزروعتيّ بالتحدي فلم أجد مناصا من وضع يدي في يده، فقال وهو ينهض:

- وحتى ذلك الحين أرى ألا معنى لرفضك العمل معي.

ثم استدرك بلهجة لا تنقصها السخرية.

- إن شئت ففي الشركة التي تقول أن عمك له فيها النصف.

رفضتُ عرضه بإباء فرفع حاجبيه استنكارا؛ ولكن حين تحدث حَرِصَ على إظهار ابتسامة خفيفة ساخرة سكنت شفتيه المدعوكتين بالاصفرار.

- ما دمت على مثل هذا اليقين فالواجب يُحتّم عليك أن تكون قريبا مني. أفلا يكون من المحتمل أن أسرقك أو أزيّف الأوراق التي تثبت هذه الشراكة المزعومة.

اجتاحني لثقته الزائدة غيظ عظيم كتمته بصعوبة وقد بت أشعر بأني في حالة تدعو للرثاء. لا تنقصني الشكوك في دعاوي عمي كما أني لا أملك حتى الآن دليلا واحدا على أن

المحمودي يكذب. الأدهى من ذلك يقيني المستتر بأن تلكؤي في اتخاذ الخطوات العملية لاكتشاف الحقائق؛ ليس باعثه إلا شكوكي الدفينة في مزاعم عمي، وأن التأجيل يمنحني قدرا أكبر من الوقت أظل فيه أسيرَ أملٍ فج.

تنبّهت على المحمودي وهو يهز ذراعي ناصحا.

- اقبلْ بما عرضته عليك بالأمس وما أعرضه عليك الآن. رافقني إلى الشركة وستجد في انتظارك عملا مريحا للغاية؛ لايكلفك أكثر من أحاديث قصيرة مع العملاء.

لبثت صامتا مشتت الذهن فاستطرد بما يشبه التأنيب.

- إنني بحاجة إليك ربما أكثر مما أنت بحاجة إلي.... هل كان من الضرورة أن تدفعني إلى مثل هذا الاعتـراف؟

ثم عاد يكوّر يده بتلك الحركة التي أكرهها ليوحي لي بأن شكلي لا يقدر بثمن، وأنه ما يدفعه إلى حافة التذلل.

- العملاء يخدِّرُهم الوجه الصبوح والملاحة، ستكون الحلوى التي يتساقط هؤلاء عليها كالذباب.

ولما طعنته بنظرة ازدراء هزَّ رأسه بأسف.

- يبدو وأنك لا تقدّر مواهبك حق قدرها.

ثم انحنى نحوي هامسًا.

- ستكون مرتاحًا للغاية. لن تندم على العمل معي. سنسافر كثيرا إلى أوروبا.... وننبسط هناك آخر انبساط.

نظرت إليه مليّا وقد كشف عن نفس وضيعة تثير الإشفاق. قلت ساخرا:

- هل تصدق أننا كنا الليلة الماضية معا في جلسة سمر نشرب ونضحك ونرقص؟

تساءل باهتمام وقد أشرقَ وجهه بمقدار ما سمحت به صفرته.

- أين ومتى كان ذلك؟

- في الحلم.

ضحك بانبساط وشرع يضربني على كتفي كلما انتهت موجة من الضحك وبدأت أخرى، وحين هدأ ظلت يدُه على كتفي كأنما تركها سهوا؛ فتركتُها كيلا تكون إزاحتها نوعا من الاعتراف بخواطر ربما هو نفسه انساق إليها.

- حلمُك هذا يشير إلى أنك لست حاقدا علي.

ثم أحدَثَ صوتا مكتوما وإحدى كفيه تلاقي الأخرى بتصفيقة وشت باهتدائه إلى حل اعتقدَ أنه يرضيني.

ـ الليلة نسهر ونشرب حتى الصبح.

ثم لكزني ضاحكا حتى بانت أضراسه الملبسة بالذهب.

ـ لن تندم إذا ما اشتغلت معي. إن سافرنا أو بقينا هنا عندي مفاجآت سارة.... حورُ عين وقاصراتُ الطرف كالأعناب.

ثم مال بجذعه غامزا.

ـ وإن شئت فولدان مخلدون.

رفعت حاجبي متسائلا بلهجة أقنعته بأني كنتُ على جمرٍ حارٍ بانتظار هذا العرض.

ـ أحقا؟

ضمّ يدَه إلى نحره السمين قائلا بنشوة كمن يمتص الكلمات.

ـ ستشعر في كل لحظة بأنك ولدت من جديد.

دققت فيه النظر لأرى خلف ملامحه المجامدة طفلا معاقا. تركته واقفا وجلست واضعا ساقا على ساق؛ شاعرا لأول مرة بوجودي منذ اقتحم البيت، ولم أدرِ تمامًا ماذا جرى على لساني من كلام وعبارات مباشرة حتى جعلتهُ يصرخُ متوعدا؛ وقد أربدَ وجهُه حتى غدا بلون ممسحة للبلاط.

- إذن فأنتَ ترفض عروضي كلها، ليس هذا وحسب بل وتسخر منها ومني.

أومأت برأسي أنْ نعم فصرخ محاولا عبثًا أن يقنعني بأنه ما زال يمتلك تلك السطوة وتلك الهيبة التي دخل بها.

- إذن فاعلم أن التأشيرة وعقد العمل في يدي.... مجرد أن ألغيهما ستجد نفسك على أقرب طائرة مغادرة.

شعرتُ بأنَّ أيَّ صرصارٍ سيبدو الآن أكبر مني. شعر هو بذلك فقال بصوت يقطر وعيدًا.

- على أي حال سأكون متسامحا للمرة الأخيرة معك. سأترك لك مهلة للتفكير علك بعدها تجفف صدرك مما يعشعش فيه من غرور وأحقاد ووهم.

واندفع قاصدا الباب. وقف هنيهةً أمام صورة عمي المعكوسة في المرآة هناك. سمعته يهمهم بضحة ساخرة قبل أن يصفق الباب من بعده.

غرقتُ في ظلمةٍ داكنة وصداع فظيع يدقّ رأسي. قمت إلى الحمام أسكب الماء على موضع الألم بيد أن حرارة الماء المنهمل ضاعفت من الصداع ومن إحساسي بالغثيان. عدت إلى الصالة أدور حول نفسي بلا هدف ثم حملت حافظة

الأوراق ومفاتيح السيارة وغادرت البيت؛ من غير أن يكون في ذهني جهة محددة أذهب إليها. فكرتُ بالذهاب إلى نيران متجاهلا الوعد الذي قطعته لها؛ ولكن حين فتحت السيارة وتذكرت أني أسوق برخصة غير سارية المفعول بزغ في خاطري فلحي مشتاق، فأشرَقَ الارتياح على نفسي المشتتة. تجاوزت تحذير خالد زهران إياي من مغبة الاقتراب من هذا الرجل فقلت لا بأس من أن أجرب.

كان عداد الوقود قد بدأ يعلن عن قرب نفاده. عرجت على أول محطة صادفتني. ملأت الخزان وإذ أخرجت ما لدي من أوراق مالية قدَّرتُ أنها لن تكفيني أسبوعا آخر، بينما وجدتني مضطرًّا للبقاء حتى تأتي حسنة، فكيف لو لم أقبل بما عرضه على الأستاذ بكري من نقود؟ وكيف لو لم أنزل عند إلحاح أمي فآخذ منها ما ادخرته لطاقم الأسنان؟

غادرت المحطة بإحساسٍ أن هناك مشكلة أخرى تضغطني خلا تهديد المحمودي إياي بالطرد. ضغطت البنزين وقد بدا لي فلحي مشتاق منارة وأنا الموشك على الغرق في قارب يتقاذفه إعصار، سيما وأنا أتذكر جملته التي تقضي بأنه من أهل الحل والربط في هذه الأرض.

توقّفت السيارةَ أمام فيلا فخمة تتقدمها حديقة كبيرة نُسّقَت فيها أشجارُ الورد بعناية فائقة دلت على ذوق رفيع. ضغطت زر

الجرس، نَبَحني على الفور كلب ربما كان يربض في إحدى الزوايا قبل أن يهاجمني بشراسةِ ذئبٍ مفترس عبر القضبان الحديدية السوداء. تراجعت إلى الخلف إلى أن كفَّ عن ذلك فجأة استجابةً لصوتٍ غليظ يزجره بميوعة، وصوَصَ لها الكلب واندفع بعدها ذيله حتى أقعى بين ساقي فلحي مشتاق المنفرجتين على الشرفة المرتفعة نوعا. كان بملابسه الكاملة وقد دلّت وقفتُه الشامخة ووضعُ الغليون في يده أنه يحس أكثر من غيره بمكانته. لوّحت له بيدي طارحا السلام فلم يبدُ عليه أنه عرفني ودلّت حركة رأسه يمينًا وشمالا أنه لم يتعرف علي حقًّا. رأيتُ طفلا يخرج. عرفتُ فيه ذاك الذي أنقذته من تحت السيارة الغارقة في الرمل. اخذ يتفحصني عن بعد ثم هتفَ بفرح:

- إنه الشاب الذي رفع السيارة كأنها عصفور.

وانطلق نحوي. فتح البوابة وقفز بين ذراعي المفتوحتين وطفق يقبّلني... جاء فلحي مشتاق يقرع بلاط الممر بعظمة لا يترجمها جسده الضخم المترهل. بسط كفه وقال وهو يدقق فيَّ النظر بعينين كادت أن تطمسَها أجفانُه المثقلة بآثار السكر أو النوم أو القلق.

- أرجو المعذرة فلم أتبين ملامحك.... لذا لم أعرفك.

ضغطَ يدي بحرارة حقًّا غير أني أحسست أنه كلما أطال إلي النظر تسرَّبت من يده وغاصت في وجهه المفلطح آثارُ سرور مباغت؛ ربما ندم عليه لسبب أرجعته إلى كونه مزمعا على الخروج. قلت:

- يبدو أنني جئتُ في وقت غير ملائم؟

نفى ذلك بعد لحظة صمت ثم أكّد أنه كان خارجا فعلا قبل أن يقول بحماسةٍ مفتعلة:

- ولكن لا بأس من أن تشربَ معي القهوة ما دامت هذه أول مرة تزورني.

وتبيَّنتُ أن حماسته النوعية لاستقبالي كان باعثها الأقوى تعلق الطفل بي، وإصراره على أن أدخل، فدخلت على يقين بأن لن أستطيع مكاشفته بما ساقني إليه. ما إن عبرت الباب الرئيس حتى تركني الطفل وهرع إلى الداخل ينادي «ماما.... ماما». تجمَّعَ على وجه فلحي مشتاق قدرٌ آخر من الكدر؛ داراه بأن أعطاني ظهره يسبقني إلى غرفة فسيحة صُفَّت في جنباتها مقاعدُ وثيرة من جلد أسود لامع؛ كأنما خرجت لتوها من المصنع. أشار بيده الممسكة بالغليون أن أجلس فغاصت قدماي في سجاد وثير لدى حركتي المضطربة؛ وإلحاحي عليه بأن يجلس أولا. جلس مهمهما بابتسامة تركت خطين تحت

جفنيه المتهدلين يفترشهما لون أزرق داكن؛ كأنما تلقّى قبل لحظات لكمة أسفل كل عين.

- إذن لقد جئتَ أخيرا؟!

دلت لهجته وابتسامته وحاله كلها أن آخر ما يعنيه أن يكون مسرورًا برؤيتي؛ إذ طفق ينظر إلى ساعته. هممت بأن أخلصه من هذا العناء بأن أنهض مستئذنًا لولا يقيني بأن هذا سيفضح محاولاته في مداراة انزعاج يوهمني بأنه غير موجود. دخل الطفل يسحب خلفه امرأةً دُهشت لأول وهلةٍ كيف أفلتت من ولع المخرجين بتقديم الوجوه الجديدة للسينما والمسرح والتلفاز. لعل دهشتي هذه ما دفعتني إلى إلقاء نظرة جانبية سريعة على فلحي مشتاق؛ لأراه مسكونا بالكدر وربما الغيظ حتى أخمصيه، وقد تضاعفت معاناته مما جعله مضحكا بعد أن وجد نفسه في وضع لا بد له فيه من رسم ابتسامة باهتة؛ وهو ينهض ليقدمني للمدام.

فعل ذلك باقتضاب فكانت هي أول من تأذى منه؛ فردت على ذلك بأن تركت يدَه معلقةً فوق الكنبة التي أشار أن تجلس عليها كي تكون بجانبه، ومضت لتجلس بجواري في الطرف الآخر حتى بتُّ في الوسط بينهما؛ فيما الطفل ينتقل بينها وبيني بالتناوب ويغرس أصابع يديه في ركبتي، ويتأرجح

مغتبطا، وكلما ناداه أبوه هز رأسه رافضا أن يتركني أو يترك أمه.

أحسست بالحرج فقال فلحي أخيرا مخفيا بصعوبة إحساسه بالخذلان من قبل الطفل:

ـ ألم يعترضك أحد من الشرطة بعدما اتصلت بي بشأن الرخصة؟

نفيتُ ذلك فاندفع قائلا وهو لا يفتأ يرمق زوجه بنظرة جانبية متعالية.

ـ إن حدث واعترضك أي مخلوق كان فقل بكلِّ إباء وشمم إنك من طرف الدكتور فلحي مشتاق.

وضحك وهو يغرس طرف الغليون بين أسنانه ثم كمن تذكَّر ما كان عليه قوله.

ـ عندها انظر جيدًا إلى أسنانه كيف تصطك وتقرقر.

هززت برأسي وهربت بنظراتي إلى الطفل المتأرجح على ركبتى محاذرا أن ألاطفه كما أشتهي. رفعتُ بصري إلى «روزا» فكانت تتعلل بالنظر عبر النافذة مسدلة الستارة مخفية إحساسها بالامتعاض. لعله لَحِظ ذلك منها فقال بلهجة خرجت فظّةً على العكس مما أراد.

- اعملى قهوة.

وحين نهضَت بعد تلكؤ قال وعيناه مثل عيني على كفلها الرجراج من تحت فستانها الوردي:

- اتركي البن يغلي جيدا.

ألقت عليه من كتفها المستقيم نظرةً لم أتبينها جيدا ثم غابت خلف الباب؛ فلحق بها الطفلُ يحجلُ على ساق واحدة، فشعرت لذهابه أنني بت وحيدا معزولا عن العالم الخارجي. نقَّبتُ في ذاكرتي عن أي شيء أقوله غير ما جئت من أجله فلم أجد. تنحنح هو قبل أن يقول معتذرا مُفسرا ما عساه نبت في رأسي من أفكار لاضطرار روزا بنفسها أن تعمل القهوة.

- حاولت مرارا أن آتي بباشكار أو أكثر ولكنها رفضت، وحين استطعت إقناعها في مرات معدودة كنت أعود في اليوم التالي وأجدها في المطبخ؛ وعلى خصرها المريلة. أسألُها أين الباشكار؟ فتقول: طردته.

ســـــألته ماذا يعني بالباشكار ليس حبًّا بالمعرفة بقدر هو كره لعودة الصمت المخيف.

ضحك لأول مرة مذ أتيت.

- ألا تعرف الباشكار حقا؟ الخادم الأجنبي من غير العرب يسمونه «باشكار» وهو يقوم بأعمال عدة ليس آخرها أعمال المطبخ.

عدت أسألُه وأنا على علمٍ بسخف السؤال.

- وإذا كانت الخادم أنثى فهل يسمونها باشكاره؟

صمت هنيهة يهرش ما تبقّى من شعر ثم أطلقَ ضحكة نمَت عن ضيق كان يحرص حتى هذه اللحظة على ألّا يُجلجل في ملامحه.

- الرجال فقط يطلقون عليهم اسم باشكار.

التفتَ بعدها إليَّ التفاتة مفاجئة كأنما اكتشف أن سؤالي لم يكن بريئا تماما، ثم قال موضّحا ما كان قد خطر في ذهني بالفعل.

- لقد أتيت لها بخادمات ولكنها طردتهن كلهن.

ولما شعر أنه تورط أكثر مما يجب في الحديث عن هذه الناحية التي تتولد منها أفكار شتى؛ طوّح بيده الممسكة بالغليون وقال باقتضاب.

- هذا ما حدث.

دخلت روزا بالقهوة فهتف مُتصنّعا الفرح أو أنه كان كذلك بالفعل ما دام يقدّر أنني سأشربها وأمضي.

- وها هي القهوة قد أتت.

وضَعتهَا على منضدةٍ تفصل بيننا وحملت فنجانها واقتعدت مكانها السابق؛ بعد أن داست على مقدمة حذائي بغير قصد. اعتذرت وإذ التفتُّ إليها كانت في عينيها نظرة أبلغ من الاعتذار؛ ترجمَتها بالقول إنها ممتنة لما فعلته من أجل ابنها على الشاطئ. رأيت من اللائق أن أنظر إليها بين الفينة والفينة من باب حسن الإصغاء، وبالقدر الذي كان يهمني أن تلحظ حمرةَ الحياء على وجهي لهذا الإطراء الحار، وكذا أن يلحظه فلحي مشتاق... كانت بي رغبة قوية لارتشاف صوتها المُزنّر بنبرة رخيمة هادئة؛ وإن كانت الكلمات أيضًا تخرج عنها تتمطى كأنما هي الأخرى كعينيّ صاحبتها قد أدركها النعاس.

استطعتُ أن ألمح جمالًا فرعونيا نادرا من غير الممكن أن يقابله المرء بسهولة؛ فإن قابله احتار في تحديد مناراته الكثر وفي أيهما الأكثر إشراقا. حيّرتني تلك النداوة في عينيها وتحت منابت رموشها الطويلة. نداوة توهم بأن روزا مهيئة للبكاء أو أنها انتهت لتوها منه. حددت سنها فقلت إنها لا بد تزوجت في السادسة عشرة ما دام ابنها في الرابعة الآن؛

وهذا يعني أن فلحي خطفـها بمريلة المدرسة غير عابيء على الأقل بفارق السن.

أسهَبَت في شكرها لي فلحظتُ زوجَها يتململ قبل أن ينتر جسده حاملا فنجان القهوة بيدٍ زيّنت إحدى أصابعها بخاتمٍ تلمعُ في وسطه ماسةٌ تخطف الأبصار. كان مضحكا للغاية بجسده الضخم إذ تصورته نادلا، وصار منظره يبعث على الإشفاق وهو ينحني نحوي مُصرّا على أن أشرب قبل أن تبرد القهوة. مددت يدي لآخذ الفنجان غير أنه لم يتركه من يده وهو لا يفتأ يتحدث عن الخطوات التي تمر بها القهوة منذ أن كانت على الشجر حتى دخلت الفنجان؛ كما تحدث عن أفضل الأوقات لاحتساء القهوة ونصحني بأن أجرب ذلك وأنا أدخن الغليون؛ لأرى الفارق بينه وبين تدخين اللفائف. استغرق ذلك وقتا طويلا فتكشَّف عن حيلة فجة لإحساسه بأني بت أنظر إليها أكثر مما يجب.

شعَرَت روزا بذلك ففتَلت جسَدها العبل ومضت إلى الباب كالزوبعة؛ وهناك صادفها الطفل يَهمُّ بالدخول فخطفته بقسوة من حيث أرادت الرفق به، فغاب وغابت ليطل وجه فلحي أمامي ينضح بعرق نبتَت حبَّاتُه فجأة على وجهه المفلطح؛ وخلته وأنا أضع الفنجان شاكرا وهو ممتلىء حتى النصف أنه قد أطلق تنهدة ارتياح؛ كشف عنهُ تماما وهو يودعني عند

البوابة بحرارة تدنت إلى درجة الصقيع يحذرني من إدراج هذه الإغارة الخاطفة في عداد الزيارات.

قبل أن أستدير ناحية السيارة سمعت وصوصةَ الكلب الذي لم يعد شرسا. التفت لأرى الطفل يتملص من قبضة والده الواقف في الممر يمنعه من الانطلاق نحوي؛ وهو لا يكف عن القول بضيق «سأقول لعمو مع السلامة» حاول أن يلوي ذراعه ولكن حين لاحظ أني لم أذهب بعد أخلى سبيله مُطلقًا ضحكةً متكلفة خرجت عنه كالعواء. قفز الطفل بين ذراعي المبسوطتين وهز يدي ممسكا بالإبهام.

ـ مع السلامة عمر.

قبَّلته على صفحة وجهه الدافئة التي استعارها بشكل دائم من روزا. تذكرت أني لم أعرف اسمه بعد، سألته باهتمام فقال مفاخرا «دالي». قبلته مرة أخرى مداعبا أنفه.

- الله.... اسم جميل.

داعب أنفي قائلا.

ـ وأنت عمو جميل.

فركت أنفه ضاحكا.

- لا. أنا عمو هادي.

أخذ يهز سبابته قائلا بصوت مُنغّم كالنشيد.

- أنت هادي وجميل.

همهمت بضحكة ونظرت بطرف عيني إلى فلحي مشتاق فألفيته قد اتخذ وضعا جانبيا؛ من لحظة تَرَكَه الطفل مرغما كيلا يضطر إلى معاينة تعلقه بي؛ فيكتسبُ مجيئي إلى البيت عللا أخرى غير شرعية. أحس دالي ببرودة أطرافي فانزلق أرضًا وظل يلّوح لي بيده حتى ارتطم بساق والده؛ فسقطَت ذراعي المرفوعه إلى جانبي، ولكن قبل أن أستدير تماما لمحتُ ستارةَ غرفة الجلوس تلتئمُ بسرعة خاطفة بعد انفراج صغير. انطلقتُ على مهل محاذيا الرصيف تسوطُنِي الآمال الضائعة في أن يمد لي فلحي يدا أو خيط فكرة معقولة تعينني على المحمودي؛ وردَّ الطلقة التي لوّح بها.... تسفيري على هذه الصورة ستكون ضربة ماحقة. سيما وأنا من قال واثقًا للأستاذ بكري بعد أن ألقى عنه قناع الحياء:

- إنني أسافر باختــاري.

همهم بضحكة حالة سـاخرة ثم قال:

- حين تركتَ مـا أنت فيه وقبلت السفر لم تعد تملك الخيار.

صرختُ فيه.

- وما هي خياراتك أنت؟ كلام تبذره باللسان وعلى الورق؟ ماذا فعلتَ وماذا فعل أقرانك من الكتاب والصحفيين غير التنظير دونما أي فعل يذكر؟

كانت أول مرة أصرخ فيه، ولدهشتي لم يغضب.... ربما لأنها أول مرة حقا، وربما لأنه شعر مثلى أن دافعي إلى الصراخ رفضي الدفين لما اجترَحت حين طاوعت أمي وعمي.

قرأت للأستاذ بكري مرة «القبول بأمر من غير اقتناع كتناول الطعام على شبع والماء على ارتواء، في الحالة الأولى يفقد المرء جزءا من شخصيته، وفي الثانية يفقد إحساسه الفطري بما ينفعه أو يضره، وفي كلتا الحالتين يكون سهل الانقياد إمَّا للناس وإمّا لغرائزه» وهو من خطَّ أيضًا حين لم أكترث لما قاله «والسقوط هو أول خطوة يخطوها المرء في طريق الخوف أو المهادنة أو في تعليل النفس بأنه إنما يناور لكسب الوقت، أو إرضاء الآخرين.... هي خطوة واحدة حقا ولكنها تكفي للسقوط».

تنبَّهت وأنا أقود على غير هدى والسياراتُ من خلفي تستحثُني على الإسراع أو الموت. قلت لن يخلّصني من تفسخ الروح هذا غير الذهاب إلى البحر. تخيلت الشاطئ كيف يكون في

مثل هذه الساعة من النهار والشمس تجري لها حفلة التتويج اليومية في كبد السماء. صممت أن أعرج على متجر كاظم فألفيته مغلقا فحدست أن نيران في زيارة لأخيها.

لمحت مطعما يتوقد طلاؤه الأبيض بفعل شآبيب الحر؛ فاستدرتُ وضغطتُ دواسةَ البنزين إلى أن وجدتني أمام المشفى. ألفيتُ خالد زهران واقفا في الممر مع شاب فارع الطول، عريض المنكبين، تنحسر أكمام قميصه عن ساعدين مفتولتين كأنما اتخد من المصارعة حرفة. هشَّ لي خالد زهران وبشَّ وقدَّمَني إلى الشاب الذي كان يماثله سنًّا وإن بدا أكثر منه تفاؤلا بالحياة.

- هادي الجنزاري.... من يافا أصلا.

ثم طبطب على صدر الشاب العريض.

- أخونا وحبيبنا جرجس عبراني.

بدا من ابتسامة جرجس ومن ضغطه يدي بحرارة أن خالد زهران قد حدثه عني، فأكملَ تقديم نفسه.

- محسوبك من بلدة «القليعة».

أرسلتُ نظرةً مواربة إلى خالد فضحك وضحكتُ وجرجس لتوارد خاطرٍ واحد حَولَ المتعاونيين مع الأعداء؛ وقد اتخذوا

أولئك من «القليعة» مقرًّا لهم. كان جرجس أكثرنا إغراقا بالضحك ثم كفَّ فجأة وأطلق آهة حبلى بالغضب؛ ثم بصق بقرف غير عابىء بالبلاط اللامع، وجعَلَت الكلماتُ تتدفق من فيه كأنها طلقات رصاص، ثم هدأ فجأةً وكأنما يعتبر الموضوع من التفاهة بحيث لا يستحق الانفعال.

التفت إلى خالد زهران يستوضحُه عن أمر ما ربما كان مدار الحديث بينهما قبل مجيئي؛ فأشار عليه خالد أن يتصرف بما يراه مناسبا، فصافحني جرجس بحرارة ومضى وهو يؤكد على أننا سنلتقي ونتحدث في مواضيع الساعة.... ألقى خالد يده على كتفي ومضى بي إلى مكتبه قائلا في كثير من الاحترام.

- جرجس هذا أكثر من أخ.

ثم أردف وهو يفتحُ لي الباب.

حين تتعرّف على جرجس أكثر ستكتشف فيه عربيّا أصيلًا على وعي تام بمكامنِ الخطر، ورياحِه التي تهبُّ علينا من حيث ندري ولا ندري.

أبديت إعجابي بجرجس وانعطفتُ سريعا إلى وضعي الحرج الذي لوّح لي به المحمودي. غرَق على الفور في صمت مشحون بالحرج كعادته حين يرى نفسه عاجزا عن تقديم أي

مساعدة في هذا الجانب. لم يَجد مخرجًا غير السؤال عن أحوالي المادية وإن كنت بحاجة إلى مبلغ يزوّدني به. نفيت ذلك وأنا اشعر بالذنب لأني أحشره دائما بين شِدقيّ الحرج، فودّعته ومضيت قاصدا البيت.

سررت وأنا أعبرُ البابَ لأن المحمودي منحني مهلة للتفكير. سررتُ أكثر لأنه لم يغضب مني _كما يُفترض_ بما فيه الكفاية؛ وإلّا كان هذا اليوم حاسما عليَّ فيه أن أحزم متاعي وأغادر. لعله ذهب وهو على يقين بأن شخصا في مثل حساسية وضعي سيأتيه زحفا على ركبتيه.

رحت أدور في جنباتِ المنزل بغير هدف. ندمت لأني لم أبتع صحف اليوم أقتل بها الوقت. عالجتُ زرَّ مسجِّلةٍ حُبلى بشرط كاسيت كانت إلى جانب سرير عمي بانتظار من يوقظها من النوم؛ فانطلقَت على الفور ضحكاتُ نشوى لرجل لم يعرف التعاسة في حياته قط؛ أعقبَها كلامٌ جاد بصوت يحاول صاحبه عبثا أن يكون رصينًا وهو يخطبُ لتهنئة العاملين في الشركة بمرور عشرين عاما على تأسيسها. تردد اسم الشيخ صالح المحمودي أكثر من مرة فتجلجل تصفيقٌ من فرد واحد ربما كان الخطيب نفسه؛ الذي بدا أنه يتدرب على الإلقاء وربما كانت زوجه حسنة.

أغلقت المسجلة بقرف وراودني الإحساس ذاته حين زرت عمي في بيت صهره. كان يلذُّ له ونحن مجتعون أن ينادي أنيسة أو حسنة لتأتيا بالأشرطة التي حملها معه في إجازته ليفرض على الموجودين الاستماع لجلساته مع إصدقائه؛ ولأحلامه في بناء بيت محترم يليق بمن تغرَّب. وحين أصرّت زوجه على أن تشتري البيت المجاور لبيت أخيها؛ وافقها على الفور بعد طقطقة خفيفة كأنها التقاء شفاه يكافئها بها على هذه الفكرة، أو تنبيهٍ منه على قبوله السريع.

ارتطَمت عيناي بصورته المعلقة فوق السرير فغادرتُ إلى الصالة مُشبعا بالغيظ من إصراره على أن يكون موجودا بالصورة والصوت. انحرفت إلى المطبخ لأغلي كوبًا من الشاي أشربه في صحة أحلامه التي لم ولن تتحقق.

هممت بعد فكرة عابرة أن اكسرَ وعدي للمرة الثانية بالذهاب إلى نيران في المتجر. خفت ألّا أجدها هناك وخشيت إن أنا قررت الذهاب بعدها إلى البيت أن أرسم صورة معكوسة عني. التقطت السماعة وأدرت الرقم الذي بت أحفظه. جاءني صوتها مُفعمًا بالسعادة كأنما كانت بانتظار هذه المكالمة. اعترفت لها بأني لم أطق صبرا فعرّجت على المتجر ولكني لم أجدها. لامتنى على أني لا احترم العهود والمواثيق، وحين شرعتُ أغترفُ مما في نفسي من ملل قاطعتني طالبةً مني انتظارها في استراحة شاطىء ذكرت لي اسمها. ألقيت نظرة

خاطفة على ساعتي فكانت تقترب من الخامسة. عرضتُ عليها أن آتي لاصطحابها فقالت إن سيارة أخيها تحت تصرفها. خفَّ صوتها كثيرا فأدركت أنها ندمت أن ذكرتني بعمي الذي قضى نحبه على مقدمة هذه السيارة. ضحكتُ لأظهَرَ لها مرة أخرى بمظهر من لا يدقق كثيرا في مثل هذه الأمور، فهتفت قبل أن تغلق الخط.

ـ سأكون هناك بعد عشرين دقيقة على الأكثر.

ظللت لوقت غير قصير أحدق إلى حيث كان ينثال صوتها المبحوح، ثم وضعت السماعة مسرورا لأني سأراها عما قليل. ألقيت نظرةً متفحصة على وجهي وشعري فلم أذكر أنني سررت لوسامتي المفرطة؛ ولهذا اللمعان في عيني كحالي الآن.

هبطتُ الدرجات قفزا إلى المرآب حيث السيارة. امتطيتُها محاذرا النظر إلى صورة عمي فتكدِّرُ روحي المطلقة إلى لقاء نيران.

تراءى لي الشاطئ يلمع رملُه تحت شمس بدأت تفقد هيبتها. انعطفتُ عند نهاية الشارع الرئيس إلى اليمين فطالعتني الاستراحة.... مبنى متواضع ربما كان يُستخدم قديما مأوى

لصائدي اللؤلؤ والسمك؛ لكنه لا يليق بهذا البحر ولا بمظاهر الثراء المنعوفة على كل شبر من هذه المدينة.

كانت نيران قد سبقتني إلى الجلوس تحت مظلة وردية خارج المبنى؛ تترنحُ أطرافُها بتثاقلٍ في يد نسمة لعلّها مثلي تشعر بالغربة. كان وجهها إلى البحر. وقفتُ هنيهة خلفَها من غير أن تشعر بي، أو لعلها تظاهرَت بذلك إلى أن نقرتُ على مسند المقعد الذي غادره ظهرُها لتنحني ووجهها بين راحتيها تحدق في البحر. التفَت باسمةً ثم تلفتت حولها قبل أن تنهض وتمد يدها مصافحة إياي. احتفظتُ بها أطول فترة ممكنة مُحدّقا في عينيها اللتين أضافت إلى سوادهما الطبيعي سوادًا آخر من كحل حديث العهد. بدا عليها كما لو أنها نسيت يدها في يدي قبل أن تسحبَها بسرعة أنبأَت أنها كانت قد نسيتها فعلا.

لاحظتُ وأنا أتّخذ مكاني قبالتها بروازا مقلوبا على المنضدة. مددت يدي إليه بيد أنها أشارت أنْ لا.... وحين ضممتُ يدي إلى نحري قالت ضاحكة مُظهرةً ثناياها المتكأكئة على بعضها بعضا.

- سترى كل شيء.... ولكن ليس الآن.

تلفتَتْ إلى الوراء في اللحظة التي جاء نادل بقلنسوة خضراء عالية أظهرت وجهه الأسمر كالقُمع. انحنى ضامًّا كلتا راحتيه

إلى صدره. أشارت إليَّ فخصَّنِي بانحناءة أخرى. قلبتُ يدي حيرةً دفَعَتها إلى الابتسام فتولّت بنفسها القول.

- اثنين تمر هندي.

ابتسمَ برضا فعلّقت بعد ذهابه.

- لا بد أنه هندي ففرح لنسبةِ التمر إليه.

ضحكَت بفتور تعجّبت منه.

- في الحقيقة لا أدري ولكن الهنود بأعداد كبيرة هنا شأنهم شأن جنسيات أخرى بلا حصر.

لم يبد عليها أنها تفاعلت مع نكتة تستحق الضحك، وإنما اغتراف مما يقبع في في نفسها من أحاسيس متباينة حول هذا الخليط العجيب من البشر؛ لذا لم تكن ضحكتها أكثر من استجابة لضحكة أطلقتُها ندمتُ عليها؛ وإن كان من حظي أن أرى ثناياها المدهشة رغم أن مسحة الحزن المخبوءة تحت ملامحها تأسر دائما قوادمَ طير السرور.

في اللحظة التي أثارني الفضول لأرى ما يخبئ البرواز انحنت نحوي قائلة بإصرار.

- قلت لك ليس الآن.

أدركت لحظتها كم أبدو مكشوفَ الخواطر والصدر، وإن عليَّ منذ الآن أن أطلق لعفويتي العنان فلا أتظاهر بما ليس بي. هذا إذا كانت هناك مرات أخرى للقاء، لذا اعترفت لها بأني لا أطيق الصبر وإن إصرارها يفقدني الصبر أكثر، ثم مددتُ يدي نحو البرواز فمدت يديها في اللحظة ذاتها، وحين كانت السابقة فقد حطّت يداي على يديها. رأيت ابتسامتها تفيضُ رويدا مُفسحةً الطريق أمام دهشة مَن أُخِذَت على حين غرة. ظللنا على هذا الوضع إلى أن جاء النادل بالعصير يقرع بخطواته الأرض؛ فدلت حركته هذه على إحساسه بأنه ضبطنا متلبسين من حيث أراد الإيهام بأنّه ينبهنا.

ظلّت نيران على إطراقتها بعد أن ذهب. وصلتني تنهدة مكتومةٌ ارتفع لها صدرها ثم انخفض؛ قبل أن تتجرأ بالنظر إليّ قائلة بلهجة تتهمني أنني المتسبب فيما حدث.

ـ اشرب.... اشرب.

وحين تناولتُ الكوبَ المُثلّج أردفت باسمة.

ـ في اللحظة التي تنتهي منه بإمكانك أن تشبعَ فضولك.

رفعت الكوب على الفور إلى شفتي فخلت من أول رشفة أن أسناني سقطت فيه. حدث لها مثل هذا فصوّبت إليّ نظرةً تعني «إنني اتحداك» فألصقت الكوب بشفتي وكرعته دفعة واحدة.

سمعتها وأنا أنفخُ في حلقي وأكفكف دموعي تضحك بانشراح حتى غادرَتها مسحةُ الحزن تماما؛ فقلت في سرّي إني أتيت أمرا فذًّا هذا اليوم، ولكن حين طالت معاناتي لمحتُ ندمًا في عينيها على ما سببته لي من ألم. مددتُ يدي إلى البرواز قائلا من حلق بدا وكأنه ألصِقَ بالغراء.

- أظنّ قد بات من حقي أن انظر؟!

أومَأت برموشها المشرعة أنْ نعم، وسبقتني إلى البرواز وضمته إلى صدرها بأناة تتطلعُ بطرف عينها إليه، ثم أظهرته فجأة فلم أتردد في الصياح كطفل.

- يا الله.... هذا أنا!

كنت أكثرَ منها اندهاشا لهذا الفرح الطفولي وهذا الصياح الفج. ظللت عازفا عن التقاط صور لي.... لم أجلس أمام آلة تصوير خلا مرة واحدة سبقت تقدّمي لفحص الشهادة الثانوية، ثم دأبتُ على استنساخ صورٍ مماثلة عنها كلما اضطرتني الظروف. آخر صورة أخذتها أمي لتصرَّها بجانب صورة أبي أعطيتها إيّاها على طريقة من يتخلص من حمل ثقيل هدّه، أمّا هديل فقد ألمَحت أكثر من مرة إلى رغبتها في أن أعطيها صورة وأكتب عليها إهداء مناسبا.

ظللتُ أقول لها وأنا أستسخف الفكرة من أساسها «ليس لدي صور» وحين عرضَت علي بشكل صريح أن ألتقط معها صورة ونحن في وضع الوقوف وخلفنا البحر؛ تعللت بأني مشغول فلم تكرر المطلب صراحة مُتصيّدةً الفرصَ لكي تُطلعني على الصور التي التُقِطت لها في مناسبات عدة؛ علّني أنزل أخيرا عند رغبتها فتلتقط صورة مشتركة، أو لعلني أطلب منها صورة أو أكثر من تلك الصور، غير أني لم أفعل. أشــعر الآن بأني كنت قاسيا على هديل، بل في غاية القسوة.

انتشلَني صـوتٌ امتزجت بحتـه المعهودة بهمس ناعم وأنا ما زلت أحدّق في صورتي:

ـ هل عرفتَ الآن لماذا استمهلتك؟

أشرت إليها بإصبع مرتعشة وأنا أدقق النظر أكثر في الصورة المرسومة بعنايةٍ تجاوزَت الملامحَ المدروسة عن كثب إلى الأعماق تنثرُ ما فيها.

ـ هل أنتِ من رسمها؟

ارتشفت من كوبها رشفة صغيرة تركَت أثرًا على شفتها السفلي.

ـ ماذا ترى؟

أطريتُ براعتها لرسمي من الذاكرة رغم يقيني أن تفرّسها بي في المتجر كان لهذه الغاية، فأخبرتني بأنها تحترف الرسم منذ أكثر من عشر سنين، وأنها أقامت عدة معارض، وربما لاحظت في عيني وعلى ملامحي دهشة مغايرة لتلك التي أهاجتها براعتها؛ فقالت ضاغطة على مخارج الحروف:

ـ بعد شهرين اثنين أبلغ الخامسة والثلاثين.

تفرّست فيها مُقدرًا سنها من غير هذه الجدية أو مسحة الحزن المقيمة في مكان ما تحت البرونز، فقلت: لن أعطيها أكثر من اثنتين وعشرين.

قالت في شيء من المَرح وبقدر غير قليل من الاستهجان.

ـ النساء في العادة يتحرّجن أمام ذكر أعمارهن، تزيد الواحدة منهن سنة كل عشرة أعوام على سنها الحقيقي.

أقنعتني نبرتها الصادقة بأنها ليست من هذا النوع. خطر ببالي أن أسألها عن السر في كونها عزباء حتى الآن؛ بيد أنها قالت وهي تتشاغل بمسح زجاج اللوحة.

ـ لقد مات زوجي بعد الزفاف بثلاثة شهور.

وهربَت بعينيها إلى البحر فخلتُ أن صوتها يأتيني من قعر بئر عميقة.

- كان مهندسا وكانت تشغله آمال عريضة في الحياة، لم يحقق منها شيئا غير أنه تزوجني على حد قوله.

وتموَّجَ زورُها كاشفا عن مرارة دفينة تحرص على ألّا تطلقها من أسرِها.

- سقط من الطابق الثاني لإحدى المنشآت بعدما بالغ في تفحص ألواح الطوبار على الأطراف.... كان يحب ألّا يترك ثغرة في عمل شرعَ به.

هجمَ علينا الصمت إلّا من أصوات بعض الرواد الذين شرعوا بالتوافد جماعات على الشاطئ، يعرجُ بعضهم على الاستراحة، وبعضهم يمضي إلى البحر. لم أجد كلاما مناسبا وقد شتَّتَني هرجُ الوافدين أكثر. سحبَت عينيها أخيرا عن البحر أو المدى البعيد إلى وجهي؛ وعلى ثغرها ابتسامة مرسومة رسما وكأنما تلوم نفسها على تقديمها لي هذه الوجبة الأضافية من الأسى. وشى صوتها بهذا حين قالت معتذرة.

- لا أدري لماذا قلت ما قلت، ولكن بما أني فعلت هذا وانتهى الأمر أرجو أن تنساه.

مرة أخرى تحاصرني الحيرة في اختيار كلمات مناسبة؛ وإذ لم أجد عرَضتُ عليها أن نغادر الاستراحة. تبدَّت في عينيها علامة استفهام كبيرة خشيت معها أن تظن بأن حديثها الأخير عن سنها وترملها قد هزَّ صورتها عندي. ظلت ترشقني بتلك النظرة المحيرة الحائرة إلى أن نهضَت قائلة في شيء من الحنق.

- الآن تحديدا لست نادمة على ما قلت.

وحين هرعَ إلينا النادل هممتُ بدفع الحساب، ولكنها أشارت أن لا.... ولمّا ألححتُ صرخَت بحدة.

- دعنى أدفع أنا يا أخي.

أهالت النقود في يد النادل واندفعت خارجة فبتُّ على يقين من أني لم أختر اللحظة المناسبة لعرض المغادرة عليها. لحقتُ بها بعد أن أغدقتُ على النادل ابتسامةً ضاعت معالمُها بين طيّات الخجل. حاذيتها محاذرا الإشارة إلى نهايات ما جرى بيننا من حديث.

- رأيتُ ألّا بدّ من النهوض ما دمنا لم نعد وحدنا. قلتُ آن أوان التمشي على الشاطئ.

تطلَّعت إلي بعينين مسَّتهما نداوة مع مكابرة، ودققَت فيَّ النظر كأنما تبحث عن منابع الصدق ثم قالت ساخرة:

ـ لأننا لم نعد وحدنا؟

ثم رمت بيدها مشيرة إلى الجموع الغفيرة على الشاطئ.

ـ هناك أيضا لن نكون وحدنا.

وهجَمت على باب السيارة ويدها التي مدتها ببرود إليَّ ما زالت في يدي. تشبثتُ بها قائلا بمرح وإصرار لأوحي لها بأنني جاهل بما طرأ على تغيّر من حالها.

ـ لن أدعك تذهبين قبل أن نتمشى على الشاطئ.

التفتت إليَّ التفاتة مفاجئة وبان في عينيها أنها بدأت تغالط نفسها، فاستطردتُ مُستفيدا من هذه البادرة.

ـ هناك الكثير مما أرغب في سماعه منك.

ثم وأنا أخصُّ كفّها بضغطة خفيفة طرَحت ثمارًا فورية على محيّاها.

ـ ثم إنني لم أقل بعد شيئا عن نفسي؟

شبّ في عينيها لمعانُ الرغبة في البقاء، ولما كانت اللوحة ما زالت في يدي دارت ابتسامة رضا وهي تمد يدها الأخرى لتأخذها.

- هاتها.... كدت أنساها معك.

دلت لهجتها وحركةُ يدها أن آخر ما تفكر فيه أن تستردها مني حقًّا؛ وأنها ستمزّقها لو أني استجبتُ لها في الحال. أخفيت اللوحة خلف ظهري.

- إنها صورتي التي جئتُ خصصيا لأجلها.

أفرغَت ضحكةً غير طليقة ثم رفعت إصبعها محذرة.

- تذكر أنك تأخذها رغما عني.

تلاقت عيوننا في نظرة طويلة تكذِّبُ زعمي وزعمها، وإذ استدرت باتجاه البحر حذت حذوي، أو لعلنا تحركنا معا في اللحظة عينها. كانت أكثر حرصا مني على ألّا تترك بيننا فرجةً تنفذ منها نسمةٌ عابرة. أحسست من فرط حضورها الثري أنها تتحرك في داخلي كجزء أثير مني. لم أقصد أن أطوّق خصرها بذراعي ولكن وجدتني أفعل هذا بعفوية فلم تحتج هي ولم أُدهش أنا.

لم نتنبّه إلا ونحن على مسافة طويلة من الاستراحة التي بدت تغرق ككل شيء على الشاطئ في الأضواء. عدنا إلى حيث سـيارتها وسيارة عمي بعدما جرى الحديث برقائقهِ بيننا، وبعدما تركَت يدي أثرًا ملحوظا على فستانها حول الخصر من طول مكوثها هناك؛ ومن ضغطها العفوي للتعبير عن سعادة لم أعرف لها مثيلا من قبل.

وقفنا متقابلين يستند كل منا إلى سيارة رقَّ حديدُها وتشكّلَ مهرةً مسروجة بانتظار أن تركبها إلى غابة سحرية ليست موجودة في الصحراء. كان كل منا يتلقف الآخر كلما أحس أنه على وشك الوداع، ولكن عندما طال وقوفُنا وكثر الفضوليون من حولنا طلبت منها وأنا أودعها أن تكتب عنوان بيت عمي ورقم الهاتف، بيد أنها هزت كتفيها قائلة بدلال له نكهة الأمر.

- من يردني فليأتِ إلي.

وألقت بجسدها خلف المقود وأدارت المحرك على عجل كأنما تضعني أمام الخطوة التالية؛ فسارعتُ إلى تشكيل أصابعي على هيئة مسدس صوبته نحوها فضحكت. عندها كتبتُ بالسبابة هاتفَ المنزل على الزجاج الأمامي لسيارتها حيث كوَّنت ذراتُ الرمل طبقةً خفيفة من الغبار عليه. شعرت لضحكتها النشوى أنني ختمت لقاءنا غير الطارئ بالمسك.

كان لليل والوحدة وأنا أدخل البيت طعمٌ آخر يختلف عن الليالي الماضية؛ وصورتي التي ما توقعت يوما أن تكون بهـذا الحجم أو حتى أصغر بكثير؛ كانت ملتصقة بصدري كأنها جزء منه.

بسطتُها تحت الضـوء في الصالة أتملّى من دقة رسمها، وتناسق ألوانها، ومن قدرة نيران الفائقة علــى الغوص إلى أعماقي الدفينة بعدما أعطت شواطئي القريبة حقها من الظهور. ندمت على أني سببت لها في فترة ما من هذا النهار إزعاجا غير مقصود؛ ثم رحَّبت بـه إذ كان مقدمة معقولة للتقارب، والكشـف العفوي عن أصغر الأشياء، فلم يعد أيٌّ منا بُحيرةً مقفلة في وجه أسراب السمك.

تركتُ الصالة لأنام فلاحقني طيفُ نيران إلى السرير. لأول مرة يلحُّ علي طيفُ امرأة هذا الإلحاح المدمر؛ ولا أهرب منه مشبعًا بالقرف. أعترف بأنني أرضٌ بِكرٌ لم تحرثني امرأة قط على كثرة من رمتهم المصادفات البحتة في طريقي. كنَّ جميعا بلا استثناء يدرن في فلك المظهر الخلّاب ولـم تـك هديل استثناء لهذه القاعدة، فقد ظلت من لحظة سفري تعاملني على أنها الفتاة المولهة، ويرضيها عذابُ الحب من جانب واحد لهذا الفتى الجميل.

وحدها نيران من استطاعت اجتياز مظهري الخلاب، بل إن هذا المظهر كان الشوكةَ التي تُدمي يدَها كلما مدَّتها نحوي لتغترف جواهري الدفينة من أعماق لم تغص إليها امرأة قط. ظلت نيران ملتصقة بأهداب عيني إلى أن أدركني الوسن. لم أتركها تماما أو تتركني؛ فقد حلمت أنها ترشّني وأرشها بماء البحر.

دب فيَّ النشاط بعد تركي السرير. حلقتُ ذقني واغتسلت قبل أن أغادر البيت. رغبت في سماع صوت نيران. طلبت رقمها في المتجر. ظل الجرس يئزُّ هناك. بعد أن أغلقت الخط وطلبت رقم المنزل تلقيت أزيزا مماثلا؛ فوضعت السماعة مثقلاً بالغم، وغادرت قاصدا المشفى لأرى خالد زهران.

لم أدر على وجه التحديد ما الذي ساقني إليه.... بدا هذا حين ألقيت السلام. استدلَّ على أن عمي هو السبب في تشتتي فسألني عما حدث بشأن وضعه في الشركة! وحين أخبرته ألا جديد أفصحَ سريعا عما يتهددني بطريقةٍ كان أسرع مني إلى الإحساس بمدى وقعها علي.... حاول دفنها بالانقضاض على فلحي مشتاق فجأة ومن غير سابق إنذار.

قال إنه تاجر بكل ما تعنيه الكلمة، وليس طبيبا إلا حين يكون الطب تجارةً رابحة أيضا، وإن عيادته تشهد الكثيرَ من حالات الإجهاض، وأكّد على أنه رجل سيء السمعة بالنسبة لكل من

يحترم نفسه؛ أما في نظر المستفيدين من أخلاقة المتردية فهو قمة في الأخلاق الحميدة. أخبرني بأن فلحي سبق له أن تزوَّجَ مرة لم ينجب خلالها، وتزوج بعدها من فتاة صغيرة تصغُره بكثير إضافة إلى جمالها الصارخ.

أطلعته بعدد تردد على أني رأيتها فتجَمَدت في عينيه نظرة لوم تجاوزها سريعا وأكمل كمن حدسَ برغبتي بمعرفةِ المزيد عنها.

- تتضارب الآراء حولها فمِن قائل أنها تماثله أخلاقا، وأنها سعيدة معه، وهناك من يقول إنها لا تطيق رؤيته بعدما تكشَّف لها أنه ديوث.

ورجَّحَ هو الرأي الثاني إذ استطرَد في شيء من المرارة.

- ما أعرفه أنا يدل دلالة واضحة على أنه لا يغار عليها إلا من العيون التي لا يريد لها أن ترى جمالها وفتنتها.

ولمّا ضجّت الدهشة في عيني أكّد ضاغطا على مخارج الحروف.

- أقصد ذلك بالحرف.... فهناك من يرى ضرورة أن يتباهى أمامهم بما في قبضته من كنوز الشباب والفتنة والجمال النادر.

خَلَت لهجته من نكهةِ التشفي فلم أجد ما يمنع من تصديقه. مع هذا قلتُ مجاريا:

- لها ابن في غاية الروعة.

تناول آخر رشفة من كوبه وجعل يديره بين كفيه.

- يقال والله أعلم إنه ثمرة إحدى السهرات التي صحب فيها فلحى زوجته؛ لتباهي بها أمام الداعين، إن لم يكن رتَّبَ سهرةً في بيته لهذا الغرض.

ولما ضجت عيناي بالشك قال مؤكدا بحماسة أنكرتها عليه.

- فلحي مشتاق لا ينجب. هذه حقيقة يعرفها القليلون حقا ولكني واحد منهم.... المشفى الذي كان يذهب إليه للعلاج مديره صديقي وهو بنفسه أشرف على علاج فلحي هذا، ولكن دون جدوى.... وأظنه توصَّل إلى النتيجة عينها في كل مرة يسافر إلى عواصم العالم للتجارة أولا ثم للعلاج.

قال جملته الأخيرة وعاد للتأكيد.

- أجل تاجر.... لماذا تستغرب؟ إنه يتاجر في كل شيء. في أشياء لا تخطر لك ببال. هذا ما يعرفه القاصي والداني، ولكن للأسف مَن يعرفون هم من يرون فيه رجلا فذّا لا غنى لهم عنه.

انهال علي الضيق لهذا الحديث ولم يكن خالد أقل ضيقا مني؛ فاستأذنت متعللا بأن زوج عمي ربما تصل في أي لحظة؛ فلم يتركني أذهب إلا بعد أن استحلبَ مني وعدا بأن نتناول العشاء معا الليلة. قبلت بغير حماسة. شعر بذلك فأكّد على أنه لن يحدثني بعد ذلك عن فلحي مشتاق. أدركت أنه لا يريدُ من هذا الحديث غير مصلحتي؛ ولمتُ نفسي على أنها انحرفت لحظة إلى الظن بأن هذا الحديث يسبب له متعة فائقة؛ أو أنه ذريعة ليغطي به عجزه عن مدّ يد المساعدة لي.

كنت قد بلغت الدوّار القريب من متجر كاظم، أحسست بأنفاس نيران تهب رخيَّة منعشة رغم الزحام الذي أحدثته سيارة معطلة. سمعت اسمي يلعلعُ عن يميني. التفت لأرى فلحي مشتاق داخل سيارته يلوّح لي بيده وعلى ثغره ابتسامة عريضة أنكرتها منه لأول وهلة. تذكّرت أنه بادرني بإعلان وجوده فقلت إنها ليست ابتسامة عارضة. لوّحت له بيدي وأظنه لم يسمع تحيتي؛ إذ كان نهر السيارات قد استجاب على الفور لصافرة شرطي ينظّم المرور. سررت لأني بهذا قد أفلتّ من فلحي بيد أنه حاذاني ومدَّ يده من النافذة المفتوحة؛ مُشيرا علي أن أتبعه بعد ما تعذر عليَّ سماع ما يقول وسط هدير سياراتٍ تتزاحم للخروج من هذه الأزمة الخانقة.

استجبتُ له ذاهلا من هذا التغير المفاجئ وقد كان حريًّا به أن يتجاهلني كما كان حريًّا بي ألا أفرح بعد ما حدث منه. وجدته

كلما أوشك على الانعطاف إلى شارع فرعي تمهَّلَ كي ألحق به؛ قبل أن يشير بيده إشارات متكررة كي أواصل السير. تبعته بحماسة أكثر ليقيني بأن هذه المبادرة قد سهلت الكثير من ترددي بشأن إخباره عما كان من المحمودي. رأيته يتوقف أمام بناية من ثلاثة طوابق ارتدت واجهتها الأمامية رخامًا ورديَّ اللون؛ علته يافطة طويلة عريضة «عيادة الدكتور فلحي مشتاق. طبيب عام». سبقني إلى البوابة الحديدية واذ ترجّلت من السيارة ترك مكانه وهرول إلي باسطا كلتا ذراعيه. أخذني بينهما فأحسست عن قرب بترهل جسده الضخم. دفعني إلى الأمام يتفرس بي.

- أين أنت يا رجل؟! إنني في غاية الشوق إليك.

- وأنا أيضا.

ولعله شعر بأن صوتي ولهجتي ينقصهما الكثير من الحرارة بعكس ما أريد؛ فقال كالمعتذر وهو يسبقني إلى المدخل الرئيس ومن ثم يتنحّى جانبا لأدخل قبله.

- حين جئتني في البيت كنت على وشك الخروج لأمر هام جدا لا يحتمل التأجيل دقيقة واحدة.

ثم همهم بضحكة متكلفة وهو يدفعني أمامه على الدرج.

- مع هذا فضّلت البقاء معك إلى أن أعلنت بنفسك أنك مضطر للمغادرة.

كان يتحدث بسرعة كمن يزعجه أن يجد نفسه مجبرا على الخوض في مثل هذا الحديث؛ وفي الوقت نفسه لا يريد أن يتنهي منه قبل أن يسمع مني ما يؤكد أن الذنب ذنبي.

أكدت له أنني كنت على عجلة من أمري وأنا غير متخلص من الحيرة أنْ لماذا يضطر رجل مثله للاعتذار؟ وأن لماذا يكابد مثل هذا الحرج؟

سبقني إلى ردهة تفضي إلى مكتب فخم يجلس ببابه رجل عجوز اشتعل رأسه بالشيب. نهض بنشاط إذ رأى فلحي واستجاب له على الفور بانحناءة مدروسة من رأسه؛ ليتلقَّى بضعَ كلمات نفثها في أذنه همسا طارَ إثرها إلى هاتف قريب. دس ذراعه في ذراعي وقادني إلى مكتبه الفخم. جلس خلف طاولة مشغولة من خشب فاخر بعد أن اطمأن على أني جلست على مقعد اختاره لي. قال مكملا حديثه كأنما لم ينقطع أثناء هرشهِ لما تبقى على رأسه من شعر.

- ابني دالى يقول إنك لم تكن على ما يرام حين ذهبت.

أطلق ضحكة مبتسرة من أنفه مُكذِّبًا بنفسه هذا الوهم.

- أنت تعرف الأطفال.... أحيانا تخطر لهم أشياء لا أساس لها من الصحة. مع هذا يسوؤني أن أكون فظًّا.... إنني أحبه ولا أملك إلا أن أصدّقه.... أحبه بجنون. لن تجد أبا يحب ابنه كما أحب ابني.

أخفيت بصعوبة مشاعر التكذيب حول أن يكون دالي هو صاحب هذه الملاحظات كلها؛ وأكدت له أني لاحظت هذا الحب حين كانت السيارة على وشك أن تهرس الطفل؛ لو تراخى الرمل قيراطا آخر. لم أدر إن كان ذكر الحادثة مناسبةً معقولة لتذكيره بفضائلي إلا بعد أن انطلق يشكرني على ما فعلت من أجل طفله الوحيد؛ في وقت خذله الناس الذين شهدوا الحادثة. وجدتها فرصة كي أذكر له سبب انقباضي الذي لاحظه دالي حين زرتهم في البيت؛ وإذ انتهيت أطلق فلحي ضحكة استهانة مما أحسبه مشكلةً مستعصية، وأخذ يضرب يدا بيد وهو يرفع ساقه بما يواكب ضحكته الساخرة.

- صالح المحمودي؟! تقول صالح المحمودي؟!

حدست من طريقة استقباله الخبر أن الحل لن يكلفه أكثر من أن يرفع سماعة الهاتف ليُتخِمَ صالح المحمودي بالسباب. هدأ فجأة قائلا بجدية:

- اعتبر وكأن شيئا لم يكن.

ثم عاد يضحك ضحكته الساخرة.

- صالح المحمودي لا يستحق حتى أن أرفع سماعة الهاتف. شيء كهذا لو فعله فلحي مشتاق لن يكون أمرا عاديا. سيتحدث عنه المحمودي شهرا كاملا. سيقول مفاخرا إني بادرته بالاتصال.

تجهّم وجهه فجأة ثم أشار علي أن اضغط جرسا قريبا مني، وحين أخذت أفتش عنه طلب ألّا أتعب نفسي، ثم صفق بيديه مرة واحدة. فتح الباب على أثرها واندفع العجوز برشاقة لا تتناسبُ وسنّه؛ وبعد أن أومأ بعينيه ردًّا على استفسار فلحي أمرَه أن يأتيه بورقة وقلم. حين جاءه بهما وهمَّ أن يكتب بنفسه نحّى الورقة جانبًا وأعطى الرجل القلمَ قائلًا:

- اكتب.... يا صالح يا محمودي يا محترم. ضَع ثلاث علامات تعجب بعد المحترم. لا شأن لك بالأستاذ هادي.

التفت إلي وسألني عن اسمي الثاني فقلت على الفور:

- محمود.... محمود الجنزاري.

هزَّ رأسه وهمَّ أن يملي على الرجل تكملة الاسم، ولكنه عدل عن ذلك ليزيد من يقيني بأن المحمودي لا يستحق هذه

الإطالة. خطف الورقة ووقع في ذيلها بسرعة ثم دفعها إلى الرجل قائلا:

- خميس.... اتصل بصالح ليرسل من يأخذ كتابي هذا.

وتطلَّع إلي باسمًا ليرى على وجهي مدى ما أحدثته المفارقة في قوله إنَّ ما يرسُله يُسمَّى كتابًا. خرجَ خميس على الفور معبَّأ هو الآخر بفيض من الزهو لهذه السطوة. نظر إليّ بعدها وقد اصطبغت عيناه باللوم زيادةً على ما تحت الأجفان من ازرقاق.

- إنني عاتب عليك أشد العتب. كيف تتأخر عن أخباري. المحمودي هذا رجل أخرق كان يمكن أن يفعلها لو ظللت تعلل نفسك بالآمال.

ثم مصمص بشفتيه بعد أن حدس بجنسيتي وكان صادقًا.

- أعرف شخصًا يُدعى خالد زهران. إنه من بلدك أيضًا وله مثل صفاتك هذه. الانطواء والاعتداد بالنفس وتفضيل الاحتراق الداخلي على اللجوء إلى الآخرين.

ولا أدري ما الذي بدر مني حين سأل بقصد التأكد من فراسته!

- أتعرفه؟

أجبته بعد تردد فقال بلهجةٍ محايدة:

- كنتُ رئيسَه في المشفى قبل أن أكتشفَ سخفَ عملي الرسمي، وسخف من يراهنون عليه.

ثم أردف بإعجاب ملحوظ.

- رغم ملاحظاتي الكثيرة على أسلوبه الجدي المتزمّت لا بد لي من الاعتراف بأنه طبيب ممتاز وذو كفاءة عالية.

ثم صمت قبل أن يقول بلهجته المحايدة.

- من مآخذي عليه أنه لا يعرف المجاملة ويعتقد أنه دائما على صواب. يبدو أنه لم يتوصل بعد إلى حقيقة أن الإنسان الصلبَ أكثر من اللازم؛ سيأتي عليه لحظة ويُكسر فيها.

بدا لي أنه غير معني أساسًا بالحديث عن خالد زهران إلا من حيث أني أعرفه، وخلته سيترك سيرته ولكنه قال بصوت شرخَه التأثر.

- أعرف أنه يكرهني.... لم أسمع بهذا من الناس فقد قال لي ذلك وجهًا لوجه. لهذا أكبرته ولم أحاول قط أن أؤذيه.

ثم مال نحوي هامسًا.

- إنني أعرف عن خالد زهران هذه ما لا يعرفه هنا إلا خالد زهران نفسه. لو بحت هذا النهار بما أعرف فلن تطلع عليه شمس النهار التالي.

صمتَ متفرّسًا بي ليرى وقع كلماته علي ولمَّا وجدني هادئ الملامح بالغَ في الانحناء والهمس.

- قد تجد نفسك متورطًا في قضايا لا قبل لك بها وأنت على ما يبدو جئتَ لترتزق كهذه الألوف المؤلفة.... لذا ابتعد عن خالد هذا.

تلوَّنت لهجته بما يعني أنه لا يبتغي من وراء هذا التحذير إلا مصلحتي، أمَّا إيذاء خالد فهذا آخر ما يفكر فيه. نفيتُ أن تكون علاقتي بخالد قد توطَّدت لهذه الدرجة في الوقت الذي بت أشعر أن خالد زهران غدا قريبا مني لدرجة الالتحام بعد هذا التحذير.

تركَ سيرة خالد زهران فجأة كما عرضتُ وطفقَ يرحب بي مؤكدًا على أن مخاوفي باتت في حكم المنتهية؛ خاصة بعدما أخبرته بها. لم أشك للحظة بأنه قادر على اجتراح المعجزات، وهذا ما أطلقَ لساني في موضوعات شتى أفرخت إعجابًا آخر في نفسه؛ فطفق مرةً أخرى يعلن سروره بالمصادفة التي جمعتنا. كشفَ لي الحديث عن نواحي الطيبة والعفوية

المغروسة في نفس الرجل فأحسستُ بالانعطاف إليه، ولم أجد مبررًا واحدًا يدفع خالد زهران إلى النيل منه إلّا أنهما أبناء مهنة واحدة؛ يضاف إليه أن فلحي هذا كان رئيسه ذات يوم.

ما كدتُ أفرغُ من القهوة التي أتى بها خميس بعدما أعلن أنه قام بالمهمة؛ وأن هناك من هو في الطريق لاستلام الكتاب؛ حتى صرتُ على يقين من أن فلحي سيتقصى عما إذا كان عمي شريكًا للمحمودي، وأنه سيأتيني بالخبر اليقين وأنا أضع ساقًا على ساق.

بعد فيض من الترحاب والعفوية شعرتُ بأن فلحي بدأ يداهمه القلق والتوتر. عبَّر عنه بالصمت والتشتت في الربط بين جمله والرد عليّ، وكذلك في النظر إلى ساعته، وفي عبثه بخاتمه ذي الماسة الخاطفة للأبصار. تغيَّر كل هذا وغدا حزمةً من المشاعر الوثَّابة حين قرع الباب ودخل خميس منحنيًا على أذنه؛ يهمسُ له بشيء لم أسمعه غير أنه آثر أن أسمع إذا صاح بفرح.

- دعها تدخل.... ما غريب إلا الشيطان.

وهوى بكفه على ركبتي كأنما يذكرني بأن ما رأيته قبل قليل من حيرته واضطرابه ما هو إلا عارض سريع الزوال. دخلت امرأة مديدة القامة متلفعة بعباءة سوداء لا يبين منها غير

عينين شديدتي الحور؛ رشقتني بهما في نظرة متمهلة نوعا ما بعدما انتهت من استلام وجبة الترحيب التي خصَّها بها فلحي.

حسبتُ أنها روزا زوجه لولا أنها في اللحظة التالية كشفت عن وجهها بحركة بدت عفوية لتظهرَ أنها لا تخفي قبحًا أو تشوّها؛ وإنما جمالا نادر المثال لم أره في هذه الديار إلا على وجه روزا، وإنها لو كشفته كيفما اتفق لتخاطفته العيون وتركَت الرجال صرعى الشعور بالحرمان. لمحتها وهي تجلس تهمّ بوضع ساق على ساق ثم تَعدلُ عن ذلك لتنخرط مع فلحي الذي نسيني تماما في حديث هامس لم تكن هي مُقبلة عليه تماما؛ إذ ظلَّت معطيةً من وعيها لي، ترشُقني بين الفينة والفينة بنظرة باتت تعرف ربما من طول التجربة مدى تأثيرها على من ترميهم المصادفاتُ في طريقها.

ظللتُ متمسمرًا على المقعد لا أدري كلما حرّكت عباءتها أن من أين تبزغ نجمة الصبح وأحيانا هلال.... أغراني تغافل فلحي عني وحركات يديها المتكررة بإطالة النظر بعدما غالبت نفسي فغلبَتني.

التقت عيوننا أكثر من مرة في نظرات خاطفة أخذت تطول حتى دخل في روعي أنني نسيت عيني في عينيها؛ حين بلغني صوت فلحي ينبّهني قبل أن ترتطم عيناي بعينيه المتحفّزتين كمن ضبطني متلبسًا. لم يكن مندهشًا بيد أني شعرتُ بكثير من

الحرج فنهضتُ على الفور متعللا بأني مشغول؛ فلم يستبقني وقتًا آخر، ولكن حين صافحني هوى على يدي المبسوطة ربما إشارةً إلى أنه لا يتركني أذهب إلا لأمر خارج عن إرادته. حاذرت وأنا في طريقي إلى الباب أن أنظر إلى المرأة؛ ولكنني أحسست بوقع عينيها علي فأغراني ذلك بالخروج بما يشبه الهروب.

طالعتني عند البوابة سيارة طويلة تتكسرُ على طلائها الشمس، وخلف المقود رجل عجوز متهدم تخطَّى الستين قد مال رأسُه طوعا أو كرها على النافذة وغفا. حدستُ أنها السيارة التي حملت صاحبة العباءة التي ربما أسفرت مفاتنها بعد خروجي هرولةً؛ فحسدت فلحي ثم لمت نفسي على أن تأخذ هذا المنحنى، وقفزت إلى السيارة أواصل الهروب.

فكرتُ بالذهاب إلى صالح المحمودي لأرى إن كان ما يحاول فلحي أن يُطعمني إياه جوزًا فارغًا؛ ثم عدلت عن ذلك فأنا سأرى ذلك الرجل الزجاجي وسأرى شعبان بسلوكه المتضارب، ثم أنتهي إلى رؤية اليرقان المزمن على وجهِ مَن قصدت. تعجّبت من أن يقضي عمي مع المحمودي وهذه التشكيلة العجيبة من الرجال كل هذه السنين. قلت: لو لم يكن مثل هؤلاء وألعَن ما احتمل أن يكون إلى جوارهم ولو ليوم واحد.

توقفتُ وأنا في طريقي إلى البيت عدة مرات مُفسحًا الطريق لجمال تتنزَّه منفردةً وقطعانًا في عرض الشارع؛ شأنها شأن خواطر تجري في رأسي. لم أفطن إلى أني لم أعرج على نيران إلا بعد أن صرت على بعد أمتار قليلة من المنزل. هممت بأن أعود أدراجي إلى المتجر لولا هاجس يركبني منذ ساعات الصباح أن ستأتي حسنة هذا اليوم، وأنني سأجدها وحدها أو مع ابنتيها تبكيان.

أدخلتُ السيارة المرآب وحين تركته لم يكن أثر للحياة في الداخل. فتحت الباب فارتطمتُ بوحشةٍ قتّالة لمستها في أول ليلة كانت لي هنا. شعرتُ بأني أضفت بهذا الانتظار مشكلة أخرى إلى مشكلاتي التي يقول فلحي مشتاق من الخطأ الفادح اعتبارها مستعصية. ما كدت ألقي بالمفاتيح وحافظة الأوراق كيفما اتفق حتى رنَّ جرس الهاتف. خلت أنني سمعته حين كنت في المرآب. صدق ظني حين جاءني صوت شعبان يزعم أنه من ربع ساعة يحاول الاتصال. قال ذلك بحماسة وتهافتٍ فخلتُ لو أنه أمامي الآن لانحنى وقبّل يدي. طلبَ مني أن أتحدث مع الشيخ صالح المحمودي الذي ينتظر على أحرّ من رمل الصحراء. دلَّت نبرة المحمودي أنه كان بالفعل مطحونًا بالانتظار. سألني أين كنتُ مُتوقعًا أن أجيبه قائلا: «عند فلحي مشتاق». فقلت بسخرية وقد تأكّد لي أن كتابَ هذا قد فعل فعله.

- بين الأيادي.

شرعَ يُطري أخلاقي العالية وأدبي الجم، ووصفني بابن الأصول قبل أن يردف.

- ليس هذا بغريب بابن أصول مثلك، فعمك يرحمه الله رحمة واسعة، ويحشره مع الأنبياء والصدّيقين كان مثال الصدق والأمانة وعلوّ الهمّة.

سكت منتظرًا أن أرد بما هو أجمل، فقلت باللهجة الساخرة ذاتها.

- هذا كله من لطفك.

قال إنه تحت أمري في أيِّ شيء أطلبه، وذكَّرني بأنه قد عرض علي ما لو عرضه على شخص غيري لطار من الفرح، أو لظنَّ أن طاقة القدر قد فتحت له. قلت له من باب المماحكة.

- إنه عرض طيب ولكنني مع ذلك أحزم أمتعتي لأغادر على أقرب طائرة.

صرخ كمن نهشته أفعى.

- إياك أن تفعل.

وطفقَ يعتذر عمَّا إذا كان بدر منه ما يغضب مؤكَّدًا على أني قد فهمته خطأ. طال صمتي فقال إنه سيوافيني في الحال ليشرح لي بنفسه ما استغلق علي فهمه، وليرتب معي سهرة لطيفة هذه الليلة. تعللتُ بأني سأنام مبكرا لأنني مغادر في الصباح. رجاني أن أنسى حكاية المغادرة هذه تماما أو على الأقل إلى حين يراني. تظاهرت بأني أنزل أخيرا عند إلحاحه فزاد من تشويقي قبل أن يرد علي تحية الوداع بأن هناك رسالة وصلت باسمي وإنها معه. شعر على الفور بلهفتي فقال بخبث:

- ستأخذها حين ألتقيك في الغد.

كدت أعلن ألّا بأس من أن أراه الساعة ولكني عزمت على ألّا تزعزعني اللهفة. قلت «لا بأس» وسبقته إلى وضع السماعة. قفزَ إلى خاطري فلحي مشتاق فصممتُ على أن أشكره على جهوده سريعة الثمار. أخرجتُ بطاقته من جيبي وطلبته في العياة. ردَّ خميس وأخبرني أنه خرج لأمر طارئ. سألني عن اسمي ليُذكّر به الدكتور حين يعود. شكرته قائلا إني سأتصل في وقت لاحق، أعدت السماعة إلى موضعها وقد شعرت أن فلحي مشتاق لم يغادر العيادة لانشغاله بذات العباءة. مع هذا طلبته في البيت فردّ علي طفل لم أكن بحاجة إلى ذكاء كي أعرف أنه دالى. سألي على الفور من أنا، وحين سألته إن كان حقّا لم يعرفني من صوتي صاح بفرح:

- عمو هادي؟

وسمعته يصرخ.

- هذا عمو هادي يا ماما.

ثم لامني على أني لم آت كما وعدته. قلت مُداعبًا.

- كي تتأرجح على ركبتي يا عفريت؟

أطلق ضحكة صافية شَرِق منها.

- لا..... تعال كي نذهب إلى البحر أنا وأنت و.....

انقطع صوته فجأة وساد لغظ لم أتبيَّنَه إلى أن تهادى إلي صوت يقطر بالنعاس تطرح صاحبته التحية. أبديت أسفي لهذا الازعاج فردت روزا معترضة.

- لماذا تقول هذا؟ لم تزعجنا على الإطلاق.

تذكرت ما قاله خالد زهران عن هذه الأسرة فصار همي أن أنهي المكالمة بأي شكل. تحيَّنت فرصة توقفِها لتأخذ نفسا بعد حديث طويل عن تعلق دالي بي؛ فخطفتُ منها الحديث قائلا إني اتصلت بالدكتور فلحي في العيادة ولمَّا لم أجده اتصلت بالبيت.

قاطعتني لائمة.

- وهل سألتك لماذا اتصلت؟

لم أدر ماذا أردّ فأكمَلَت بأريحية وثقة طاغية بالنفس.

- البيت بيتك وتستطيع أن تتصل وقت تشاء.

ظل كلام خالد زهران يدق رأسي فقلت في سري إن هذا هو أول الرقص. سارعتُ إلى شكرها على دماثتها وتعللت لإغلاق الخط بأن هناك من يطرق الباب. تناهبتني في اللحظة التالية مخاوف أن يعرف فلحي مشتاق أني تحدثت مع زوجه؛ التي بدا لي أنه يغار عليها من نسمة عابرة على العكس مما أوحى لي خالد زهران. خشيت أن يطيح ذلك بصرح علاقة أحسست أنه حريص على بنائها؛ فأفقد بذلك جدارا صلبًا أستند إليه في الملمات.

شعرت بحاجة ماسة إلى كوب من الشاي فقمت بإعاده سريعًا واحتسيت نصفه بشكلٍ أسرع مع لفافة تبغ؛ ولجأت إلى السرير لاستعرض وأنا مستلق ما مر بي في الأيام الماضية.

أيقظني رنين جرس الهاتف. قمت بتثاقل ولما عبرتُ باب الصالة كفَّ عن الرنين؛ فمضيت إلى الحمام أغسل وجهي. شعرت بانتعاش مفاجيء فتجرَّعت ما تبقى في الكوب باردا.

سمعت جرس الهاتف يئز. التقطتُ السماعة فانبثق صوت خالد زهران يَصفُني بالطرش؛ ثم ذكرني بأنه ما زال عند وعده لي بأن أتناول معه العشاء الليلة ثم يأخذني إلى بيته.

كان يشغل الطابق الأرضي من عمارة بخمسة أدوار. البيت من الداخل خال تماما من مظاهر البذخ إلا إذا كان تخصيصُ غرفة لتربية الأسماك من هذه المظاهر. لاحظت أنه شغوف بالسمك حقا، ولكن حين انتقلنا إلى غرفة المكتبة المكدّسة كتبها في كل بوصة تحوّل شغفه إلى إحساس بالزهو. أطلعني على أن معظم ما أراه أدخَله بطرق شتى. ثم قال:

ـ غيري يُهرّب أكداسا من اللعنات.

قالها بلهجة فيها لمز عابر فقلت كي أوفّر عليه جهد استغابة الرجل إن فكَّر بذلك، حتى وإن كان يفعل هذا من باب الحرص علي.

ـ لم أخبرك بأني التقيت بفلحي مصادفة بعد خروجي من عندك.

سدد إلي نظرة متشككة في أن تكون مصادفة. أكّدت ذلك وأخبرته بما كان منه. اعتراه الوجوم وربما إحساس بالحرج لعجزه عن مساعدتي للوقوف في وجه صالح المحمودي. أيقنت أكثر بأنه لا يتركني أصارع المحمودي وحيدًا أو أرتمي

على أعتاب فلحي مشتاق؛ إلّا مرغما كيلا يريقَ ماءَ وجههِ إن سأل الآخرين المعونةَ من أجلي وهو لا يدري إن كانوا بعدها سيستجيبون له أو لا. أعرف أن ليسَ في خاطره على الإطلاق ضرورة أن أنزَع الشوك المغروس في كفي بيدي؛ ولكنه العجز أو الكبرياء ما يمنعه من التماس الحلول رغم أصدقائه ومعارفه الكثر. إنه نسخة عني قبل أن أضع يدي في يد الجنزاري الكبير، لا يؤمن بأن عليه أن يحني رأسه حتى تمر العاصفة.

ظل نهبًا للوجوم والحرج ثم رفع حاجبيه وأمال رأسه بمعنى «لا بأس» لكنه استدركَ عليها.

- هل تعتقد أني قلت لك ما فيه الكفاية عن فلحي مشتاق؟

قاطعته كي لا يكمل.

- لقد ورد ذكرك بشكل عارض فلم يكن لدى الرجل أيما شيء ضدك.

صوَّب إليَّ نظرة جامدة.

- ليس له أو لغيره شيء ضدي، فأنا مستقيم كالرمح لا أتجاوز حدودي ولا أسمح لأيٍّ كان بأن يتجاوز حدوده معي.

وشرد ببصره بعيدا وقد نامت في عينيه نظرة حنون.

- ما مر بي وبك من مآس وما ينتظرنا منها قد يجعلنا مُرهفي الأحاسيس حقًّا، ولكنه في المقابل يقلل من شأن المآسي الصغيرة التي يفتعلها الأفراد. نحن في الأحوال جميعها شعارُنا الاستقامة والتفاني في العمل؛ ومن هنا تأتي ضرورة عدم المهادنة أو الانحناء.

أدركت أنه إنما يعني شعبا بأكمله فهززت رأسي أنْ نعم.

قال وهو يشملني بنظرة حب.

- فلحي هذا كالفحم لا يمكن أن تلمسه من غير أن تتلوث يداك.

أحسست أن الرغبة في ابتعادي عن فلحي مشتاق لا الرغبة في تجريح الرجل؛ هي ما تحتل الصدارة عند خالد وربما لهذا أعاد ما كان قد ذَكرَه من قبل؛ حول تورط فلحي مشتاق في مسائل كثيرة يعاقب عليها القانون؛ لولا أنه حصَّن نفسه سلفًا. كان يتحدث بصعوبة لا يفتأ ينظر إلى بين الفينة والفينة علَّه يلمح اقتناعا ما على وجهي يعفيه من هذه الإعادة التي ضقتُ بها ولم يعفني من سماعها، ولمّا وجدني غير مقتنع قال محتدا.

- ألم تسأل نفسك لمَ تركه الناس على الشاطئ يصارع الموت وحده كيلا يقصف رقبة ابن زوجه؟

- خطر ببالي مثل هذا السؤال بيد أني لم أجد سببًا معقولا.

- بل هناك عدة أسباب لا سبب واحد، أولها وأهمّها أن الناس الذين كانوا على الشاطئ يومها لا تربطهم مصالح مباشرة بفلحي مشتاق. ليسوا من زبائنه المقربين، ولكن هذا لا يعني أن رائحته لم تصلهم؛ ولا بد أنهم يعرفون بطريقة أو بأخرى كيف جاء الطفل المهدد بالموت إلى الدنيا فتركوه لمصيره متمنين أن تدفن الخطيئة.

قال ذلك بسخرية ثم رق صوته فجأة.

- لا أقول إنهم على حق إو إنهم لم يقارفوا الخطايا. إنني مع إنقاذ الطفل وأرى أن بعضا من المتفرجين آنذاك ارتضى الفرجة لأنه لم يصب شيئا من خدمات فلحي مشتاق.

ثم قلَّب يديه ومطَّ شفتيه متشككا.

لا أستبعد أن يكون هناك من افتعل الحادثة انتقاما من فلحي.

وجدته سببًا معقولا غير أن ما فعله فلحي مشتاق بالنسبة لي حتى الآن وقف حائلا دون التصديق. ظهر ذلك ملامحي فهز خالد رأسه آسفًا ولاذ مرغما بالصمت.

لم يُ

بدد هذا الصمت غير دخول جرجس عبراني المكان بما يشبه الاقتحام؛ عزَّزه عودٌ للعزف يحمله كأنه رشاش. كنّا ما نزال

في غرفة المكتبة. لامنا جرجس على ذلك فعرضت على خالد أن نجلس في الصالة بيد أن جرجس لدهشتي رفض قائلا.

- ونترك هذا المكان الجميل؟!

وإذ استوعبَ دهشتي قهقهَ ضاحكًا ثم اعترفَ بأن لوثة المطالعة قد أصابته على يد خالد؛ وضرب خالدًا على ظهره ضربة كانت قوتها بقوة حبِّه الاعتراف والامتنان.

جلسنا طويلا نتحدث على أكواب الشاي مرة، وعلى فنجانين القهرة مرات. خضنا في أحاديث شتى علمتُ من مجرياته أن أهل جرجس أُجبِروا بعد حملة الليطاني على التزوّج من القليعة لماضيهم «غير المشرف».

قال جملته الأخيرة وأطلق ضحكة مجلجلة ما لبثت أن تهافتت كطائر يهوى من حالق إذ أصابه طلقُناري.... وإذ بدا أن لا أحدَ منا راغب في الكلام خطف جرجس عودَه؛ وراح يردد مواويل شعبية تحاصرها الآهات تلو الزفرات.

رق صوته ثم اضطرب وتنشنّج حتى خلته سيبكي، وعندما كف فجأة لمحت في عينيه دموعا، وحين أعلن أنه سيذهب إلى الحمام أدركت كما أدرك خالد أنه مضى يبكي بحرية؛ فالرجال يبكون بحرية أكثر حين لا تطالهم العيون.

(4)

حال فتحت الباب سقط النور على وجهٍ أكرهه. كرهته أكثر وهو يضغط يدي. سألته عن الرسالة فربت المحمودي على جيب دشداشته ومضى يتدحرج بجسده المكتنز؛ غير المتناسق إلى أن حطَّ على الكنبة يلهث لهاثا أبعدَ ما يكون عن التعب. ظللت واقفا ويدي مبسوطة نحوه. استمهلني بحركة من أصابعه المضمومة إذ لم يسعفه اللهاث بالكلام. أشار علي أن أجلس فجلست أنفخ ضيقًا. تفرّس بي ثم استل مظروفًا صغيرا من جيبه ولوّح به، ثم وضعه على منضدة صغيرة بيننا راجيا أن أنتظر إلى أن ينتهي من الكلام. سألته متخوِّفًا عن السبب فطمأنني معاتبًا بأنه لا يعرف شيئا عن فحوى الرسالة فليس من عادته أن يتجسس على أسرار الناس، ثم استطرد.

- لا أريد أن يشغلك شيء. أريد منك أن تسمعني جيدا.

وتنحنح غير قادرٍ أن يهادن الارتباك أو يهادنه.

- أعترف بأني قلت لك سأكون في حلٍّ من التأشيرة وعقد العمل؛ ولكن ما يجب أن تعرفه، أو بالأحرى ما يجب علي أن

أوضّحه هو أنني لم أكن أقصد ذلك بالحرف الواحد؛ أو بالمعنى الذي وقع في نفسك فنقلته إلى الدكتور فلحي مشتاق.... كان همي الوحيد أن تشتغل معي وإن كانت وسيلتي إلى ذلك الضغط. لقد أحببتك كابن لي وقلت لنفسي: لقد عثرتَ أخيرا يا شيخ صالح على الرجل المناسب، وسيعوضك بلا شك عن كارثة موت صديقك وحبيبك سعيد الجنزاري رحمَه الله رحمة واسعة؛ وأدخله فسيح جنانه.... لقد نسيتُ لعن الله الشيطان أن أصلي العصر، وها قد أدركني المغرب.

وهوى بيده على ركبتي قائلا بمرح.

ـ هذا ما كنت أقصده في حينه، أما أن أؤذيك فهذا آخر ما يخطر لي ببال.

أمعن أخيرا النظرَ إليّ بعد ما كان يحاذر الالتفات ليرى تأثير كلامه علي. قلت وأنا أضع ساقا على ساق وقد أحسست بوجودي أكثر.

ـ ولكن أن أعمل معك أو لا أعمل مسألة لا تأتي بالضغط والإكراه.

طفَقَ يؤمّن على كلامي ويمتدح كبريائي وعقلي النيّر. قاطعته بالقول وأنا أكثر إحساسا منه بموقفي المتضعضع.

- ثم لا تنس أني حتى هذه اللحظة أعتبر عمي شريكا لك، هذه قضية لم تُحسم بالنسبة لي كما تريد إقناعي.

طقطق بشفتيه رافعا رأسه الكبير إلى أعلى ليمنحني شعورا بأن ليس ما أخبَرَني به نهائيا؛ هو السبب الذي يجري بشأنه الحوار

- أبدا.... أبدا.... قطعا.... هذه المسألة يمكن بحثها برويّة وبإسهابٍ إن شئت، فلا مانع لدي من أن أُطلِعَك على الدفاتر والإيصالات والصكوك، وسأرافقك بنفسي إن شئت إلى أي مكان تريد؛ فتسأل لترى أن ليس هناك ما أخفيه.

انقبض قلبى أكثر للهجته الواثقة. لقد تغيّر حقا واختلف نوع الكلام الذي بات ينتقيه؛ ولكن في الحالتين يؤكد أن عمي لم يكن شريكا كما أوهمني وكما أوهم أقرب الناس إليه كزوجه وابنتيه. استعدادُه هذا للمساعدة ما هو إلا نار تحرق آخر ما كنت أراهن عليه من أوراق.

طال صمتي وربما حيرتي التي اكتشفها بنظرات صريحة هذه المرة؛ كأنما يصرُّ على أن يُقدّم نفسَه على أنه كتاب مفتوح، ويطالبني بأن أعامله بالمثل. تململت ضيقا ونهضت معلنا أني سأغلي له شايا أو قهوة وكلّ همي أن أهرب للحظات؛ أتوارى

وألتقط أنفاسي المبهورة. أمسك بيدي وضغطها باليد الأخرى ثم نهض بصعوبة وعلى ثغره ابتسامة عجزتُ عن تفسيرها.

ـ لا تتعب نفسك. هل نسيت أني دعوتك لنسهر معا.... هناك سنشرب ونأكل ونرقص إن شئت.

ضربني على كتفي فلم يعن لي غير أنه يذكرني بالحلم في ليلة سابقة. لم أجد بُدًّا من الابتسام فدس ذراعه في ذراعي ومضى إلى الباب. هناك توقف وسألني إن كنت أرغب في تغيير ملابسي فهززت رأسي أنْ لا. رمقني بحسدٍ دارت له عيناه دورة كاملة وتمتم.

ـ ما شاء الله! الزين زين ولو نام ساعتين.

لم أفطن للرسالة إلا بعد أن انطلق المحمودي بسيارة اللاند روفر قائلا بكثير من الفخر.

ـ سيارتي الليموزين لا تنفع في الصحراء.

شهقت باستنكار يناقض شوقي القديم لافتراش الرمل تحت سماء يتبختر على صفحتها قمر مكتمل.

ـ وهل سنذهب إلى الصحراء؟!

غرغر بضحكة كريهة رغم ما فيها من سعادة، وربما لهذا كرهتها.

- هذه المدينة الفاجرة في قلب الصحراء أيضا.

وهتف يمتص الكلمات.

- الصحراء هنا.... أمَّا جنة الجنات فهو وادي الروّاح.

أطلق لسيارته العنان ليمنحني إحساسا بأن هذا المكان يستحق هذه المخاطرة، ولما التفت إلي ورآني منقبضا أبدى استغرابه وصاح هذه المرة تعبيرا عن افتتاته الشخصي.

- إنه وادي الرواح يا فتى الفتيان؛ عظمة الله ثم عظمة الإنسان تتجلى هناك.

زعمت أن ما يسبب لي الانقباض نسياني الرسالة فربت ركبتي قائلا إنها لن تطير.

وطار بالسيارة أكثر فاكتشفت أن السرعة الجنونية لا الرتابة ما يقربني منه أو يقربه مني. أخذ يثرثر كيما اتفق ثم مدّ يده إلى المسجلة فانطلقت على الفور أغنية خليجية؛ تغرق في عزف منفرد على العود وتصفيق منتظم يدل على مهارة. لم تثرني الأغنية فأغلق المسجلة معتذرا أنه كاد ينسى أنني حزينا

على عمي. استسخفت السبب فمددت يدي لتلعلع الأغنية من جديد. صفق على الفور وهتف بلا تحفظ.

- عاش الشباب المتحرر.... المجد والخلود للمزاج والطرب.

ضغط البنزين وأجرى آخر غيار بعد قيلولة الحديث السريع فهدر المحرك مجددًا للحظة؛ قبل أن يعلن في أريحية أننا إنما نمتطي بساط الريح. طوّح بالمدينة خلف ظهره وجعلت أنوارها تفر هاربة فظللت أتلفت إلى الوراء؛ حتى باتت مشكاة صغيرة تغرق في ليل الصحراء. أعلنَت الصحراء عن نفسها بنسمات باردة وبنشيش الرمال من تحت العجلات. سألته وأنا أنكر على نفسي الخوف:

- أين تذهب؟

رد وهو ينقر على المقعد بانشاء.

- لقد أخبرتك.... إلى وادي الروّاح.... مزرعتي الجليلة هناك.

بدت لنا أخيرا حزم متفرقة من أضواء تنُوس في فضاء رحب بلا نهاية. اقتربنا فطالعتنا أشجار باسقة قبل أن تهب روائح نبات مرويٍّ لساعته؛ أو يُروى على الدوام. اقتربنا أكثر فجابهتنا أسوار عالية حجبت مع الأشجار سقف بناية كانت

تظهر عن بعد. سألته إن كانت هذه هي المزرعة وإن كان اسمها وادي الروّاح. قال ضاحكًا:

- وادي الروّاح هو هذه المنطقة التي لا تملّها العين أما هذه فمزرعتي الخاصة.

ثم أضاف بكثير من من الزهو.

- مزرعة فيها ما تشتهي الأنفس المحرومة. إنها الفردوس المفقود يا فتى الفتيان.

تململتُ تعبيرا عن ضيقي بتكراره هذا الوصف فلم ينتبه، وأنا بدوري لم أصرّح بهذا الضيق. توقف أخيرا أمام بوابة عريضة فُتحت على الفور؛ وحين مرقَ منها لم أرَ أثرا لأي إنسان تولى فتحها. مضى الهويني حتى توقف أمام بناية من طابقين تتوسط أشجارا كثيفة ملتفة. لم أشاهد غير سيارة واحدة مركونة في الطرف القصي من البناية. تلفتُّ علّني أعثر على إنسيٍّ واحد فلم أجد. خلتُ أنه يستدرجني إلى كمين سيما وقد برز رجل من بين الأشجار يتطوحُ على جنبه مسدس. تسمَّرَ على بعد أمتار منا وحين اقترب منه المحمودي رأيتُ هذا يشيرُ بعد همس سريعٍ إلى نورٍ يسقط من إحدى النوافذ الأرضية؛ قبل أن ينعطف المحمودي إليَّ يطبطب على ظهري مُنشرحا بمعنى أن كلَّ شيء على ما يرام. دس ذراعه في

ذراعي وساقني إلى المدخل. التفت إلى الرجل المسلح فلم أعثر له على أثر. عالج المحمودي قفلَ الباب في اللحظة التالية مِن غير أن يند عنه أيَّما صوت؛ مفضيا إلى ردهة واسعة تنتهى بدرج عريض.

سبقني إلى الداخل يتلفّت حوله قبل أن يستقر على ناحيةٍ بعينها. حين دخلتُ مِن بعده تبيَّنت أنه مبهور بفتاة ممشوقة القوام، مشرقة الوجه لا أدري من أين خرجت بجسد لا يستره غير قميصٍ شفاف وغير وِزرَةٍ مشجّرة على الردفين. قدّمها على أنها مديرة المنزل وأغفل أن يُقدمني لها فحمدت له ذلك.

رمقتني الفتاة الثلاثينية بحذر بادىء الأمر، ثم أطلقت لإشراقةِ وجهها العنان. أحسست بها تتعقبني مباشرة والمحمودي يتنقل بي من ردهة واسعة إلى ردهة أوسع في الطابق الارضي؛ لأقف على آخر ما ابتدعته المصانع الغربية من أثاث وأدوات كهربائية وإلكترونية؛ ومن سجاد بوبرٍ طويل، ومن ستائر تعانقُ أطرافها السقف والأرضية من الجهات كلها. رأيت إليه يتوقف آخر الأمر عند جهاز عرض سينمائي. سألني إن كنت أرغب في مشاهدة شريط لطيف. ولما قلت إنني لا أحب الأفــلام قال بلهجة الواثق من تغيير القناعات:

- سنرى.

ثم خصَّ الفتاة بنظرة من عينه فقفزت على الفور تدير الجهاز؛ بيد مدرَّبة وقد انسحب إزارها إلى ما فوق الركبتين بكثيرٍ بفعل القفز؛ مظهرا باطن فخذين لم يبدُ أنها حريصة على إخفائه. فورَ انطلاق شارة البداية أدركت أن كل شيء جاهز لاستقبالي ولم يكن وليد الساعة. برزت على الفور أمرأة عظيمة الصدر والردفين تتمطى وهي تترك السرير.

انحسر قميص نومها الشفاف المفتوح أصلا عن نهدين عاريين تماما. بالغت في التمطي والتثني حتى بدا أنها اضطرت لترك السرير كي تجيب على رنين الهاتف. التقطت السماعة ومررتها على نهديها ثم وضعت ساقا على ساق، وراحت تشدو بصوت يقطر غنجا وتهتف بعزيزها أن يسرع قبل أن يبرد اللبن؛ فتلعقه القطة أو الكلب.

ضحك عزيزُها مهددا بأن سيطلق النار على قططها والكلاب، ثم طيَّب خاطرَها حين غضبت بأنه سيكون كلبها الأثير، فرنت ضحكةٌ مغناج صفق لها المحمودي وضرب الفتاة مديرة المنزل على كفلها؛ فتثنت مطلقة صرخة ممطوطة أقنعتني بأنها طلَّقت العذار منذ زمن بعيد فانهال علي القرف. زمتُ مكاني فكان هذا إيذانا للمحمودي بأن هذا يكفي. أشار للفتاة أن توقف العرض وأخذني جانبا مُتعجّبا من نفوري؛ ثم سحبني إلى ردهة أخرى فيها تلفاز كبير وجهاز آخر أسفل منه. قال:

- لعلك تريد أن ترى شريطا آخر على الفيديو؟

قلت بلهجة صدمته:

- لا.

هز رأسه أنْ نعم وهو يرشقني بنظرة وشت بمدى استغرابه من هذا الطفل الغرير؛ الذي عرض عليه خطأ أن يسهر معه ويؤانسه، بيد أن وجهه حين نظرتُ إليه كان ينبىء بأنه لم يقطع الأمل بعد؛ فمشوار الألف ميل يبدأ بخطوة واحدة.

رأيته يمعن النظر إلى الفتاة ويكوّر يده فيما هي تهز رأسها متفهمة، وأيقنت أن بينهما لغة قديمة تنهضُ بها العيون والأيدي والحركات. مضت بقفزات رشيقة لعلها من طبيعة جسدها المغزول، ثم غابت خلف باب يفضي إليه ممر كان ظاهرًا للعيان حيث نقف. أحسست بيد المحمودي تندس تحت إبطي قبل أن يقودني لتسلق الدرج. أخذت أصعد بيطء فيما هو يستحثني على الإسراع؛ حتى إذا صرنا في أعلاه أخذ يلهث من فرط الإعياء.

تفرس بي بعينين زادَ جحوظهما ليرى أثرَ ما يعاينه علي؛ ولمَّا لم يجد تشكَّل في عينيه الحسد على ما أتمتعُ به من صحة وشباب؛ إضافة إلى الوسامة وحسن التكوين. انطلق يلعنُ التدخين مقسما على أنه لن يضع بين شفتيه لفافة بعد اليوم،

ولكن ما كدت أخرِج علبة سجائري وأعرضها عليه حتى تناول واحدة راح يمتصها بشره يتساوى وانشراحه بالردهة الفاخرة؛ التي قادني إليها. تولى استقبالنا نور ينوسُ في جنباتها قبل أن يستلقي على أرائك واطئة، وأخرى عالية، وفُرُشٍ وضعت أرضا جُلّلت بفرو حدست أنه ناعم الملمس. وقف بي وسط الحجرة مزهوًا بممتلكاته. قال وهو ينقل يديه بين الأرائك والفرش:

- أتحب أن تجلس على الطريقة العربية أو الإفرنجية.

- جلسة عربية طبعا.

صاح بنشوة عارمة.

- يحيا العرب.

وهوت يداه على خاصرتي. همَّ برفعي ولو لبضعة قراريط تعبيرا عن سعادته؛ ولما فشل حملتُه أنا وألقيته على أريكة في أقصى الردهة. تجاوز عن فظاظتي إذ تحقق من أني لن أعطيه زمامي، وقال وهو يصفق:

- آن الأوان لنفتح الباب الثاني من أبواب الجنة.

ورفع إصبعه منبِّهًا وهو يغرغر بضحكة فاجرة.

- لجنتي أيضا سبعة أبواب.

دخَلت مديرة المنزل تدفع أمامها عربة محملة بزجاجات من مختلف الأحجام والألوان؛ تتوسطها كؤوس وأطباق ممتلئة بالمكسرات. ظلَّت تدفعها إلى أن ألصقتها بركبتي، ثم استقامت واقفة تقدّم لي عينيها لأزرع فيهما الثناء. لم أفعل فتطلّعت إلى المحمودي كأنما تسأله عن أي لوثة أصابتني. أشار إليها إشارة خاصة فاستجابت بثني ركبتيها ومضت إلى الباب بخطوات فقدت بعضًا من رشاقتها وخفتها. انزلقَ عن الأريكة وتقدَّم نحوي زاحفًا على ركبتيه إلى أن بلغ العربة؛ وسأل وهو يمرر يديه بين الزجاجات

- ويسكي أم كونياك أم شمبانيا؟

قلت مدهوشا من سذاجتي أن كيف لم أتصور هذا حين عرض علي السهر!

- لا هذا ولا ذاك.

هزّ رأسه ونقل سبابته على زجاجات أخرى.

- إذن فنبيذ أو فودكا أو بلادي مير؟

هززت رأسي أن لا فتجلّت في عينيه دهشة تعانق الفزع.

هتف بصوت مخنوق.

ـ ألن تشرب حقا؟

كان حتى هذه الساعة يغالط نفسه بأن رفضي ليس أكثر من مماحكة أهجم بعدها على الزجاجات؛ أفرّغها في جوفي. أكّدت له بلهجة قاطعة أنني لا أشرب ولن أشرب؛ فضجَّ في عينيه الاستنكار وسقط من ثم على مؤخرته عاقدا ذراعيه حول ركبتيه في خيبة أمل كبيرة؛ ترجمها تجهّمه وكرشه المدلوقة بين ركبتيه.

ـ وأي طعم سيكون للسهر من غير شرب؟

أطلعته على أني لم أشرب قط ثم قلت بأريحية.

ـ بإمكانك أن تشرب دونما حرج.

زفرَ محاولا جهده ألا يصرخ من شدة الحنق.

ـ من غير المعقول أن يشرب أحدنا والآخر يتفرج عليه.

ـ لن أتفرج، وسأشرب شايا أو قهوة.

ضح بضحكة مغلولة.

شاي أو قهوة؟ في وادي الروّاح؟ ملعونٌ أول من طحن القهوة، وأول من زرع الشاي.

ثم تلوّت على شفتيه اليابستين ابتسامة حائرة، وسكب في كأسٍ القليل من زجاجة انتقاها ثم مدها نحوي ببطء راجيا.

- جرّب إن لم تجرب هذا حقا وبعدها ادع علي.

رفعت حاجبي عاليا واستلقيتُ على ظهري واضعا ساق على ساق لأقطع آخر أمل لديه. تكدست الخيبة في عينيه. زفر زفرة كثيفة تخلع لها صدره ولكنه دارى ضيقه بسرعة متصنعا السرور.

- إذن فأنا أيضا لن أشرب.

ربما قالها في محاولة أخيرة للتأثير علي، ولما وجدني لا أتزحزح قال بمرارة.

- هل هذا يرضيك أن تذهب ليلتنا سدى؟

استندت على مرفقي ضاغطا على مخارج الحروف.

- أنا في الحقيقة جئت لأتعشى.

ضرب على فخذه بضيق وصاح.

- سنتعشى يا أخي.... سنتعشى ولكن كل شيء بأوانه.

طقطقت بشفتي إصرارا ولمّا وجد ألّا مناص من قبول الأمر الواقع نهض وعلى ثغره ابتسامة محيرة. صفق مرتين فدخَلَت على الفور مديرة المنزل ومن خلفها فتاتان ممشوقتا القوام، يتهدل شعرهما الطويل على الكتفين وكل منهما ترتدي غلالة رقيقة سماوية اللون؛ من فرط تماثلهما في كل شيء يكاد الناظر يحسبُ أنهما توأمان.

وقفت مديرة المنزل وسط الردهة ووقفت الفتاتان بجانبها، وبدا من إشارات المديرة ومن حركاتها أنها ذات سطوة عليهما. خرجت المديرة بعد انحناءة قصيرة لي وانحناءة أعمق للمحمودي الذي لم يلحظها إذ كان مشغولا بافتراس الفتاتين بنظرات نهمة جائعة. جلسَت إحداهما أرضا ومشت الأخرى بخطوات محسوبة إلى الزاوية المحاذية للباب، تناولت عودا لم أكن قد تبيَّنته من قبل. عادت به إلى الفتاة الجالسة وباتت تنتظر متمايلة، وتلك تدوّزِن الأوتار ولما واتتها نغمة معقولة اتخذت وضع الاستعداد؛ وأنشأت تعزف وتغني بينما راحت الأخرى تتثنى بما يوافق اللحن.

انشغلتُ بمراقبة المحمودي الذي كان مشغولا بافتراس الفتاتين لا سيما الراقصة. ازداد جحوظ عينيه ثم شرع يختلس إليّ النظر ليرى مفاجأته هذه علي. لم أشأ أن يصيبه الإحباط

والإحساس بالغبن أكثر فشرعت أصفق وأدندن بما يوافق اللحن. ظهر عليه الانشراح الفوري فحذا حذوي مُطلقا الصرخات كلما مالت الراقصة بجذعها الطويل نحوه أو نحوي، وجثت على ركبتيها لتعطي جيدها السامق وشعرها الطويل وصدرها الناهد حقهم في الظهور.

حاول جهده أن يكتفي بالتصفيق والغناء والصياح ولكنه لم يطق صبرا على هذه الرزانة النسبية؛ فشرع يرقص واضعا ذراعيه حول خصر الفتاة فخلتُ من ضغطه عليه سيتقصف تحت يديه. خلَّى الفتاة وهجم على الكأس التي ملأها لي، كرعها دفعة واحدة قبل أن يلثم العازفة ويعاود الرقص.

صفقت له فأمعن في الشرب والصراخ والرقص كالمجنون إلى أن سقط أخيرا على الأرض مبهورَ الأنفاس؛ تتقشى في اصفراره المعهود زرقة مخيفة. ظل لبضع لحظات ساكنا بلا حراك حتى خلتهُ لفظَ أنفاسه، ثم جعل يخبط الأرض بساقيه ويديه ويطلق ضحكات هستيرية دفعت الفتاتين إلى أن تكفّا عن الغناء والرقص؛ وشرعتا تنظران إليه بامتعاض تحاولان إخفاءه كلما نظرتا إلي متخوفتين من أن أكون على العكس منهما متعاطفا معه.

ظللتُ على وضعي السابق فأخذتا تهامسان وقد طالت نظراتهما إلي أكثر من المعتاد، أحسست بحرب خفية تدور

بينهما لم أدر مبعثها إلى أن نفرت إحداهما غاضبة، فتحت الباب واندفعت خارجة لتعود بعد لحظات بمديرة المنزل وهي لا تفتأ تشرح لها أمرًا بدت غير آبهة له؛ سيما حين رأت المحمودي مُمددًا يرفس بساقيه رفساتٍ عشوائية ويضحك ضحكة المخمور. التفتت المديرة إلى الفتاتين تتفحصهما ثم خصتني بنظرة طويلة قبل أن تدق على صدر إحداهما قائلة بلطف ما استطاعت:

- ابقي هنا.

ثم دقَّت على صدر الفتاة الأخرى بقسوة.

- وأنتِ.... احملي الشيخ معي.

ظهرت الخيبة في عيني الفتاة الثانية وخرجت مع مديرة المنزل بالمحمودي؛ لتبقى الأخرى راكزة يديها على خاصرتها في خيلاء وعلى وجهها نشوة النصر. نشوة لم أتبين سببًا محددا لها إلا حين مضت قفزا إلى الباب تغلقه؛ قبل أن تلقي غلالتها الرقيقة عنها وترتمي على الفراش أمامي مباشرة تتلوى.

حدقت إليها ببرود وذهول فكفَّت عن التلوي قليلا ثم قبضت على ذراعي وأجبرتني على أن أحيطها. دافعتها برفق غير

متخلص من الدهشة والبرود. تطلّعت إلي برهة ثم تراخت يداها عن ذراعي قائلة كمن اكتشفت أمرا غاب عنها:

ـ لم أرك تشرب؟!

قلت لها إني لا أطيق الشرب فكشفت عن نهديها قائلة وهي تضغطهما بالتناوب.

- ولا مِن هذا؟

أحسست على الفور بخدر يهجم على مفاصلي. تمطيت دافعا بذراعي إلى آخر مدى. ارتطمت أصابعي في طريق العودة بشعرها، لم أدر أنني جذبت خصلة منه إلا بعد أن أطلقت صرخة أبعد ما تكون عن الألم. هممت بأن أهوي على حيث تقبض بيديها ثم تصورتها في اللحظة التالية مجبرة على هذا مقابل ثمن يدفعه المحمودي ولا شك. سألتها عن ذلك، ترددت ثم اعترفت بما يشبه العناد أن الأجرة من حقها.

أحسست بغيظ مفاجيء دحر بوادر الرغبة فيها. نهضتُ على الفور وإذ دلَّت حركتي هذه على أني لا أريدها فقد هبت واقفة؛ وتجلى في عينيها الذعر. حاولَت مداراته بأن طوَّقتني بذراعيها وراحت تحك صدرها بصدري مغمغة.

-ولكنك تختلف.... أنا أريدك حقا.

تصورتها تقول هذا لكل رجل تصادفه فتعبَّأت بالقرف. ربتُّ على ظهرها وحررت نفسي من ذراعيها برفق.

- أعرف.... أعرف ولكني مرهق. لندع هذا إلى مرة أخرى.

افترسَت ملامحَ وجهها حيرةٌ فسَّرَتها بقولها.

- وأنا التي ظننت في البدء أني أكثر حظوة من زميلتي!

قلّبتُ يدي وضربت بها فخذي بمعنى «لا حيلة لي بالأمر» ثم مضيت إلى إحدى الأرائك. جلست مشعلا لفافة ورحت أدخن باستمتاع وانتشاء لصلابتي. مشَت بتثاقل حتى توقفت أمامي منكسة الرأس تزرر قميصها الشفاف.

- إذن أرجوك أن تبقيني معك حتى الصباح، وألّا تخبر الشيخ عما جرى وإلا ظنَّ أني كنت فظَّة معك.

أدركتُ أنها تخشى إلّا ينقدَها المحمودي على أتعاب ليلتها؛ سيما حينما تفرَّست بي بعينين تجلت فيها نظرة حبلى بالرغبة.

- يستحيل أن أكون فظة معك.

وعدتها خيرا مُشيرا إلى الفراش الأرضي قائلا إنه يمكنها أن تنام هناك؛ بينما قدر كبير من الضيق قد هجمَ علي لاكتشافي متأخرًا أني سأضطر إلى النوم في هذا البيت ما دام المحمودي

على تلك الصورة من الإعياء. رمقتني بإغراء فاضح كأنما تقول «إنني أمنحك فرصة أخيرة» ولمّا كررت الإشارة بحزم أشد إلى الفراش؛ استدارت ببطء خائبة الأمل ثم تكومت على نفسها هناك قطة جائعة.

شعرتُ بالجوع يدبُّ في أحشائى فقمت إلى الباب فألفيتها تنهض وتسبقني إليه معجونة بالفزع.

-لماذا تخرج؟

أوضحت لها أني جائع وسأطلب من مديرة المنزل شيئا آكله. اطمأنت ثم أشارت إلى صدرها بما يعني ستتكفل بذلك. تنحيت جانبا تاركا لها هذه المهمة. قبل أن تمد يدها إلى مقبض الباب فكت إزارَ قميصها كاشفة عن صدرها؛ ثم أطلّت برأسها وصفقت بعظمة. هرعت مديرة المنزل بخطوات فقدت الكثير من خفتها كما فقدَ وجهُها الكثير من إشراقته التي رأيتها من قبل.

بدا من نظراتها إلي وإلى الفتاة وهذه تعلن عن ضرورة إعداد العشاء قبل مزاولة وجبة أخرى من الحب؛ أنها غير راضية تماما بأن تكون في موضع المتفرجة وحسب. سمعت صرخةً مفاجئة من الفتاة فأدركت من هرشِها لمؤخرتها أن المديرة قد قرصَتها قبل أن تذهبَ؛ لتعود بعد قليل بعربة أخرى مثقلة

بأطعمة شهية. بالغت في دفع العربة حتى ألصقتها بركبتي وأنا أعود إلى مكاني على الأريكة. حدقت إلي وفي عينيها بريق عجيب حين حاولت أن تنقله إلى الفتاة المستندة إلى كتفي بدلال؛ تحوّل إلى غيرة قتّالة وحسد مضن. مدّت يدها وربتت خد الفتاة بطريقة أقرب إلى اللطم ثم غادرت بخطوات كانت رشيقة أول الليل.

انهمكتُ في تناول الطعام بعدما أعلنت الفتاةُ عزوفها عنه مكتفية باتخاذ وضع القرفصاء؛ مستندة إلى ركبتي تراقبني عن كثب. حدست أنها تتمنى لو أن اقبالي عليها كإقبالي على الطعام الأقرب إلى الافتراس. لا تعرف هذه الفتاة قطعًا أن اللحم ظلَّ لزمن طويل لا يزور بيتنا إلا في المواسم، وأن البقول والنباتات البرية ضرَبت مع معدتي ومعدة أمي صحبة دائمة.... شعرتُ بانعطافٍ مفاجى، نحو الفتاة إذ رأيت أني وإياها بـدرجة ما في هذه الحياة سواء.

ازدردتُ آخر لقمة ولمستُ وجنتها المتوردة فاحتكت بظاهر كفي مرارا، وبدا لها أن امتلاء معدتي قد قصَّرَ الطريق بيننا. دفَعَت من فورها العربة وقامت لتجلس على ركبتي. قرّبت وجهها مني ولما دفعت رأسي إلى الخلف حطّت بذقنها الملساء على كتفي مداعبة بإصبعها شفتي. تسرَّب إلي خدر لذيذ خشيتُ معه أن أنساق فيقتلني الندم.... نترت جسدي مشيرا لها بحزم أن تذهب لتنام.

مضت مكسورة الخاطر. جثت أرضًا ثم قرفصت وأمالت جسدها على جنبها مخفية وجهها بذراعيها؛ وخلتها تنشج بالبكاء. تكوّمتُ على كنبة طويلة وتظاهرت على الفور بأني غفوت. لم أدر متى هدهدني النعاس وحين صحوت مع بوادر الفجر ألفيتها ملتصقة بي وأنفاسها تتردد بانتظام. دهشت لأني لم أستيقظ حين تركَت مكانها القصي. دهشت أكثر من أنها لم تسقط من كنبةٍ على عرضها لا تتسع لاثنين. تململت لأنهض ففتحت عينيها باسمة لتقنعني بأنها لم تغف في ليلتها قط. ظهر ذلك في انتفاخ أجفانها فاستنكرت ذلك منها.

قالت بحزن وهي تساعدني في تسوية ملابسي

ـ لماذا تحرمني هذه الساعات التي ربما لن تعود؟

وكشَفت عن مكنون صدرها إذ وصفت الرجال الكُثر الذين التقتهم بالوحشية؛ وادَّعت أنها لم تقابل من عاملَها باحترام وإنسانية مثلي، وإن كانت لأول مرة لا ترغب في هذا الاحترام؛ وهذه الانسانية. قالت بمرارة.

ـ كلهم بلا استثناء وحوش. بفترسون لحمي افتراسا. يلوكونه ثم يلقونني آخر الأمر كما تُلقى النواة.

هاجمني إحساس بالتأثر والإشفاق بيد أني سررت إذ حصَّنت نفسي وأنا أكاد أرى لعاب الشهوة من الرجال يسيل على كل

بوصة منها. سألتها عما يجبرها على ذلك.... فضحكت من سخف السؤال ثم رشقتني بنظرة جانبية تعني «أحقا لا تعرف» ثم انتفضت قائلة بإباء كأنما حقيقتها كادت أن تغيب حتى عنها.

- ماذا تعني؟ أنا فنّانة، ولن تجد في الخليج كله واحدة ترقص مثلي.

تظاهرتُ بالاقتناع وقلت أن لا بد جَمعت ثروة طائلة من فنها هذا. هزّت رأسها بعد أن رشقتني بنظرة متشككة في جدية ما أقوله عن فنها.

- يدفعون بسخاء. المال لا يعني لديهم شيئا. على العكس يبدو لي في أحيان كثيرة أنهم ينظرون إليه على أنه حمل ثقيل؛ عليهم التخلص منه بأي طريقة.

سيطَر عليّ الوجوم فظنّت أن باعثه الدهشة من استمرارها في هذا الطريق ما دامت قد جمعت ما يكفيها ويزيد. قالت موضحة بصوت لا تنقصه المرارة.

- كلّما توفر لي مبلغ زيادة عما في يدي دفعني هذا إلى البقاء والاستمرار، فأنسى كل مرة ما يصيبني منهم.

سألتها عما إذا كان المحمودي يأتي بالكثيرين من أمثالي فتجلت في عينيها علامة استفهام كبيرة؛ وسألتني عمن يكون المحمودي هذا! فأخبرتها بأنه الشيخ الذي رقص معها حتى خارت قواه. رفعت رأسها متفهّمة ثم قالت إنها لا تعرف حتى اسمه كما لا تعرف أسماء الآخرين. إنها لم تأت إلى هذه المزرعة غير مرتين أو ثلاث على الأكثر؛ وإن كانت قد زارت تلك المزارع المنتشرة في وادي الروَّاح، ثم همهمت بضحكة مفاخرة.

- ولكنهم يعرفونني جيدًا ويطلبونني وزميلتي بالإسم.

سألتها عن اسمها فقالت بتلذذ.

- عوزة وزميلتي عوزات.

استنتجتُ لما يبدو من تناسق الاسمين أنهما مستعاران.

اومأت برأسها أن نعم وأردفت.

- هذا من ضرورات الفن.

شعرت بضغط على مثانتي فقمت إلى الحمَّام، وحين خرجت منه صادفني المحمودي خارجا من إحدى الغرف منتفخ الوجه. ابتسم بصعوبة وأنا أطرح عليه تحية الصباح؛ وأبدى أسفه لأنه استغرق في النوم فلم يُعدني إلى منزل عمى ليلا.

شعرت أنه إنما يأسف لتأخره هو، وتوارى في الحمام وهو يوصيني بأن أستعد لنغادر بعد تناول الإفطار.

في طريق العودة سألني بلهجة الواثق إن كنتُ استمتعتُ جيّدًا. أكَّدت له ذلك فمنحتُه إحساسا بأنه قدّم لي خدمة جليلة؛ وأني لست سيئا كما ظن بي الظنون أول الليل. ربت لي ظهري بانتشاء.

- سألت عوزة عنك. تصنَّعَت الحياء بادىء الأمر ثم اعترفت بأنك مدهش.

ثم جلجلت عنه ضحكة مفاخرة.

- ولكنّها أكدت على أنك لستَ أكثر إدهاشا مني.

وضرب على صدره بقوة.

- ما زال الشباب يربض هنا يا فتى.

وشرع يسعل فحمدت لنفسي أنني لم أشرب من نبع عوزة الذي سبق لهذا الرجل أن ولغَ فيه. تظاهرت بالأسف لأني سببت له على الأرجح خسائر كبيرة. لامني على هذا الظن وقال باستهانة.

- أبدا. كل ما في الأمر عشرة الآف.

أطلقت شهقة طويلة، خففتها بالقول.

- كثير على اثنتين.

رد مندهشا من سذاجتي.

- للواحدة يا فتى.... للواحدة.

تعبّأت بالقرف فألححت عليه أن يسرع ففعل غير منتظر هذا الطلب؛ فقد كان يشغله أمر ما لم يفصح عنه. وضعني أخيرا أمام المنزل مؤكدا ضرورة أن أرتاح بقية هذا اليوم؛ لآتي إلى الشركة في الغد من أجل العمل ومن أجل أن أقف على حقيقة وضع الجنزاري عمي.

لوحت له بيدي مجاملا ووليت إلى الداخل.... طالعني المظروف فخطفته. قرأت تحت عنوان المرسل الاسم الكامل للأستاذ بكري، توقعت أن يرد على برقيتي المرسلة إليه بشأن ما جرى. فضضت المظروف ببرود. كانت الرسالة من ثلاث ورقات بالقطع الكبير مكتوبة كلها بخط أنيق. عرفت أنه خط هديل. أكد ذلك اسمها وتوقيعها في نهاية الصفحة الأخيرة الممتلئة حتى السطر الأخير.

قرأتها على مهل فلم يكن فيها أدنى إشارة على أنها علمت بما حدث لعمي. قالت في أكثر من موضوع إنها «ستفتقدني» ولم

تكن اللهجة المستقبلية هذه الإشارة الوحيدة إلى كون الرسالة قد كتبت قبل سفري على شكل اعترافاتٍ؛ رأت هديل من خلالها أن تطلعني على ما استغلق علي فهمه من انعطاف سعيد الجنزاري هذا الانعطاف المفاجىء نحوي؛ بعد قطيعة استغرقت عمري كله. إن صدقت هديل- وأظنها كذلك ـ فإن أمي اقتنصَت عودةَ عمي في إجازة يقضيها مع زوجه وابنته؛ فذهبت إليه ترجوه أن يحملني معه في أقرب طائرة إن أراد لي السلامة من الطائرات والمدافع. ردّها بادىء الأمر خائبة حين قال «لا شأن لي بكِ وبابنك المعتوه».

اشتكت للأستاذ بكري فحاول إقناعها بأن تتركني وشأني فأنا أدرى بمصالحي، ولكنها أغلظت له القول لأول مرة في حياتها حين فسَّرت وقوفه إلى جانبي استجابةً لرغبة الجنزاري صاحبه في أن تغدو هي مثله؛ بلا أولاد ذكور إن لم يكن يحسدها على ابنها الوحيد ما دام هو أيضًا لم يتبق له من الأبناء غير هديل. ولمَّا كان عمي قد وصل منذ يومين تغاضى الأستاذ بكري عن تعريض أمي به، واستعد لها أن يذهب ليحدث عمي علّه يأخذني معه. عاد خائب الرجاء إذ صرَّح له عمي بأنني ولد ساقط ومن المؤكد أن أسبب له مشكلات هو في غنى عنها.

لم تصدّقه أمي ومِن هنا كانت المحاولة الثانية ومن هنا كان الغداء الذي أصرَّ الاستاذ بكري أن يتناوله بمعيّة الجنزاري

الكبير؛ علّه يُغيّر موقفه ويرحم دموع أمي ويرحمه هو من شكوكها، بيد أنه ظل على رأيه الذي لم يُغيِّره إلا بعد أن رأتني ابنته أنيسة من النافذة وأنا أعبر الزقاق، وإذ سألت هذه هديل عمّن يكون هذا الشاب الوسيم؛ وأخبَرَتها أنه ابن عمها حتى شهقت بفرح ظهرَ في اللقاء التالي لسعيد الجنزاري مع أمي التي لم تيأس؛ فذهبت إليه مرةً أخرى، إن لم يكن هو من أرسل في طلبها. أخبرها بأنه فكَّرَ جيدا ووجَدَ من واجبه أن يلمَّ ابن أخيه وأن يردَّه عن سخافاته. وهكذا دخلتُ قلبَ سعيد الجنزاري مرورا بقلب ابنته أنيسة.

لم أصعق لهذه الاعترافات أو لهذه الحقائق، ولكني ألفيت نفسي مكوّما على الكنبة بلا حراك والرسالة جاثية على قدمي. تفاصيل آخر شهر عاشه سعيد تُثبت ما قالته هديل. قد يكون دافعها التلميح إلى حبها لي وحرصها على ألّا أظل مخدوعا تحت تأثير الامتنان لعمي؛ فيقرّبني من ابنته. قد تكون هناك بواعث أخرى ولكن الصدق يربط خيله بأوتاد السطور.... تعبأت بالكره لعمي وانهلت عليه باللعنات وأنا أرى أن ليس الموت على تلك الصورة أقسى مما يستحق.

اقتحمني صوتُ فرامل تتوقف تبعتها حركةُ أصوات عند الباب فتناولت الرسالة وأخفيتها في جيب البنطال الخلفي؛ ومضيت أنظر من النافذة. رأيت أنيسة تسند أمها وهي تولول وتدق صدرها. انقبض قلبي أكثر فلم تختارا وقتا للحضور أكون فيه

أكثر استعدادا للتسرية عنهما. ما إن فتحت الباب حتى اندفعت حسنة ممسكة بحلقي تضغطه بشراسة وتهزّني واصفة إياي بالقاتل حينا؛ وبغراب البَين حينا آخر. وفي كل الأحيان تسبني وتلعن اليوم الذي رأتني فيه.

تركتها تفرّغ غيظها متعللا بأنها إنما تفعل هذا من فرط حزنها على زوج لن يعود؛ ولكن حين تمادت وصار لا يرضيها أقل من إزهاق روحي هممت بأن أطوِّحَ بها من فوق الدرج، ولعل أنيسة لاحظت عليّ ذلك من تعابير وجهي المحتقن بالغضب والاشمئزاز؛ أو أنها لم تكن ترى رأي أمها فدافعتها عني، وحين أفلحَت بسحبها إلى الداخل راحت حسنة تلطم وجهها وتندب حظها العاثر.

تشنَّجَت ملامح أنيسة بعدما بذلته من جهد وبعد اكتشافها أن البيت يخلو حقا من أبيها. دارت حول نفسها لا تدري ما تفعل وألقت إلي نظرة منكسرة؛ فلم أجد مناصا من التربيت على كتفها مهوِّنًا. اندفعت إليَّ بحركة مباغتة خلت معها أنها ستبادر إلى ما أنكرَته قبل قليل من أمها؛ بيد أنها ألقت بذراعها حول خصري، وأسندت رأسها إلى صدري، ثم انخرَطت في بكاء مرير نقلني على الفور من طور الحياد؛ بل الشماتةِ إلى طور الحريص على ردم الجراح المفتوحة منذ سنين.

ظللت أواسيها ولمّا أغادر مكاني عند الباب. هدَأت بأسرع مما توقعت واستنامت ليدي وأنا أجذبها لتجلس بجواري. شرعت تطرح أسئلة سريعة عما حدث ولمّا لم أجد بُدًّا من الإجابة اختصرت الكثير من التفاصيل؛ مؤكدا لها أن مسألة الموت تستعصي دوما على التحليل والفهم والتفسير. ظلت طوال الوقت تهز رأسها متفهمة أو متكلفة الفهم، ثم أسندت هذا الرأس إلى كتفي قبل أن ينزلق رويدا على صدري؛ وقد انتظمت أنفاسها وراحت في سبات عميق.

نظرتُ إلى وجهها. ألفيت عينيها مغمضتين إغماضة من غفت ولا تريد من يوقظها. هجست في نفسي وأنا على يقين بأني لن أتزحزح عن وضعي قبل مرور ساعة على الأقل «حقا لم أكن أعرف ماهي الهموم والغيظ بعد».

ولكن أمّها التي لم تكن قد كفّت عن الولولة اندفعت إلى الصالة حيث أجلس، وإذ أبصرت ابنتها على هذا الوضع أغارت عليها تنشلها من ذراعها؛ فهبَّت مذعورة من الانتشالِ ومن زعيق أمها.

- مِن أولها با ابن زكية تريد أن تأكل عقل البنت؟

ولمَّا حدّقت أنيسة فيها ذاهلة صرخت موضحة.

- لم تجف دماء والدك بعد، ويريد الأخ أن يلعب بذيله.

ثم كشّرت عن أسنان علاها الاصفرار فحسبت أنها ستنقض علي نهشًا.

- لم يكفه قتل زوجي، يريد ابن زكيّة أن يسلبَ عفافَ ابنتي.

وأخذت تفرقع بيديها وتخبط الأرض بقدميها على مقربة مني صارخة.

- لا يا ابن زكية، لا يا حبيبي، ما دمت أنا على وجه الأرض فلن تمس شعرة واحدة منها.

فارت في عروقي الدماء حتى بتّ على دراية بكيفية حدوث جرائم القتل المباغتة، تلك الجرائم التي لا يسبقها إصرار وترصد. كنت على وشك أن أنهض وأسدد إلى أنفها لكمة قد تكون القاضية، ولكن أنيسة سبقتني إلى الصراخ في وجهها.

- ماذا تقولين؟ شيء غريب هذا الذي أسمعه؟ هل فقدت عقلك يا امرأة؟

أشارت أمها إلى عينيها بإصبعين منفرجين مؤكدة.

- بعيني هاتين رأيته يحتضنك ويهم بتقبيلك، وأنت يا عيني طفلة بريئة غافلة عن هذه الأشياء.

تطلَّعت أنيسة إليَّ بغتة وقد تجلَّت في عينيها نظرة ليس لها إلا معنى واحد.... بودّها أن تكون مزاعم أمها قد حدثت بالفعل، لذا شاعَ في محيّاها الرضا ورفضت الاستجابة ليد أمها وهي تحاول جاهدة أن تسحبها خلفها إلى الداخل بعيدًا عني؛ فندمت على سكوتي عن ردِّ التهمة أشد الندم، بل تمزَّقتُ في الندم حين باتت أنيسة تتصرف معي وكأني جزء لا يتجزأ من ممتلكاتها الخاصة؛ فلم أطق البقاء أكثر فخرجت.

كانت الساعة تشير إلى الثالثة بعد الظهر حسب التوقيت المحلي. تطوَّحت صورة عمي من موضعها تحت مرآة السيَّارة فانتزعتها وألقيت بها من النافذة.

وجدتني بعد قليل أمام متجر كاظم.... دفعت الباب الزجاجي واقتحمت المكان بلا استئذان. ظلّت نيران كما كانت جالسة تتفرس بي من غير مصدقة أني من دخل على هذه الصورة. نهضَت ثم شرَعت تحوم من حولي عاقدةً ذراعيها أمام صدرها. قالت موبّخة:

- طريقة ذكية تنجو بها من السؤال عن غيابك أو حتى الاتصال.

تذرَّعت بأسباب حسبتها مُقنعة. أشاحت بوجهها غير مصدقة. ولمَّا احتفظتُ بغيوم تجهّمي ولم أبُدِّدها سألتني.

- وماذا بعد؟!

اضطرت لأخبارها بما كان من زوج عمي؛ وحين أتيتُ على ذكر أنيسة شعّت في عينيها نظرةٌ مفعمة بالغيرة، وطلبت أن أحدِّثَها بكل شيء عن أنيسة هذه، ولكنها سألتني بادئ ذي بدء وهي تجلس معتمدةً ذقنها بيدها.

- جميلة؟

مططتُ شفتي.

- لم يخطر ببالي أن أُسألَ مثلَ هذا السؤال وإلا لدققت فيها النظر.

رفعتَ حاجبها غير مصدقة فاغترفتُ لها كلَّ ما في صدري عن عمي وزوجه وابنته حتى إذا انتهيت صرختُ بحنق.

- أكرههم.... أكرههم جميعًا.... إنني أكره نفسي.

وإذ اكتشَفت أن ما بي من ضيق حقيقي لا هزل فيه مدَّت يدها ووضعتها على يدي برفق، ثم راحت تضغطها بأناةٍ بما يواكب صوتها المعبّر عن تأثيرها البالغ.

- دعك من أحقاد الماضي ولا تحمل همًّا.

ثم غاب صوتها خلف غلالة كثيفة من الحزن حتى خلته يصعد من قعر بئر سحيقة.

- إياك أن تعرف طريق الأحقاد والهموم، أو تدعها تعرف طريقك.

حدَّقتُ فيها بإمعان لأرى أنَّ ما قلته لا يُشكل نقطةً مما تخفيه في صدرها من أشجان. شعَرتُ نحوها بذاك الانعطاف الذي يفرض علي أن أكون وإياها واحدًا في اثنين، أو اثنين في واحد فلم أجد حرجًا من إخبارها بكل ما حدث الليلة الماضية في مزرعة المحمودي مُغفلا ذكره بالاسم. أحسستُ بعدها برغبة غامرة إذ بتُّ على يقين بأنني هدمتُ بالاعتراف آخر حاجز من الكلفة قد يكون منسيًّا بيننا.

رغم ما بان في عينيها من حيرة إلا أن ملامحها التي عادت إلى انبساطها دلّت على أنها كانت على شوق لمثل هذه المكاشفة؛ وأنها توقّعت أن يحدث هذا لي ومني. عرضتُ عليها أن نخرج فكأنما كانت بانتظار هذه البادرة. نهضَت من فورها وخطفت مفتاح المتجر من الدُرج وسبقتني إلى الخارج لتغلق الباب.

جلسَت خلف المقود في سيارة أخيها وجلستُ بجوارها تاركًا سيارة الجنزاري الكبير أمام المتجر. تذكّرت أنني سأعود آخر

الأمر إلى حيث حسنة تقبع في البيت فانهالَ علي الغم. قالت راجيةً ولمّا تنظر إلي:

- هادي.... لا تذهب إلى مثل هذه الأماكن الموبوءة مرة أخرى.

ربتُّ يدها النائمة فوق المقعد أطمئنها بأن هذا لن يتكرر، ولعلَّها شعرت ببرودة يدي فالتفتت وإذ رأتني متجهمًا سألتني إن كنتُ أفكر بزوج عمي. أطلقتُ زفرةً كثيفة ران بعدها صمت فرشَ ملاءةً داكنةً علينا مزَّقتها نيران بالقول.

- مرَّ علي وقت ظللتُ واهمةً أنني لن أعرف التعاسة على الإطلاق ولن تعرفني، ولكن الأيام أظهرت لي أن بقدر ما تكون الآمال والأشواق للحياة عريضة حتى يتوهم المرء أن السعادة باتت أقرب إليه من حبل الوريد؛ بقدر ما يكتشف أنه غارقٌ في سراب.... لا يدري متى وكيف ومن أين تأتيه الضربة القاضية إلا اللحظة.

أرجعتُ هذا إلى ترملها المبكر....فقالت.

- إن هذا واحد من أشياء كثيرة يمكن الحديث عنه وتعليله، وبعضها يلتصق بشغاف القلب كالعَلق فلا تدري كيف تعبّر عنه، لأنها لا تدري من أين يأتيها الوخز والوهن.

تملّيتُ من تعابير وجهها الذي لم يكن حزينًا كما يجب فشعرتُ للمرة المئة أننا لم نلتقِ هكذا مصادفةً إلّا ليكمّل أحدنا الآخر. ترجمتُ لها خواطري فالتفَتت إلي رغم أن الطريق تشرق بالسيارات. سألتني متشكّكة.

- ألن تندم؟

أكدتُ لها أن لا ومددتُ ذراعي أطوق كتفها زيادةً في التأكيد.

أحسستُ بتموجات خفيفةٍ تحت يدي كأنما جسدها بحيرة ساجية أُلقيَ فيها حجر.... خلتها تغمض عينيها لبرهة قبل أن توقف السيارة مُطلقة شهقةَ فزع.

- لسنا في الطريق الصحيح.

هجستُ لجملتها هذه بمعان لا تقصُدها حتمًا لذا قلت بصوت واهن معاتبًا.

- بل نحن في الطريق الصحيح.

تلفّتَت حولها متشككة في نفسها وإذ أدركت مقصدي انهالت على ثغرها ابتسامة أضاءت لمَاها. فرَكت أنفي قائلة.

- لا تخرجني عن اتزاني وإلا قبَّلتك أمام الناس.

تمنيت لو تفعل وإذ ضجَّت في صدري رغبة في احتوائها ولو للحظات أنسى فيها أنني على خريطة العالم؛ لم أجد الشجاعة الكافية لفعل ذلك والسيارات من حولنا تهدرُ تمتدُّ منها رؤوس وأعناق وعيون تلمع بالفضول.

عادت إلى الوراء ثم سلكَت طريقا آخر كنَّا قد اجتزناه بميل على الأقل. قالت وهي تنتظمُ فيه على مهل.

- هناك استراحات أخرى في نهاية هذا الطريق الذي تركناه ولكن في طبعي الحنين إلى أماكن اللقاء الأول.

نظرت إليَّ تستوضحني الرأي فأكّدت لها أن هذا من طبعي أيضًا. كفّت يدي عن ضغط كفها لإحساسي بأن قربها ووجودها على مثل هذا القرب في كلِّ شيء يغنيني عن اللمس؛ إن لم يجعله الاندماج المطلق أحيانا في غاية السخف.

استقبلنا النادل الهندي بانحناءته المميزة. ولمَّا لم يكن قد أتى أحد بعد إلى الشرفة اقتعدنا مكاننا السابق المطل على البحر. وضعت نيران مفتاح السيارة بيننا على المنضدة وتنهّدت بارتياح محاولة بين الحين والآخر زحزحة خصلة شعرها النافرة عن الجبين:

- لماذا؟ هكذا أجمل.

رفعَت حاجبيها وابتسمت منتشية.

- هل تراني جميلة حقًّا أم أنك تجاملني لتقول فيما بعد: لم أدقق فيها النظر؟

حدستُ أنها مناورة للعودة إلى ذكر أنيسة ولكن أخطأ ظني حين جعلَت تبالغ في ترتيب خصلتها على الجبين؛ وحين قالت بلهجة الفنانة الخبيرة.

- بعض الوجوه التي نراها قبيحة ومنفّرة من النظرة الأولى نكتشفُ حين ندقق فيها النظر أنها في غاية الحسن والجمال.

وربما لاحظت أني لم استوعب هذا جيدًا فأوضحت.

- جمال الداخل الذي بات بضاعة كاسدة وعملة نادرة هذه الأيام بعدما رمى حبُّ المظاهر الكاذبة بظلالهِ على الناس.

تملَّيتُ من وجهها الخالي من الأصباغ، لم تكن جميلة كروزا أو عوزة أو هديل ولكن لا أدري من أين كلّما نظرت إليها يتقاطر نحوي الارتياح. قالت وقد حيرتني كيف باستطاعتها أن تحدسَ في كل مرةٍ خواطري!

- أعرف أنني لستُ جميلةً بالموازيين التي تواضعَ عليها الناس.

نفيتُ ذلك بحماسة وأكّدت لها أنها جميلة الجميلات. ارتاح على محيّاها السرور وقد ظننتُ لمدة أنها نوع من النساء فريدٌ لا يغيره الإطراء. قلتُ متمنيًّا أن يصدق حدسي.

- أنتِ بالطبع لم تقفي طويلا عند مظهري لتري أني وسيم للغاية وذو مظهر جذاب؟

رمَت عليّ نظرة متسرعة ثم هربت بعينيها إلى البحر بعدما هرَبت إلى وجهها حمرةٌ قانية؛ خجلاً واستنكارًا لمثل هذا السؤال أو الإقرار. شعرتُ بالحرج الذي أنقذني منه النادل حين أتي مُستفسرًا عمَّا نشرب أو نأكل. سألتها إن كانت جائعة فأومت برأسها وتركت لي حرية اختيار ما أشاء. اقتحمني في الحال هاجس النقود. مع هذا أبديتُ كرما ملحوظًا، وإذ مضى النادل مالت نحوي قائلة بإصرار.

- لن تدفعَ قرشًا واحدًا.

ضحكتُ معلنًا أنها تنقذني بذلك من ورطة حقيقية فابتسمت قائلة:

- أعرف.

سألتها متعجّبًا «كيف» فتمهلت قليلا وهي تسافر بعينيها في عيني ثم رقّت ملامُحها لدرجة أنكرَت عليّ أن أطرح عليها مثل هذا السؤال.

قلتُ أنها بذلك تحرمني من أن أُخفي عنها شيئًا فرنت إلي راجيةً.

- ليتَ ذلك يكون.

انحنيتُ نحوها مُنبِّهًا إلى أني حدّثتها بأدق تفاصيل ما مرّ بي في الليلة الماضية. رفَّت رموشها برضا وقالت غير مخفية إعجابها كأنما تجيب بذلك متأخرة عن سؤال سبق حول مظهري.

- البحر لا ينضب ما فيه من درر.

حدّثتها بعفوية عمّا مرّ بي من تجارب مع نساء لم أقف عندهن طويلا؛ مؤكّدًا على أن أيّا منهن لم تقنعني وإذا انتهيت إلى ذكر «هديل» لاحظَت هي كما لاحظتُ أنا بعضَ الاختلاف في درجة سخونة ذكرياتي عنها؛ ولكني أكدت لها في النهاية صادقًا أنني لم أحب امرأةً قط مثلما أحبها هي، فأضفتُ بذلك إلى محيّاها قدرًا آخر من الإشراق فاتخذ العشاء الذي جاء به النادل صفة الوليمة احتفاءً بمناسبةٍ سارّة غير معلنة حقًّا؛ ولكنها تتمددُ تحت جلودنا وتورق سعادة غامرة.

لم أجد حرجًا من أن أضع في فمها بين الفينة والفينة قطعة من اللحم المحمّر، أو شريحة من دجاج مسحوب، وإذ كانت تقول «كفى» لا تعني لهجتها غير دفعي إلى المزيد حتى حذت حذوي فأطعمتني بيدها غير عابئة بالنادل الذي كان يراقبنا عن بعد، ويبتسم مشجعًا أو غابطًا على هذا الوئام.

أتت ابتسامته برد فعل عكسي.... دفعت يد نيران وصرختُ «كفى» فتناثرت الدهشة في وجهها المخروطي ثم غابت سريعًا بين طيّات صوتها الرخيم. ترددت قليلا بوضع اللقمة في صحنها أو وضعها في فمها فاستقرَّت على أن تضعها في فمها وتمضغها سريعا؛ قبل تهرب بعينيها إلى البحر. قالت بهدوء:

- لو كنّا الآن على شاطئ دجلة نأكل السمك المُدخن ما انتهينا بهذه السرعة.

ضربتُ على بطني المنتفخة شبَعًا.

- أكثر من هذا؟ لم يبق إلا أن ألتهم أصابعي.

قالت وقد ضجَّ في عينيها استنكار لأني لا أقدّر ما أقول.

- لو كنَّا هناك لالتهمناها فعلا.

قلتُ صادقًا.

- مكانان غير ساحل يافا أشتاق أن أعاينهما عن قرب. شاطئ دجلة ودلتا النيل.

قالت إنها زارت أماكن كثيرة في الشرق والغرب ولكنها لم تنفعل كانفعالها بالوقوف على دجلة.... البعدُ عن الوطن ولو لساعات معدودة أمر في غاية القسوة. الأكثر قسوة أن يتركَ المرء وطنه مُرغمًا.

مرة أخرى تقرأ نيران خواطري.

أحسستُ بالسرور إذ أراها دائما تُبحر بعيدًا عن شاطئي ليضرب مجذافها العامر بالدفء في أعماقي سواء أكانت مسكونة بالحزن أم الفرح أم بالأمنيات العِذاب.

ولمَ يتلاشَ هذا السرور إلا حينما تساءلتُ وأنا أركن السيارة في المرآب إن كانت هذه الليلة ستمضي على خير، سيما حينَ وصلني وأنا أصعد الدرج أصوات مختلطة من نسوة لا تنتظر إحداهن حتى تفرغ الأخرى من الكلام؛ فخلتُ أني إنما أدخل خطئًا خلية نحل.

كن يجلسن في غرفة الاستقبال. حال دخلت باب الصالة المفضي إليها سارعَ بعضهن إلى خطف العباءات المركونة بإهمال. واصلتُ طريقي إلى المطبخ حيث لا مكان يمكنني الانزواء فيه.

جاءت أنيسة هرولة وطفقت تلومني على خروجي. تغاضيت عن لهفتها على بقائي وسألتها عن هؤلاء النسوة وكيف جئن! فقالت مفاخرة إنهن الجارات والمعارف اللائي أتين للتعزية، وإذ اكتشَفت بصعوبة ما بي من ضيق ادّعت أنها ضاقت ذرعًا لولا زميلة كانت معها في المدرسة جالَستها مدة غيابي، وأنَّ هذه لم تذهب إلا من دقائق معدودات ثم سألتني إن كنتُ أرغب في أن تعرّفني عليها.

أنبأتها بضيق أنْ لا فتفشّت في وجهها ابتسامة سرور فكدتُ أدحرها بالقول أن لا علاقة لهذا بما تتوهمه من منزلة أثيرة لها في نفسي؛ بيد أني آثرت ألّا أغتال إحساسها هذا ما دام يسببُ لها قدرا من النشوة الكاذبة، وما دام لا يسبب لي الكثير من الأذى.... أبديتُ لها حيرتي بسبب احتلال النسوة غرفة الجلوس المفتوحة على الصالة وتساءلت أين يمكنني الجلوس فقالت بعد شعقة استنكار:

- في حجرتي طبعًا.

ترددتُ قليلا ثم استسخفت أن تكون ظنون أمها حائلًا دون راحتي النسبية. استنكرت أن أحسب لهذه الظنون أدنى حساب. خطوت في طريقي إلى حجرتها فأمسَكَت بذراعي قائلة كمن تذكرت لتوّها.

- لقد اتصل بك شخص اسمه على ما أظن فالح أو فليح.... لستُ أدري!

- فلحي.... مشتاق.

صرخت كجائع عثر على كسرة خبز.

- أجل فلحي مشتاق.... اسمه فلحي مشتاق.

ثم أردفت بتلذذٍ مَن تُسدي إليّ خدمة جليلة.

لقد اتصل ثلاث مرات أو أربع وفي كل مرة أرد عليه فيؤكد على ضرورة أن تتصل به حال تعود.

هرشتُ رأسي مفكرًا بسبب اتصاله بي فلم أجد إلا اتصالي ببيته وهو غير موجود، ثم قلت: «لا، لعلَّه أنجز شيئًا مما وعدني بشأن وضع عمي في الشركة». مع هذا ترددتُ بالاتصال به. وإذ رأت أنيسة أن تخرجني من حيرتي هذه بعرضها علي أن أنسى الموضوع لنجلس ونتسلى على حد قولها؛ حفَّزني هذا العرض لأن أمضي إلى الهاتف مُسببًا ذلك وجبة أخرى من الهيجان للنسوة اللائي شرعن يبحثن سريعا عن العباءات.

اتصلتُ به في العيادة ولمّا لم أجده اتصلت بالبيت. جاءني صوته على الفور كأنما كان بانتظاري أو يهم بالاتصال. أبدى

انزاعجة من غيابي. أبديت له أسفي فقال بعد لحظة صمت أنه قام بالواجب فسأل في عدة أماكن ذات العلاقة، ولكنه للأسف لم يعثر على ما يؤكد أن عمي شريك للمحمودي. رحبت بذلك بيني وبين نفسي وشكرت له جهوده.

عاتبني قائلا إنه قام بالواجب لا أكثر ولا أقل، وأن أكثر ما كان يزعجه إلّا يجد ما يفعله من أجلي ليرد جميلا في عنقه.... جميل لن ينساه. وإذ لم يأتِ حتى هذه اللحظة على ذكر اتصالي به في البيت توهّمتُ أن زوجه لم تخبره، غير أنه أماط اللثام عن وهمي هذا بالقول.

- لقد أخبرتني المدام أنك اتصلت بي. كلّي أسف. اضطررتُ بعد خروجك من العيادة للخروج مع الضيف الذي شاهدته.

لم أدرِ أي ضيف يعني ولمّا لم يكن أحد يومها غير المرأة ذات العباءة قلت إنها هي.... مع هذا سألته عمن يكون هذا الضيف فقال كمن يلومني على هذا الإلحاح.... أو يزجرني لأني لم أعرف.

- الضيف.

خلتها تخرج من بين نواجذه بشق الأنفس فتوقعت أن زوجه على مقربة منه أو أنها تتجسس عليه. همهمت بمعنى أني

فهمت فضحك ضحكة غير طليقة تمامًا. سكتَ بعدها للحظات كمن يزوّر فكرة ثم قال بلجة من طرأت له الآن.

- آه.... ضروري جدًّا أن أراك الليلة.

وتعمّد أن يصمت قبل أن يوضح كي يبدو الأمر في أشد الغموض لي.

- لنستكمل حديثنا الذي انقطع لوجود الضيف العزيز.

أحسستُ أنه بات يضغط كلمة الضيف لسبب مغاير. لم أسأله بالطبع عن السبب وهو بدروه لم يوضح أكثر مكتفيّا برجائي أن أنتظره في البيت إلى أن يوافيني بعد قليل. سألته قبل أن أضع السمّاعة إن كان يعرف البيت فضحك طويلا وقال بفخر.

- لا يوجد هناك ما يستعصي معرفته على الدكتور فلحي مشتاق.

وضعتُ السماعة ببطء تحاصرني دهشة أثارت فضول أنيسة التي كانت بالقرب مني طول الوقت. سألتني وأنا أقف مكاني عن فحوى المكالمة ولمَّا لم أرد تبعتني إلى المطبخ؛ ثم إلى غرفتها وهي لا تفتأ تسألني السؤال ذاته. جابهتها بغيظ.

- دعيني الآن.

ثارَ في عينيها الذهول ولكنها في اللحظة التالية عادت تستفسرُ بإلحاح عمَّا كان يريده ذلك الرجل؛ حتى جعَلَني أبدو غير متوازن كمن انقطع عنه التيار الكهربائي وهو يشاهد مسلسلًا مُثيرًا. أثارني هذا التشبيه فوددت لو ألطمها. أمعنتُ فيها النظر تثور في صدري زوابع الغيظ التي أخذت تهدأ بالتدريج كلما ارتطَمَت بهذه البلاهة المتفشية على وجهها. بلاهة تثور كأسراب الذباب.... تثور أكثر وتهيج كلما فتحت فمها لتخوض في كلام.... أي كلام.... قلت لها بلهجة كابدتُ ألّا تقتل الحرص الذي تبديه نحوي، وتذبح البراءة التي تحاول إقناعي أنها من طبعها.

- لا شيء يا أنيسة. لا شيء.... كلّ ما في الأمر أنه يريدني أن نسهرَ سويًّا وأنا كما ترين متعب جدّا.

هزّت كتفها ببساطة.

- إذن لا تخرج.

عدتُ أتفرسُ فيها مندهشًا من عفوية الحل. كدتُ أقنع نفسي بأنه حل معقول لولا أني أكذب فيما يخص التعب. عادت تلح علي أن أبقى فلم أجد مخرجًا أفضل من أهيئَ نفسي للخروج حال يجيء فلحي، فبَدت في غاية الندم لأنها أخبرتني بشأن الهاتف.

بادرني فلحي مشتاق حين صرنا في سيارته بالسؤال إن كان قد سبب لي إزعاجًا بهذا اللقاء؛ أو بإخباره إياي بحقيقة عمي. كذبت بشأن سروري بهذا اللقاء ثم أكّدت صادقًا أنه لم يزعجني على الإطلاق فيما يخص سعيد الجنزازي. قلب يديه متسائلًا باندهاش:

- إذن فلم التجهم والصمت؟!

سارعتُ إلى نفض تجهمي كأنما كان قناعًا أرتديه لأبدو كما يريد في غاية السرور والانبساط بالحظوة للخروج مع رجل مثله. بدأت أشعر بالارتياح حقّا إذ تذكرت أن حسنة تقبع في البيت، وبأنني مع رجل قدَّم لي طوعًا كل هذه الخدمات. وكأنما أحس بدبيب خواطري فقال.

- منذ كنتَ الوحيد الذي مدَّ لي يد المساعدة في حادثة ابني الغالي؛ أيقنتُ أنك من معدن طيب.... أنك أصيل لم يلوّثك كالآخرين وباء الحقد والحسد.

استمحته العذر إن وجدني أغضبُ إذا ما تطرَّق إلى هذه الناحية مرة أخرى. هزَّ رأسه ممتنًّا ثم صمت قبل أن يخوض في حديث طويل ينضحه من داخله. لم يبد عليه أنه يريد أن يناقشني في أمر بعينه أو أن أسأله، أو أن يرد عليه. فقط يريد

أن يغترف مما يختزنه في صدره من ذكريات أو أشجان حسبتُ أنه خليٌّ منها.

بات همّه أن يتحدث وحسب موهِمًا إياي بأن كلَّ ذلك وليد هذه اللحظة. قال شيئًا عن كون الحياة غابة وحشية النيات والشجر؛ يفترسُ القوي فيها الضعيف وأن على الإنسان كي يحافظ على توازنه أن يحسب خطواته جيدًا، وأن يضع قدميه على طريق خالية من المزالق، واعترف بأنه أمضى وقتًا طويلًا وهو على جهل بلعبة الحياة والناس، أو بلعبة الحياة بالناس إلى أن قُيّضَ له اكتشاف أسرار هذه اللعبة وفنونها، فالسرّ في مهارة مَن يعتبرهم الآخرون ماهرين.

تعبّأ صوته بالزهو وهو يدلل على ذلك بالرهبة التي أصابت المحمودي إثر سطر واحد على ورقة صغيرة أرسلها له. والمحمودي كما قال وكما لمستُ أنا رجل تخرّ له الجبابرة ساجدين. ما كان هذا ليكون لو لم يعرف الطريق أو الدهاليز التي يعشقها المحمودي وغيره.... والغير هذا كثيرون.

حضَرني صوت خالد وحديثُه عن فلحي. رأيت أن هذا يُلمّح إلى كونه قد وجدَ نفسه مرغما على السير في طريق لا يريده، ولكنه في المقابل لا يفوته التصريح بنشوة أحيانا أنه لم يظل ضعيفا أو مخدوعا بالمثاليات. أما في كل الحالات فمولع

بالتدليل على أنه رجل مهم للغاية وقويٌّ تلك القوة المبنية على ركائز ثابتة من الفهم لأسرار اللعبة.

بدا لي وهو يتوقف أمام استراحة من تلك المنتشرة على الشاطئ أنه نضحَ كل ما في نفسه؛ ولكن ما كدنا نتخذ مجلسنا تحت الأضواء الساطعة حتى سأل:

- لماذا جئت إلى هذه الديار؟

فوجئت بالسؤال وفاجأني أكثر أن يطرحه بلهجة من يتنظر ردًّا بعينه، لهذا قلت.

- لا أدري.

لمحتُ في عينيه نظرة ساءني أن تكون معصورة بالإشفاق، داراها بالتظاهر أنه يصدقني.

- يبدو أن هذا الصحيح.

ثم أردف وهو ينحني نحوي مؤكدًا.

- ولكن حين تدري تجد مجيئك في المحصلة النهائية لم يكن من ورائه غير هدف أو أهداف محددة: أن تشتغل فتجمع قدرًا من المال يتيح لك أن تتزوج وتبني بيتًا. باختصار أن تحسن من ضعك الاجتماعي.

قلت «ربما» فقال بصرامة أشبه بالزجر.

- تحسين الوضع الاجتماعي هو الحصان الذي يركبه الجميع.... القليل مَن يضع مؤخرته على السرج أما الكثرة الكاثرة فتتعثر وتسقط لحظة أن تلمس أقدامها الركاب لتقسطَ على خوازيق.

اعتراني الوجوم فبالغَ في الانحناء نحوي وقد تغيّرت لهجته تماما لتركب عربة الحرص على مستقبلي.

- وأنتَ أمامك طريق ممهدة يتمناها الكثيرون للوصول إلى منابع الأحلام.

أدركتُ من نظراته أنه يقصد وسامتي وتكويني الجسماني بمجمله فهجستُ في نفسي بأنه أسلوب المحمودي نفسه؛ وإن بدا لي الغرض غائمًا حتى الآن. تركَني أصارعُ الشعورَ بالحيرة وأشار إلى نادل دلّت سحنته أنه غير عربي. ترك لي أن أطلب ما أشاء ثم عاد إلى الانحناء نحوي.

- بعد أن غدت مشكلة الإقامة محلولة قد يبدو لك أن تسألني عمّا ستشتغل! وأنا أقول إن عليك ألّا تقبل بأي عمل انطلاقا من إحساسك بأنك عاطل الآن.

وأردف ملوّحًا بإصبعه وهو حريص على إظهار أنه إنما يحدثني حديث الند للند.

- وقبل أن تعمل عليك أن تمسَحَ المجال من حولك مسحًا شاملًا؛ لترى إن كان ذلك يخدمك ويخدم تطلّعاتك على المدى الطويل لا أن تنتظر آخر كل شهرٍ لتقبض الراتب؛ وما يترتب عليه من مكآفات هزيلة. هذا إن كان هناك مكافآت.... عليكَ أن تبحث عمَّا يسميه محترفو السياسة والحرب بالمجال الحيوي.... المجال الحيوي بلوغُه من صفات الرجل الناجح الطموح.

بعد أن أشار علي أن أشرب عصير التفاح الذي طلبت وبعد أن ارتشف من عصير المانجة رشفة صغيرة تابع القول.

- صحيح أنا على استعداد لأن أخدمك دائما وأن أقصّر عليك المسافات؛ ولكن من الأفضل لو أنك عرفت كيف تكوّن لنفسك قوة ذاتية تستند إليها. عندها سيبهجك قطعًا أن تكون ملاذًا للعصافير الصغيرة، أو الصقور على حدّ سواء.

ثم أردف بعد رشفة صغيرة من العصير.

- سيمنحك هذا إحساسا بالتفوق والثقة. سيمنحك أمانًا يفتقده الكثيرون لأن هؤلاء باختصار لم يتوصلوا بعد إلى كيفية نزع شوّافاتِ الجلد عن عيونهم.

أرسل عينيه مُفتّشا في وجهي عن كينونةٍ قد تولّى منذ ساعات حرثَها وغرسَها وتقليمَ فروع أشتالها المتشعبة بغير انتظام.... لا أدري ما الذي لملمه من ملامحي بنظراته الثاقبة إذ سمعته يصيح.

- عظيم.... عظيم. أستطيع الآن تبليغك الأمانة.

تساءلت باندهاش.

- أمانة؟

ضحك قائلا وهو يرفع كلتا يديه.

- مهما ستقول عني فأنا واسطة خير لا أكثر ولا أقل.

سكت للحظات يراقبني عن كثب ليرى أثر اللهفة علي. قال بعدها ببساطة مُذكرا.

- المرأة التي جاءت وأنت عندي في العيادة.... تذكرُها؟

- صاحبة العباءة؟ أجل..... ما بها؟

مدَّ يده وهوى بها على كتفي مبتسمًا ولكن حين جاء دور الكلام طوى يديه أمامه قائلا ببراءة.

- تريدُ يا سيدي أن تراك وتتعرفَ بحضرتك.

ربَضت في حلقي الدهشة وإذ تساءلت عن السبب اختلسَ إلي نظرة بطرف عينه؛ وتلهّى بسحب رشفة طويلة من كوبه قبل أن يُقلّب يديه حيرة.

- لا أدري.... لو كنتُ أدري لقلت لك. كلُّ ما في الأمر أنها اتصلت بي هذا الصباح وسألتني عنك متمنية إن كنتُ أستطيع أن أدعَها تراك في الوقت الذي تراه أنت مناسبًا.

هجَمت عليّ الحيرة فطقطق بشفتيه وأمال رأسه أسفًا كمن يشعرُ بالذنب.

- وجدتني أتسرّع وأقولُ لها أن لا بأس.... ندمتُ في اللحظة نفسها على تسرّعي ولكني عدت وقلت لنفسي: ولماذا يرفض أخونا وحبيبنا هادي الجنزاري ما دامت المسألة لا تتعدى مشوارًا لا يستغرق في السيارة سوى دقائق معدودات؟ وقلت بعد أن أغلقت الخط «أخونا وحبيبنا هادي» لن يفعلها ويحرجني أمام زبونة دائمة للعيادة.

سدّدَ إلي نظرة يتفحص بها ردّة فعلي. قرأت في عينيه أنه يأمرني بالقبول من حيث أراد أن يطلب.... تضاحكت قائلًا «لا بأس» فتفشّت على وجهه المفلطح ابتسامة أبعد ما تكون عن السرور؛ فخلت أني تسرعت بالموافقة فاستدركت بالقول

إني أنما أستجيب لوعدٍ قطَعَه هو لهذه المرأة. هزّ رأسه متفهمًا ثم قال بصوت عميق النبرات كأنما يحدث نفسه.

- إنها زيادة على جمالها الخارق ذات هيمنة ونفوذ.... سيأتيك على يدها السعد.

ثم أشار علي أن أشرب ما تبقّى من كوبي لننهض، فاستجبت على الفور كأنما باتت أعصابي مربوطة بطرف لسانه.

وضعَني أمام منزل عمي قائلا أنه سيتصل بي في وقت لاحق، ورغم أننا خضنا في أحاديث كثيرة بعد أن تركنا الاستراحة؛ فقد أيقنت أن موضوع ذات العباءة هو ما يقصده بالاتصال، وأن ليس إلحاحه علي للقاء اليوم ولا زيارتها لمكتبه كان من باب المصادفة.... تسلّلَ إليَّ القلق حتى أنساني وأنا أدلف إلى البيت وجودَ حسنة وابنتها فيه.

كانت أنوار البيت مطفأة إلا من بصيص خافت يلمع باطراد في الصالة. حين فتحت الباب رأيت أنيسة متسمرةً أمام تلفاز مخنوق الصوت. ظلَّت لفترة لا تحس بوجودي. تنحنحت فقفزت من مكانها مغلقة التلفاز فهبطت علينا عتمة مطبقة سارعتُ إلى تبديدها بأن مضيتُ إلى مفتاح النور أضغطه. سألتها باندهاش عمّا يبقيها ساهرةً على هذه الصورة. قالت

بصفاقةٍ أنها فعلت ذلك كيلا يدركها النوم قبل أن أعود ثم استدركت بإباء.

- لا أحب أن أنام من أول الليل كالأطفال.

حيّرني إصرارها على القول في كل مناسبة أنها لم تعد صغيرة. شرَعت تتطوّح بجذعها ترشقني بنظرة دلال وتداعب ذوائب شعرها. رشقتُها بنظرة حادّة محاذرًا أن تسمع أمها.

- ما زلت طفلة وعليك أن تكوني منذ ساعات في حضن أمك.

أدرك رموشَها وجفونَها الذبول ثم رفعت إليّ عينين منكسرتين وتشنّجت ملامحها منذرةً ببكاء لا ينقطع. حوقلتُ سرًّا وربتُّ لها ظهرها طالبا المغفرة لفظاظتي فما كان منها إلا أن أمالت رأسها وأراحته على صدري مطلقة لدموعها العنان.

شرحتُ لها مُكرهًا أن فظاظتي سببها الإرهاق لا أكثر وأنني أقدّر بقاءها ساهرة في انتظاري. رفَعت رأسها قليلا ونظرت إلي باسمة ثم أمالته كرة أخرى وحطّت به على صدري بهدوء كأنما تقول «هذا سريري». لم يخلّصني منها سوى أمها التي جاءت وخطفتها وفي عينيها اتهام صارخ لي.

هذا الاتهام الذي استمرّ إلى الغد غير أنها ظلَّت طيلة ساعات الصباح تتحاشى النظر أو الجلوس إلي. كنتُ أتحين الفرص

لأناقش معها بروية خططها بعدما تبيّن لي على الأقل أن زوجها لم يكن يملك في الشركة سوى راتبه. طال زوغانها فأخبرت أنيسة برغبتي في التحدث مع أمها. تركتني قفزًا فسمعت في الحال صوت حسنة يهدرُ في غرفتها.

- لا شأن له بنا.... أنني أسد مسد عشرة رجال من مثله.

دهشتُ لهذا الكره المزمن في صدرها. بحثت عن خطأ واحد ارتكبته في حقها فلم أجد إلا وهمها بأنني تسببت في مقتل زوجها الذي ما زالت تعتقد أنه يمتلك نصف الشركة؛ وإلا ظنها بأني سأخطف منها ابنتها وقد نذرَتها لابن أخيها.... لم أطق صبرًا على المكوث مكاني. قمت واقتحمت عليها الحجرة. كانت ما تزال تهدر بصوتها المشروخ فيما أنيسة تحاول عبثًا أن تهدئ من روعها.

امتصَّ شحوبَ وجهها والدموعَ في عينيها طلائعُ الغيظ الفائر في صدري. أكّدت لها بهدوء كاد يخذلني أنَّ ما أريده هو مصلحتها ومصلحة ابنتها، ولم أكدْ أسالها إن كان زوجها شريكًا حقًّا للمحمودي حتى شهقت باستنكار وقد خلتها لن ترد.

- طبعًا.... إننا شركاء ولنا في الشركة النصف.

أخفيتُ عنها أحاسيسي وكل ما قاله المحمودي وما جمعه فلحي مشتاق، وتطوّعت بمرافقتها إلى أي مكان آخر لتقف

بنفسها على الوضع. ألقت علي نظرةً متشككة ودارت عيناها دورةً كاملة قبل أن تقول مكابرة مشاعرَ قد تكون انتابتها هي الأخرى؛ حول وضع زوجها أو ضد ما تعرفه معرفة اليقين.

- بل سأذهب وحدي.

ثم نقلت عينيها بيني وبين أنيسة فصاحت وهي تهب واقفة لتقبض على يدها وتجذبها إليها.

- سأذهب أنا وابنتي.... لن أتركها معك.

أعربتُ لها عن سروري بهذا الحل متجاوزًا تلميحاتها الساذجة. طفقَت تبحث في خزانة ملابسها عمَّا يظهرها في فترة الحداد. ترَكت أنيسة تساعدها بفتور ومضيت إلى الصالة أشعل لفافة إلى أن رأيتها تمرق من أمامي بعصبية قابضة على يد ابنتها؛ التي ظلت تلوي عنقها لتقنعني بأنها مجبرة على الذهاب، وإلّا ما كانت لتتركني وحدي. تبعتها حتى الباب وعرضت على حسنة أن أوصلها بالسيارة إلى الشركة.

توقّفت كمن أصابها مسّ ولفّت جسدها نحوي مادَّةً أصابع ترتعش من فرط التأثر أو ربَّما الكره.

- وجدتَ لك سيارة آخر الدهر يا ابن زكية؟ هات المفاتيح.

عدتُ إلى وسط الصالة. تناولتها من الحافظة وقدّمتها لها باحترام مفرط فسَّرته سخرية منها، ولمّا لم أجد مبررًا لمداراة مشاعرها طلبت منها أن تنتظر لأعطيها أوراق زوجها.... أعطيتها إياها كما أعطيتها النقود التي كانت بحوزته. أغلقَت أوراقه ووقفت طويلا عند النقود تتفحصها وفي عينيها شكّ قتال.... تساءلت غير مصدقة.

- هذه فقط؟

كرّرَت ما قالته فصوَّبَت إلي نظرة اتّهام صريحة ثم خطفت جسدها إلى حيث حافظة أوراقي تحاول أن تفتّشها. اندفعت أخلّصها منها وحين أفلحت في انتزاعها منها توحَّشَت كنمرة لتستردها مني؛ فأشرعت قبضتي أمام وجهها مباشرة.

- اذهبي قبل أن أحطّم رأسك.

كفَّت عن الحركة تمامًا كأنما لم تتوقع ممن صبر هذا الصبر كلّه أن ينفجر فجأة مثل هذا الانفجار. عدّلت من شالها الأسود ومضت بعدما رشقتني بنظرة لم تتجرد من اتهامي بالسطو على مال زوجها.

لم أسمع بعدها صوت محرك السيارة أو صوت باب المرآب يفتح ويغلق؛ فأكّدَت حسنة بذلك رغبتها في أن أعود كما كنتُ وكما يجب أن أكون بلا سيارة.... صفقتُ بعدها الباب بعنف

وقد برزت مشكلة التنقل بما يعنيه من هدر لما تبقّى لدي من نقود لن تكفيني إذا ما قررتُ البقاء إلى أن تنتهي حسنة وابنتهما من تصفية متاعهما المنقول. وحتى لو قررتُ أن أتركهما وأسافر فلن أجد ما يكفي للتذكرة. وجدتُني أدور في حلقة مفرغة ارتطمتُ فيها بحسنة وأنيسة والمحمودي ونيران وفلحي مشتاق.

برَزَت أمي في خاطري ممسكةً بكفيها ألمًا فتذكّرت وعدي لها قبيل السفر بأن أرسل لها ما يكفي لطاقم الأسنان؛ وسد ما اقترضَته من الجيران. وجدتُ بهذا عذرًا للبقاء. هممتُ بمغادرة المنزل ثم تقاعست. دهشت مِن أن يجتاحني الضيق لمجرد خسارتي سيارة استعرتها من خلف ظهور أصحابها؛ فلمَّا ذهبَت وجدتُني عاجزًا عن الحركة وفي غاية الضيق. هل هذا ما كان يعنيه الأستاذ بكري بالسقوط الذي يبدأ بخطوة؟

توجّهت إلى الباب مُحرّضًا نفسي على التحدي غير أني لم أستطع فعدتُ إلى وسط الصالة أدور حول نفسي مهمومًا. فتحتُ التلفاز ثم أغلقته بقرف.

أخرجتُ اللوحة التي رسمتها نيران. وضعتها على ركبتي واعتمدت ذقني بيدي وشرعتُ أتفرج. تدفقت إليّ راحة فريدة. أعدتها إلى الحقيبة وقمتُ أطلب نيران بالهاتف. لم ترد في

المتجر فطلبتها في البيت. أزَّ الجرس مرتين قبل أن ترفع السمّاعة ويتسرب إلي صوتها المبحوح تسأل عمن يطلبها.

لم أكَد ألفظُ اسمها حتى هتفت بفرح «هادي» ووصفتني بالغرابة. سألتها عن السبب. تلكّأت قليلا ثم غيَّرت الموضوع فعدتُ أسألُها عن سبب إطلاقها علي هذا الوصف مؤكدًا أني أعرف الكثير من عيوبي؛ إلا أن أكون غريبَ الأطوار.

صمتت قليلا ثم أوضحت مرغمة.

- تدّعي أنك لا تطيق البعد عني دقيقة ثم تمضي ساعات طويلة فلا تسأل؛ ثم تتصل فجأة أو تأتيني فجأة!

همهمت مُتفهمًا فأردفت ضاحكة.

- صرتُ أتمنى أن تظلَّ مأزومًا حتى تتذكرني.

قلت أني مأزوم فعلًا فأطلقت ضحكة أخرى.

- ألم أقل لك.

ثم سألتني باهتمام عمّا بي فأخبرتها عمّا كان من حسنة وانتزاعها مفاتيح السيارة مني. شهقت مستنكرة.

- وهل تعتبر هذه مشكلة؟ إنك في غاية البطر.

شعرتُ بسخفي حقًّا وسمعتها تعرض علي أن تضع سيارة أخيها تحت تصرفي إن كان هذا يفك أزمتي. تناهبني الإحساس بالسخف وصار همي أن أنهي المكالمة. شكرتها ووضعت السماعة قاطعًا عليها جملة لم تكملها. أز جرس الهاتف بعد برهة قصيرة وجاءني صوت نيران تسألني عمّا إذا كانت قد قالت ما ضايقني. نفيتُ ذلك بطريقة أكدَت فراستها فصمَّمَت على أن تأتي إلي لنخرج سويًّا. تعللت بأعذار واهية فأصرت على المجيء وتساءلت.

- أم تراك تخشى أن تراني ابنة عمك؟

دلّت لهجتها أن ليس هذا سبب رفضي الخروج معها وإنما وضعته أمامي عامدة؛ فطلبتُ منها أن تسرع..... لحظة أن وضعتُ السماعة ندمتُ على أني سأعرّضها مرة أخرى لأن تجالسَ شابًّا مفلسًا ستضطر إلى دفع الحساب عنه؛ هذا إن لم تعد حسنة فجأة وترانا معًا فتقول لابنتها «ألم أقل لك إنه زير نساء؟».

ظللتُ أدور في أرجاء البيت إلى أن اقتحمني نقير متصل. خرجتُ على الفور. كانت نيران ما تزال خلف المقود وحين فتحت الباب تساءَلت إن كان من الواجب أن تقدم التعازي لزوج عمي وابنتها؟ أخبرتها بأنهما خرجتا منذ مدة فسألت بعد تردد.

- وهل أنت وحدك في البيت؟

قلت «نعم» فأبدت شكّها في أن يكون الوقت ملائمًا للخروج. هممت بأن أعرض عليها الدخول ثم عدلت عن ذلك وأنا علي يقين من أن علاقتنا وصلت درجةً من السمو بحيث لن تتوجس خيفةً من هذا العرض، وبالتالي لن ترفض. عرضتُ عليها أن نذهب لزيارة أخيها كاظم. تطلّعت إلي لترى إن كنتُ جادًّا حقا. أومأتُ برأسي مُستدركًا إن كان ذلك لا يسبب لها أي إحراج.

سارعت بالقول أن كاظمًا ستسرّه هذه اللفتة مني. أشارت إلى أن أركب ثم انطلقَت على الفور ربما لتؤكد ما وقر في نفسي من أنها ذات شخصية مستقلة. نظرت إليها أكثر من مرة علّني ألحظ ندمًا ما على تسرّعها فلم أجد غير سرور عميق يُغلّف وجهها؛ وطمأنينة نادرة المثال تصيبها لوجودي. اعترفتُ لها بالراحة الغامرة التي تنتابني كلما التقينا؛ أو لمجرد انتظاري لرؤيتها، فنظرت نحوي من تحت خصلة شعرها التي أخذت تتعمدُ تركَها نافرة.

- هل تداعب غروري أم أنك رسول أمين يحمل صادق المشاعر؟

أكّدتُ لها أني لا أزيّف مشاعري وإلا لكانت اكتشفتهَا على الفور؛ لأن أحدَنا من فرط الالتحام بات مكشوفًا للآخر....

أمّنت على ذلك بهزات متكررة من رأسها قبل أن تغرقَ في التفكير. هتفتُ كالغريق.

- نيران.... إنني لا أطيق البعد عنك لحظة واحدة.

رفعت قدميها عن البنزين حتى خلتها ستتوقف بيد أنها داست البنزين فجأة قائلة بصوت متهدج.

- أرجوك.... لا تتعهد بشيء ربما تندم عليه فيما بعد.

قلت لها إنني أعني ذلك بالحرف، وإنني بتُّ متشوّقًا أكثر لخلق ظروف مواتية تمكنني من خِطبتها والزواج منها. أرخَت قدمَها عن الدوّاسة وتوقفت بالسيارة على جانب الطريق. قالت بصوت عاد يخرج من قعر بئر سحيقة من غير أن تلتفت إلي.

- إنني أرمل وأكبر منك بخمسة أعوام.

ثم صوّبت إلي نظرة جامدة وأردفت ضاغطةً على الحروف.

- أذكّرك بهذا إن كنتَ نسيت.

لمتُها على وضعها العراقيل في طريق سعادتي. هرَبَت بعينيها من النافذة وراحت تضغط شفتها السفلى بعصبيةٍ وشت بأنها تغالب نفسها بصعوبةٍ كيلا تصرخ قائلة «قد قبلت». انبسطَت

ملامحُ وجهها بعد تشنج ثم التفت إلي بهدوء قائلة بجرأة امرأةٍ ناضجة تعرف ما تقول وما تفعل.

- أعترف أنك سببت لي بهذا العرض سعادة لا توصف، ولكن أنصحك بأن تتريث فتدرس الموضوع من جوانبه كافة؛ حتى لا تأتي عليك ساعة وتندم فيها على أنك عرفتني.

- مستحيل.

- في هذه اللحظة أصدقك ولكن من يدري؟ ربما تنقلب مشاعرك باتجاهي رأسًا على عقب حين تجد نفسَك أسير زواج تجدني فيه أمامك طوال الوقت.

قلتُ إن هذا غاية المُنى، فهزّت رأسها متشككة ثم قالت بلهجةٍ أوحت لي أنها استنامت.

- حتى لو التقيتَ بمن هي أصغر وأجمل مني بكثير؟

ورَنَت إلي بنظرة طويلة كأنّما تذكرني بحديث سبق وأفضيت لها فيه عمّن عرفتهن. خلتها تقصد هديل فنفيت أن تكون واحدةً بعينها قد أثارت في نفسي مشاعر الحب والرغبة في الزواج. رقَّت ملامحُها حتى غدَت ستائر تحجبُ عني كلَّ ما حولنا. خلتُ أنها ستعلن قبولَها ولكنها عدّلت من جلستها وغمغمت.

- إني في حيرة حقًّا. قد تكون واقعًا تحت تأثير وقائع ليلة المزرعة، أو انقباضك من زوج عمك وابنته.

نفيتُ ذلك بشدة فحرّكت ناقل السرعة بعصبية قائلة بصرامة.

- كفى أرجوك.... لنؤجل الخوض في هذا الموضوع. هبط علي الصمت صخرةً ثقيلة. أحسّت هي بذلك فقال بلهجة مزروعة بالورد.

- أعطني مهلةً للتفكير.

تململتُ في جلستي وهي تتحرك بسرعة فالتفتَت إلي باسمة.

- أزل هذه التقطيبة التي تجعلك فاتنًا.

ولكزَتني في خاصرتي معاتبة.

- لقد قلت لك إن عرضك هذا يُبهجني.

لم تتزحزح عبوستي ولم أنطق بحرف ردًّا على ما ساقته من مبررات إلى أن بلغنا السجن. ظللتُ قابعًا في مكاني متجهمًا فارتفقت النافذة قائلة وخصلة شعرها تكاد تغطي عيني.

- إن كنتَ غيّرت رأيك فأنا أعفيك من هذه الزيارة.

فتحتُ الباب بعصبية سببت لها مزيدًا من الفرح. سرتُ بجانبها حتى وقفَت تحدث شرطيًّا سمحَ لنا أخيرًا بالدخول.

جلسنَا في غرفة استقبال ضيّقة أثارَ دهانها الأصفر في نفسي مزيدًا من الاكتئاب. جاء شرطي بكاظم وحال رآني هذا غالبَ شحوبَه وإحساسًا قاتلًا بالمرارة.... مدَّ كلتا ذراعيه يحتضنني ويشكر تلطّفي بالحضور. أخبرَته نيران بأني من عرض عليها المجيء فزاد امتنانه ووصفني بابن الحلال.

اختلستُ إلى نيران نظرة معاتبًا على رفضها ما دام أخوها يراني كذلك. نظرت إليّ باسمة كأنما تقول «لقد طلبتُ مهلةً للتفكير ففيمَ الإلحاح؟» ثم أغفلتني وطفقَت تسأله عن أحواله؛ وتزرع في نفسه الثقة والصبر كي يحتمل الشهور المتبقية. دبّت في وجهه حمرة محببة وبدا وهو ينقل عينيه بين وبينها أنه بات أكثر استعدادًا لتحمّل حياة السجن.

غبطتُ لنفسي تفكيرها المفاجئ بزيارة كاظم الذي صار يطلق ضحكات صافية. لم يبد عليه أن فوجئ برؤيتي مع نيران كأنما حدّثته عني طويلا.

حين صرت ونيران في السيارة سألتها إن كانت في لحظة ما قد أخبرت أخاها بما عرضته عليها.... نفت ذلك بإباء.

- لا دخل لأخي برفضي أو قبولي، أو على الأصح بطلبي منك أن تؤجل البتَّ في الموضوع. إذا ما رأيتُ ذلك مناسبًا حقّا سأخبره بقراري من باب العلم بالشيء ليس إلا.

قارنتُ بين لهجتها المزروعة بالثقة عن اقتدار ووعي وبين ما تدّعيه أنيسة؛ مِن أنها غدَت في سن يتيحُ لها اتخاد القرارات. وجدتُ إلّا مجال للمقارنة بين امرأة ناضجة وبين فتاة قليلة التجارب تتوهم أنها باتت كبيرة؛ وعاقلة ومسؤولة عن نفسها وربما عن الآخرين.

تخففتُ لهذه المقارنة ولأحاديثها الرخيّة من ضيقٍ حاصرني منذ عرضتُ عليها فكرة الزواج. تعمّق إحساسي بأني عثرت أخيرًا على المرأة المناسبة فهممتُ أن ألحّ عليها أن تقبلَ؛ لولا خوفي من أن يترسّخ لديها إحساس بأن دافعي هو اللهفة أو الضيق أو الرغبة الآنية البحتة. أحببتُ لو نظلُّ سائرين هكذا إلى الأبد، ولكن وجدتُ نفسي مضطرًا للعودة إلى البيت لأرى حسنة وما فعلت.

أعلنتُ لنيران عن ذلك ولساني يقيده الكثير من البؤس. بدا لي سلوكها وأنا أترجل بأنها مضطرة اضطرارًا لأن تحسبَ حركاتها وسكناتها؛ كيلا أعتقد من عفويّتها ومن إقبالها على أنها تدفعني عامدةً إلى مزيد من الحب. مع هذا لم تستطع إلا أن تكونَ في غاية الرقة من حيث أرادت إظهار الجدية

والصرامة؛ فأشفقتُ عليها من هذه الازدواجية التي وجَدَت نفسها غارقةً في بحرها من جرّاء عرضي عليها الزواج.

عالجتُ مقبض الباب فلم يفتح. توهّمتُ أن حسنةً وابنتها لم تعودا بعد. دسستُ المفتاح في القفل فارتطم بمفتاح في الداخل. طرقتُ الباب بعصبية فسمعتُ خطوات أنيسة قادمة هرولة. فتَحت لي وإذ رأت تجهّمي قالت معتذرة:

- ربما نسيت أمي المفتاح في القفل.

همهمتُ بضحكة مغلولة وإذ توسطتُ الصالة تنبّهت لوجود حسنة وقد تكوّمت على نفسها معتمدةً ذقنها بيدها، تمرحُ على وجهها خيبة أمل قتّالة. أدركتُ أنها وجدت في الشركة ما لا يوافق أوهامها. رغم شماتتي بها شعرتُ نحوها بالإشفاق. طرحتُ عليها السلام فلم ترد، ثم أولتني ظهرها وزامت في موضعها قبل أن تنهض وتغيب في الداخل. نظرتُ إلى الباب فتأكدت أكثر من أنها أقفلته عامدةً متعمّدة متمنّيةً ألا أعود؛ كيلا أراها على هذي الحال. كانت أنيسة مشغولة بإدخال الأزرار في عرى قميص آخر غير الذي خرجَت به.

كانت على العكس من أمّها ينضح في وجهها السعادة. سألتها عمّا حدث فقالت إن المحمودي استقبلهما بغاية الترحاب وأسقاهما شايًا وقهوة وشرابًا باردًا قبل أن يُطلعهما على دفاتر

وسجلات الشركة؛ مؤكّدًا أنه صاحبها الوحيد، وأنه أبدى أسفه لما حدث وأعطى أمّها راتب الشهر الأخير، وقبل أن تغادرا منحها هي مبلغًا آخر من المال قائلًا إنه يفعل ذلك تكريمًا لها إذ شرّفته في مكتبه.... كانت قد انتهت من إدخال الزر في العروة مُغفلةً الزر ما قبلَ العلوي لتظهرَ منابت النهدين.

تذكرتُ ليلة المزرعة فصار دمي يغلي ويفور إذ صوّبت إلي نظرة زهو تعني أنها باتت محط أنظار الرجال. تمالكتُ نفسي كيلا ألطمها وصرخت.

- لماذا ذهبتِ إلى المحمودي؟ لماذا؟

اعتراها الوجوم لتحوّل حالي من الرقة إلى الغضب. قلّبت يديها تعبيرًا عن عدم الفهم فوددتُ لو ألطمها. ظلتُ أرميها بنظرات حارقة وأشرت عليها أن تغلقَ فتحة صدرها؛ ثم حذرتها صارخًا من الذهاب إلى المحمودي كرة أخرى. هزّت رأسها وقد تفشّت في وجهها ابتسامة فرح إذ ظنّت أخيرًا أنني أغار عليها غيرةً باعثها الحب لا محالة؛ ثم أخبَرتني أن المحمودي أخبرها أن هناك رسالة لي.... هدأتُ فجأة ووددتُ أسألها ممن تكون ولكن أمّها برزت معلنةً بشماتة.

- لعلمك سأبيع الأثاث والسيارة فابحث لك من الآن على فندق آخر ترتمي فيه.

ألقت رصاصتها هذه وسحبت ابنتها واختفت لتتركني أفصفصُ عظام القهر. لقد توقّعت هذا حقا ولكني لم أجد التوقيت، ولا تخيلت الأسلوب. أكتشفُ الآن وحسب رغم ما بدَرَ من هذه المرأة أنني كنتُ عاجزًا عن تخيل ما تختزنه في صدرها من أحقاد. اجتاحني الغيظ فلم يعد لدي شك في أنني سأكون بلا كرامة حقّا لو ظللتُ في هذا البيت دقيقة واحدة بعد الآن؛ لمجرد وهم خاطئ يُقضي بأن سعيد الجنزاري عمي، وأن هذه المرأة زوجه، وأن تلك الفتاة الساذجة ابنته....

أحسستُ بتجرعي العلقم نزولًا عند هذا الوهم الكاذب بأننا أقارب وأنني أحاول قدر استطاعتي القيام بالواجب.

باتت كل دقيقة أمكثها في هذا البيت منشارًا يفرم أعصابي؛ فقمت من فوري أجمع ملابسي المتناثرة وأدسها في الحقيبة. أقفلتها أخيرًا ثم حملتها وخرجتُ محاذرًا أن يشعر بي أحد سيما أنيسة.

لحظة أن وضعتُ قدمي على الرصيف منتظرًا سيارة أجرة هجمت عليّ الرغبة في أن أمضي إلى المطار. أطلّت مشكلة النقود برأسها محذرة. ما تبقي معي لا يكفي لصرف تذكرة. خطر لي أن أعود برًّا. لم أجد الوقت من النهار مناسبًا كما عزَّ علي أن أتخلص من تهديد المحمودي؛ لتأتي حسنة آخر الأمر وتحكم علي أن أعودَ مطرودًا.

برزت مشكلة أين عساي أقيم مدة تكفي للبحث عن عمل آخر غير ما عرضه المحمودي علي؛ أقبض منه راتب شهر أو شهرين ثم أولي الأدبار.... إقامتي في فندق تعني أنني سأخرج يدي من جيبي بيضاء من غير قرش واحد بعد يومين اثنين.

وجدتني آخر الأمر داخل سيارة أجرة يكرر سائقها السؤال بضيق أين أريد الذهاب. تعاورتني حيرة مدمرة تخلّصتُ منها مؤقتا بالقول.

- إلى المشفى الحكومي يا سيد الأسياد.

كان جرجس عبراني يهم بمغادرة المشفى حين توقّفت السيارة في الباحة؛ فيما شمس العصر لم تخلع عنها سعيرها. كأن مطأطئ الرأس يمشي بتثاقل كالكهل. لم يبد أنه رآني وأنا أرفعُ له يدي. ناديته بحلق جاف فتوقف يتلفت حوله مأخوذًا.... أبصَرني فمشى نحوي غير متخلص من خطاه الثقيلة كأنما نسي مَن قيَّده أن يفك الأصفاد. مشيتُ نحوه وإذ اقتربت لم يخفَ عليّ تجهمه. سألته بعد ما تركتُ يده الباردة إن كان خالد زهران موجودًا. رفعَ عينين نديَّتَينِ ثم هرب بنظراته بعيدًا، وسأل بصوت تخنقة العبرات.

- ألم تدرِ ما حدث؟

تضاعفت ضربات قلبي وأنا أطقطق بشفتي نفيًا، فقال بصوتٍ مشروح يناقض نبرته الصافية.

- لقد سافر هذا الصباح.... جاءه في الليل نعي أهله.

حوقلتُ مبديًا أسفي فشعرتُ في اللحظة نفسها بأن إبداء الأسف في غاية التفاهة؛ سميا بعد أن قال جرجس متهكمًا بمرارة.

- في اليداية يهدم الصهاينة بيته فلا يتأذى أحد أو يصاب، ثم يأتي الجبناء فيدمرونه ويقتلون من فيه.

ثم تنهّد وألقى عليّ نظرة مباشرة كمن اكتشفَ وجودي هذه اللحظة وحسب. سألني باهتمام ينافي ما كان عليه قبل لحظات كأنّما بات الموت في أرض الموت مسألة عادية.

- أراكَ تحمل حقيبتك؟ هل أنت مزمع على الرحيل؟

كدت أقول نعم تدفعُني الحماسة لما سمعت لولا تذكرت أني مجبر على البقاء، فتطامنتُ برأسي إحساسًا بالمذلة والتشتت والهوان. مدّ جرجس يده ورفع ذقني يتفحصني وقال بلهجة أخوية.

- إن كنتَ تريد خالدًا في أمر هام فأنا سدّاد.

ضرب على صدره بحماسة شجّعتني على إخباره بما حدث معي فقال بأريحية:

- لمّ كل هذا الحرج؟ بسيطة. تسكنُ معي.

هززتُ رأسي بشدة فلامني بلهجته المميزة.

- ولو يا أستاذ هادي! ما فيها شيء.

واستدرك بسرعة كمن تذكّر شيئًا مهما.

- إذا كنتَ مُحرجًا فاسكن في بيت خالد. معي مفاتيح البيت.

بينتُ له أن خالد زهران صاحبي حقّا وإنني أميل إليه أكثر من أي إنسان آخر في هذه الديار، ولكن هذا لا يجوز... أطلق ضحكةً مبتسرة.

- حسبتك تعرف خالد زهران أكثر من هذا.

ثم وضع يده على كتفي وأخرج المفاتيح من جيبه. صلصل بهما مُشجعا.

- على كلّ الأحوال أنت ستخدم صديقَك وتخدمني فلا أجد نفسي مضطرًا إلى الذهاب صبحًا ومساءً إلى بيته.

نظرتُ إليه مستوضحًا فأردف.

- تعتني بأحواض السمك فأنت تعرف كم يعشقها، وإذا ما عاد ووجد الأسماك ميتة فسيركبه همٌ كبير.

قلبت يدي مندهشًا.

- بعد كل ما حدث.

- ما حدث كان متوقعًا في كل لحظة وليس معنى هذا أن نكون مطايا للحزن حتى آخر الدهر.

وبعد لحظة صمت استطرد بمرارة.

- الحياة هذه ما صارت هجينة لا الموت.

وإذ أحسَّ أنه اقتحم حصون المعارضة كلها حملَ يدي ثم بسطها وألقى المفاتيح قائلا بلهجة حازمة.

- سأوصلك إلى بيت خالد زهران.

(5)

أمضيتُ يومين مُنقطعًا عن العالم الخارج والناس إلا من زيارات قصيرة كان يقوم بها جرجس عيراني؛ يطمئن في البدء على الأسماك ثم يجلس إليّ متنقلا من حديث إلى آخر. أجاريه أحيانا ثم أغرق في الصمت الذي أعشقه أكثر من الثرثرة فينهض مستذنًا لأشيّعه إلى الباب وأغرق في الصمت والوحدة من جديد. لم تخرجني منهما، ربما لأني وجدت نفسي مرة أخرى بين أكداس مكدّسة في شتّى أنواع المعرفة، وربما لإحساسي بأن الوقت غير ملائم للقراءة.

كنتُ أنتقل من كتاب إلى آخر ومن مجلة إلى أخرى بسرعة لم تتح لي غير الإلمام بجانب يسير من الموضوع. وبينما كنتُ أتصفح الكتب المكدسة على الطاولة عثرت على دفتر ذي غلاف أزرق متوسط الحجم.... فررتُ صفحاتِه على عجل فكانت مكتوبة بخطء رديء أحيانا تصعب قراءته، وحينا بخط واضح وأنيق ولكن في الحالتين يظهر أن كاتبها شخص واحد لم يكن غير خالد زهران؛ رغم أنه تركه مُجرّدًا من الاسم ولم

يثبت على الصفحة الأولى غير أنها خواطر بلهاء في زمن رديء بدأها قبل ثلاث سنين.

ولأن صفحات الدفتر غير مكتملة أدركتُ أن بين الخاطرة والخاطرة زمن غير قصير. بينما كانت كل صفحة مُقسمة إلى فقرات قصيرة تفصل بينها أشكال هندسية عشوائية؛ ربما يفتعلها خالد زهران بعد انتهائه من خاطرة ما أو قبيل كتابتها.... فررتُ الصفحات أغالبُ الفضول إلى أن غلبني فقرأت:

«فترة الخصوبة في حياتي لم تأتِ بعد وأظنها لن تأتي. لا أستطيع أن أنسى وجه أبي المعفّر بالحنين. لم ينسَ هذا العجوز أنه ابن ترشيحا وأنه خُلِع من رحمها قسرًا. أصابتني العدوى. لا أقول إنني لا أريدها ولكن ما تسبّبه لي من لذّة يعقبها دائما ألمٌ فظيع كما يتقاطر الذباب على جثة نتنة، أو على قطعة حلوى في أفضل تشبيه؛ أمرٌ لا يُطاق».

«سألني جرجس عبراني إن كنتُ سمعتُ بالشيخ. قلت إني سمعت عن ثرائه الفاحش ورخصه المقيت. قال: إذن اسمع. لقد عاد لتوّه من بلاد الضباب حاملا مهرة أسماها عزيزة، دفع فيها أربعة ملايين. سألته غير مندهش عن نوع لعملة التي دُفعت بها! سكت للحظة واجمًا ثم قال: لقد أذهلني الرقم فلم أفكر بنوع العملة. قلت: أهكذا؟ وضحكنا حتى البكاء».

«دفعتُ ما يترتبُ عليّ للمجهود الحربي وتبرعتُ بمبلغٍ آخر من راتبي. لماذا أسميه تبرّعًا؟ إنه واجب أتلكّأ عن جدواه ولكني أدفع المطلوب وزيادة عني كلَّ مرة فأرتاح»

«حتى تلكم الساعة لم أعرف اسمها. كلُّ ما كنتُ أعرفه أنها المريضة وأنا الطبيب.... قلت: لقد وقعت أخيرا يا خالد يا زهران على مَن تنعش وحدتك وترطّب أيامك..... ولكن حين عرفتُ اسمها كانت تحزمُ حقائبها فلم تنتظر الطائرةُ كي أبثَّها الأشواق. هذا الطائر المعدني العملاق لا يعرف بالطبع ما هي الأشواق! ».

«قرأت ذات مرة من إن المستقبل للشعوب. قرأت ذلك مرات ومرات. أعتقد أن أمثال هؤلاء المنظّرين والمتفائلين على أحسن تقدير لم يعرفوا الشعوب العربية، أو أنهم عرفوها فاستثنوها».

«فكّرت هذا الصباح في ابتياع فيديو. لعنتُ نفسي وكدت أضع إصبعي في عيني. فهل ينقص العرب العاربة مغفلٌ آخر؟».

«جُرحتُ هذا اليوم بالمشرط. لم أشعر بالألم بادئ الأمر ولم أرَ الدم. تخيلت لو أنه حزّ عنقي وتساءلت إن كان يمكنني بعدها أن أرتاح».

وقفَ لهذه الفقرة شعر رأسي وسارت تموّجات رهيبة في سائر البدن. أغلقت الدفتر. تراخت يداي عنه فسقط على الطاولة ثم على الأرض. بدأت أشعر بأني مضغوط داخل قفص حديدي؛ فطفقتُ أدور في أرجاء البيت، توقفتُ عند أحواض السمك ولمّا رأيتُ حركتها المضربة تلبّسني الإحساس بأني مضغوط داخل قفص.

مضيت إلى الهاتف مزمعًا الاتصال بنيران بعد أن عزفتُ عن ذلك مدة يومين؛ علّها تكتشف أن حاجتها إلي كحاجتي إليها إن لم تكن أكثر. عدلتُ عن ذلك آخر لحظةٍ واتصلت ببيت عمي لأرى أنيسة وأمّها ما زالتا هنا. جاءني صوت أنيسة فأغلقت الخط على الفور. تذكّرت ما قالته بشأن الرسالة. دهشتُ لأني لم أتصل بالمحمودي.... قال مَن ردَّ علي بأن المحمودي سافر إلى باريس لأمر طارئ هذا الصباح. سألته إن كان قد ترك رسالة باسم هادي الجنزاري، فهتفَ الرجل باسمي مسرورا فعرفتُ فيه صوت شعبان.

- أستاذ هادي! يا مرحبا.... أنا شعبان.

أدركتُ من إقباله عليّ هذا الإقبال الحار أن المحمودي سافر وهو راض عني؛ إن لم يكن من أجل فلحي مشتاق فمن أجل أنيسة التي شرّفت مكتبه على حدِّ قوله فأعطاها قدرًا آخر من المال. عدتُ أسأل شعبان عن الرسالة فقال لا علم له بها،

ولكنه سيبحث عنها ثم نبّهني إلى ضرورة الاتصال بفلحي مشتاق لأنّه اتصل ببيت عمي مرارًا ثم اتصل موظفه سائلا عني متعكر المزاج، وأوصى أن يتصل به من يراني أو يسمع عني أيما خبر. همهمتُ متفهمًا ثم رجوتُه أن يبحث لي عن الرسالة. صمت للحظة وحين نطق مبديًا استعداده كان صوته يقطر دهشةً إذ أبدو مهتمًا برسالة بعدما عرفتُ أن شخصًا في منزلة فلحي مشتاق يريدني. كرّرَ استعداده للبحث فطلبت منه أن يتصل برقم خالد زهران. خلته يشيرُ بإصبعه إلى عينيه بالتناوب وهو يقول:

- من عينيَّ يا بيك.

ثم سألني إن كنتُ أرغب في الانتظار بجانب الهاتف إلى أن يبحث؛ فقلت ألّا داعي فإنني لن أغادر البيت الآن على الأقل. مع هذا انتظرَ إلى أن بادرت بإغلاق الخط فأزَّ الجرس بعد فترة وجيزة ليخبرني أنه لم يعثر عليها، فأيقنت مع الوقت الضيق الفاصل بين المكالمتين أنه لم يتحمل عناء البحث بل لم يغادر موضعه من جانب الهاتف.

تركتُ يدي على السماعة حيث وضعتها مترددًا في الاتصال بفلحي مشتاق، فاتصاله ببيت عمي لا بد أنه عرّاني تمامًا. ربما ردت حسنة وقالت إني حملت حقيبتي وذهبت في ستين داهية، وحتى لو ردّت أنيسة فإن سذاجتها ستدفعها إلى إخباره

بأن أمها طردتني. بهذا سأكون أمامه مكشوفًا تمامًا، ولن يقوى شخصٌ هذه حالُه على أن يجالسه بغير أن يكون منزوع النفس، مبلّلَ الخاطر تتقاذفه رياحُ الحاجة والضعف.

كانت يدي ما تزال على السماعة حين أزَّ الجرس. رفعتها أُعلنُ عن وجودي فانبثق صوت فلحي مشتاق يلومني بطريقة أقرب إلى الزجر على اختفائي؛ مما يسبب له حرجًا مع الناس الذين تعهدتُ له بلقائهم حين يباشر بترتيب اللقاء. لم تعن طريقته هذه مع الدخول مباشرة إلى صلب الموضوع إلا تخلّصًا من حرج يكابده؛ وإلّا خطة محبوكة كي يدفعني إلى الاعتذار بشدة والقول كما يشتهي.

- أنا بأمرك.... مسافة الطريق وأكون عندك.... هل أنت في العيادة أم البيت؟

- في البيت...

ثم أردف بصرامة.

- لا.... ليس الآن.... أردتُ أن أتأكد من وجودك. سأتصل بك في وقت لاحق هذا اليوم. لا تترك الهاتف.

ثم دفعني بأسلوبه الخاص إلى أن أنهي المكالمة فهجستُ بأن هذا اليوم أيضًا سيشهدني رهينة جدران مسقوفة بانتظار

المكالمة التالية من فلحي. نقمت على شعبان الذي لا بد قد سارع إلى إخباره برقم الهاتف قائلا إنه في خدمة الناس الطيبين.

لم أعد أطيق صبرًا على إغفالي نيران عامدًا. أدرتُ رقمها في المتجر. ردّت على الفور وما إن سمعت صوتي حتى قالت محنقة.

- إن كنتَ تعتقد أنك بهذه الطريقة ستدفعني إلى الارتماء على قدميك فأنت مخطئ.

وشت رنة صوتها بأنها كانت تنتظرُ على جمر، وأنها تؤكد ما نفته. كدتُ أهتف بأني سأوافيها في الحال لولا انتباهي إلى كوني مضطرًا للبقاء بانتظار أوامر فلحي مشتاق. قلت بمرارة.

- إنك أنتِ من تضطّهدُني عامدةً مُتعمّدة.

- سبق لي وأن قلت لك أن عرضك يغريني، ولكني لم أتعود النظر إلى الأمور من جانبها المغري وحسب.

قلت باسيتاء:

- ليتك تمنحين عقلك إجازة ولو ليوم واحد.

أحسستُ بالندم لهذا الإلحاح وظروفي تمضي من سيء إلى أسوأ فسررت إذ قالت بحزم.

- لقد اتفقنا على أن نعطي أنفسنا مهلة معقولة للتفكير، ولذا يجب أن يكون العقل شاهد إثبات في كل الأوقات.

ثم غيّرت الموضوع فجأة بقولها إنها اعتقدت لبعض الوقت أني سافرت. أسهبتُ في إخبارها بما حدث. خلتها ستشهق استنكارًا ولكنها ضحكت ولما سألتها عمّا يضحكها، قال بسرعة.

- ألم أقل لك إنك غريب الأطوار أحيانا؟ ما زلتَ مطحونًا بظروف صعبة وتفكر بالزواج.

تهافتت ضحكتُها وعادت إلى صوتها بنبرتها الجادة مشروخةِ الأسى تعربُ عن ثقتها باجتيازي هذه الظروف سالمًا معافى. طال الحديث بيننا وغدا صوتها مُثقلا بغنّته المحببة فلم أعد أدري من منا يتلقف الآخر؛ كلما همَّ بإغلاق الخط فأظننا أغلقناه معًا في النهاية.

عاد منشار الوقت يفرمُ أعصابي. تلهّيت بتصفح أكثر من كتاب ومجلة ثم وقعت عيناي على دفتر خالد زهران. التقطته بحرص وبدأت أقرأ دونما اعتبار لترتيب الصفحات غير المرقّمة أصلا.

«أحلمُ دائمًا بجواز سفر مُعتبر. الوثيقة التي أحملها رغم مكانتها عندي أشبه بامرأة قام عنها رجل وقد ظنَّت أنهما في خلوة؛ وإذ بها تتفاجأ أنها في في الشارع العام. هذا ما ينتابني كلما كنتُ أسافر، وكلما اضطررتُ إلى الانتقال بين العواصم... عواصم العالم التي أشتهي أن أمرَّ بها مرور المفلس من سوق الصاغة. أكثرها حكمَ على شعبي أنه غير موجود وانتهى الأمر، وهذا ما يجعلني أكره هذه العواصم أكثر».

«ها أنا أعود لتوي من هناك. المخيّم خليّة نحل هائج. يتمنى أن يضع العسل في عيون الشمع ولكنّ حرّاس الغابة ما زالوا يشعلون النيران. الرصاص يئز أزيزًا غير منتظم ولكن أجمل ما في هذا الوضع أن الشوارع باتت تستيقظ بعد نوم طويل».

«عباءتها لم تخدعني بادئ الأمر. خدعتني براءة تغلّف وجهها حين كشفت عنه. ولما كشَف عن صدرها قائلة «من هنا ينبع الوجع» وَرَدَتنِي أولُ طلقة تحذير من صوتها المفعم بالرغبة. مع هذا وضعت السماعة فوق الثياب، وحين مدّت يدها من تحت فستانها الشفاف لتدلّني على مكمن الألم قلت لها: تعالي يا سيدتي أدلّك على من له خبرة كبيرة في هذه الحالات. وقد سُرّ فلحي مشتاق سرورًا عظيمًا لهذه الهدية. ما أزعجَني ظنّه أني هادنته آخر الأمر».

«قبرص ليست الجزيرة الوحيدة في المتوسط. لبنان أيضًا جزيرة ولكن أكثر القراصنة نعومة أولئك الذين يثنون الآن عندما يتوجع وقد يأتي مقتل هذا القطر منهم؛ فهم يدّعون أنهم عرب ولكن ما لا يستطيعون إخفاءه ذلك القلق من حرّيته المشوشة ومن احتضانه ممن لم يناموا على جراح الصحراء، ومن هنا كان تلّ الزعتر».

«تنتشرُ المزارع في هذه الصحراء. وادي الروّاح مليء بالمزارع. لم أرها إلا من الخارج. تعجّبت من وجودها لأول مرة فقال مَن كان معي إن ترابها أحمر مستورد، وفيها الآف مؤلفة من الباشكار. قلت هذا شيء طيب أن تستصلح الصحراء. ضحك جرجس عبراني من غفلتي وقال إنها لاستصلاح الخمر والنساء. عندها زال العجب. تذكرت مستوطنات الصهاينة في الجليل والجولان وعموم فلسطين».

«الشباب وقود الثورة. بعض من واجبي هنا أن أقرع النواقيس، فمن توسّمت فيه الصلابة والوعي نذرته حين يشب النفير. هناك الكثيرون ولكن يستهويني من يستعصي على الحريق والاحتراق».

«الشيخ كان فرحًا للغاية والشاشة الفضيّة تظهره ضيفًا على الملكة. أسأل نفسي إن كان الطعام ألذ تحت الضباب؛ فالسرور ظلّ ينزّ من ملامحه حتى بعدما أعلنت المضيفة أن بلفور

أعظم الساسة على الإطلاق. تعجّبتُ كيف يزدرد الطعام بعد كل ما سمع. ثم تذكرت أنه حاكم بأمره فبدا لي أنه من العجب أن أتعجّب».

«هناك من يقول أن اليوم عيد. عرفت ذلك من الإعلام والحلوى المنعوفة على الأرصفة. سألت نفسي لم أنتِ حزينة يا نفسي واليوم عيد؟ قالت: إن عيدي لم يأتِ بعد».

«جرجس عبراني لا يعنيني اسمه ولكني أفكر فيه أحيانا كلما ادّعى ملوك الطوائف أن ما يجري له أوثق الصلات بالدين. جرجس نفسه يسخر من ذلك مدفوعا بتجاربه، وأنا بطبعي ووعيي لا أعترف».

«جُعِلت فداها تلك المرأة. كانت بزيّها الرملاوي تمشي في الشارع وكأن من حولها عشرة رجال مدججين بالسلاح. غالبت نفسي فغلبتني. تقدّمت منها وقلت: من؟....».

اقتحمني رنين الهاتف. ضممتُ أوراق خالد إلى صدري وفلحي مشتاق يطلب إلي بلهجةٍ آمرة أن أسرع إليه بالتو. لم يترك لي فرصة الكلام. قال إنه ينتظرني في العيادة ويتنبأ بأني جاهز للخروج. أكّدت له ذلك فقال: عظيم.... ارتديت ملابسي على عجل وخرجت.

وكأنما كانت سيارة الأجرة بانتظاري. وضعتني بعد عشر دقائق من الطيران أمام عيادته. لدهشي استقبلني ببرود وكذلك حين صافحني وحين أشار عليّ أن أجلس. وقر في نفسي أن هذه الحالة تصيبه بين فترة وأخرى، أو في فترات منتظمة لا خلاص منها، ولولا أنه عاد إلى حديث سبق له أن خاض فيه حول مجرد كونه واسطة خير كانت وظيفته أن ينقل رغبة المرأة بأمانة ويوصلها بأمانة. ما عدا ذلك فهو لا يعرفُ سببًا لتلك الرغبة.

بدا لي من محاولاته المتكررة التنصّل من أي مسؤولية تترتب على هذا اللقاء، رغم ما يخفيه عامدًا متعمدًا عمّا يعرفه تمام المعرفة؛ ربما لإحساسه بأن ذلك لا يرضيني. شعرَ بأن الشكوك بدأت تساورني فتلوّن صوته بنغمة تهديد إذا ما فكرت بالتراجع من غير أن يتخلى عن ادّعائه بأنه إنما يقف في منطقة وسط بيني وبين تلك المرأة، أو أنه لا يقف على الإطلاق فيبقي بذلك على صورة أرادَ لها أن ترسخ في ذهني.... صورة خطوطها الرئيسة أنه رجل فوق الشبهات.

بدأتُ أدرك أن ما استقبلني به من برود وعدم اكتراث ليس دورة تنتابه عشوائيًّا أو بانتظام؛ وأن نغمة التهديد المفعم بها صوته تقصَّدها كي يقطع عليّ خط الرجعة خاصة بعدما علم أني طردت من بيت عمي، وأني منزوٍ في بيت صديق بانتظار الفرج. تنبّهتُ على صوته ناصحًا:

- المهم أن تعرف متى وكيف تضع قدميك على طريق المستقبل العامر بالرخاء.

ولمستُ نبرة أسى تقطر من صوته وهو لا يكف عن إدارة الخاتم في إصبعه، ويخبرني كيف وجد نفسه في طفولته وصباه بين خمسة أخوة هو أكبرهم! وكيف كانوا يتخاطفون الخبز بغير انتظار أو سؤال عن الإدام! وكيف بعدما توفي أبوه وجد نفسه وجهًا لوجه أمام أخوة ضعاء بحاجة لرعاية! وكيف أن أمّه لم يبق أمامها إلا أن تبيع نفسها كيلا يترك الجامعة! أبدى شكوكه في أنها لم تفعل ذلك حقّا.

- حتى الآن لا أعرف من أين كانت تأتي بالنقود التي ترسلها. لا أعرف ولم أسألها لأعرف.

ثم تسرّب إلى صوته الزهو حين انتقل إلى الحديث عن تمكّنه من تغيير واقع الأسرة، وكيف نجح في ذلك أكثر حين ترك الوظيفة والاعتماد على الراتب ليتفرغ لأعماله الحرة. حين قال «الأعمال» تعمّد أن تخرج بنكهة مغايرة ليوحي بأن هذه العيادة ليست إلا جزءًا يسيرًا منها. أحسستُ بأني أجلس على حزمة من الشوك. نهضت ففسر نهوضي استعجالا فقال: هيا ما دمت على عجلة من أمرك.

كان الليلُ قد استراح على المدينة منذ ساعتين فتصدّت له مرغمة بأنوارٍ كادت أن تكون كشّافات لملعب رياضي؛ تتيه خيلاءَ لسطوعها وحضورها في وقت ينبئ بانكسار سيف الحر نوعا ما.

- تفضّل أيها الإمبراطور.

اعتصبتُ ضحكةً تشنّج لها فكاي. استطرد بنبرة لا تخلو من حسد.

- وسامتك تنصّبك إمبراطورًا على الأباطرة كلهم.

ولما آنستُ منه مرحًا تخففت من مخاوفي فاستدرت نحو مرتكزًا بمرفقي على مسند السيارة.

- هل تصدق يا دكتور أنني أكره هذه الوسامة؟

رفعَ حاجبيه الكثيفين مُستنكرًا أو غير مُصدق.

- تكرهها؟ تكره الطُعْمَ الذي يستهوي الأسماك الملوّنة؟ شيء غريب.

ثم استطرد زاجرًا.

- تكره وسامتك مع إنها مطلوبة بإفراط حتى إنها تباع في السوق السوداء؟

وشرع يدندن بأغنية حب أجنبية فأدركتُ أنها إشارة إلى أنه لا يصدق، فلم أجد مخرجًا من ارتباكي أفضل من مشاركته بدندنة توافق اللحن إلى أن رأيته يطوّح المدينة من خلف ظهره. سألته إلى يذهب فصاح من حلقه على طريقة مغني الأوبرا:

- تو ذي براديز.

تلفتّ حولي فحدستُ أنه يسير في الطريق الذي سلكته وصالح المحمودي إلى المزرعة. طالعتنا أشجار باسقة ربما تستخدم كمصدات رياح لما داخل الأسوار العالية من مبانٍ وأشجار مثمرة؛ فلم يعد لدي شك في أننا في طريقنا إلى مزرعة من تلك المزارع المنعوفة في وادي الروّاح.

عبرَ بوابةً فور عودتي من شرودي وتوقّف أخيرًا أمام مبنى من طابقين. لمحت قبل أن يطفئ المحركَ والأنوارَ سيارةً من نوع جي أم سي قابعةً أمام المبنى. حين هبطنا من السيارة كان المبنى غارقًا في الظلمة إلا من لمعان النجوم في سماء صافية؛ وإلا من نور خافت ينز من نافذة مواربة في الطابق العلوي.

لم ينطق بكلمة واحدة وهو يمسك بيدي ويجوس في الظلمة إلى أن توقّف أمام باب لا يكاد يبين. مدّ يده أو خلته يمدها فأز

جرس في الداخل أزيزًا مخنوقًا تبعه صمت مطبق خشخشت له أعصابي. فُتِح البابُ بعد برهة لم أجدْها قصيرة ورأيتُ على الضوء الأحمر الكابي عند المدخل امرأة دلّت نظرتي الأولى إلى أنها أجنبيّة في نحو الأربعين.

سمعتُ فلحي مشتاق يقول « جود ايفننج» فترد عليه بلكنة أجنبية عريقة قبل أن تتقدمنا بخطوات رشيقة متسلقة الدرج العريض. لكزني مُشيرًا إلى أن أتبعها فمضيت من خلفها إلى أن توقفَت أمام باب خشبي يبدو كاتمًا للصوت. فتحتهُ وتنحَّت جانبًا فتنحيتُ بدوري لأتيح لفلحي أن يدخل قبلي من باب الاحترام والرهبة. لم أجد أثرًا له فخفق قلبي باضطراب لولا ابتسامة ظهرت على ثغر الخادمة في الوقت المناسب تشجعني على الدخول.

رمقتُها بنظرة متوجسة فرأيت على ضوء مصباح معلق فوق الباب أنها لا ينقصها الثقة بما تفعل أو ينقصها الجمال. أشارت بيدها مُشجّعة أن أدخل ففعلت وأنا أجد صعوبة في ابتلاع ريقي أو في سؤالها عن فلحي وأين ذهب؟! أُغلِقَ البابُ من بعدي بنعومة ووجدت نفسي وحيدًا وسط ديوان فسيح يغطي أرضيته سجاد عجمي، وفرش وثير، وطنافس نضدت أرضًا، وفي أقصاه سرير عريض تعلوه من جهة الحائط المغطى بالستائر مرآة كبيرة اقتربت منها وألقيتُ نظرةً على وجهي فكان ممتقعًا شديد الاصفرار.

وإذ تجرّأت ولمستُ السرير وقر في نفسي أن لم يستلقِ عليه أحد قط. هجستُ بأنه للزينة ومن باب استكمال الديكور المُفعم بالفخامة ورهافة الذوق. تلفّت حولي أتملّى من مخايلِ الثراء وإذ تخيّلت المكان المنعزل والعتمة في الخارج وما يحيط بي من مظاهر غموض ليس آخرها اختفاء فلحي؛ اجتاحتني رغبة بالهرب.... نفّضتها على الفور بأن حاولت التوجه نحو الباب. اكتشفت أن ساقي قد دبَّ فيهما الوهن، فهبطت بلا إرادة على السرير فتوزّع عنه نشيش منغّم كأنما له نوابض وهذه من الأوتار. حضرتني وقائع تلك الليلة التي ساقني إليها المحمودي. تساءلت بلا رغبة أكيدة في المعرفة إن كنتُ مساقًا هذه الليلة أيضًا إلى مثلها.

مع مرور الوقت أخذ الهدوء يتقاطر إلي. استطعت أخيرًا أن أنهض وأتمشى في الديوان الفسيح مطلقًا صغيرًا منغّما وشت ارتعاشته بأني لم أغادر منطقة الرهبة. شعرتُ بالباب يفتح وتدلف مه الخادمة بشعر أصفر عقصَته للتو على قمة رأسها في لمة واحدة، وبين يديها صينية صفراء من الذهب الخالص عليها كأس بيضاء مغطّاة بقطعة مستديرة من القماش. وهناك بجانب الكأس طبق متوسط الحجم مملوء حتى الحافة بالفستق الحلبي الذي أكلتُ منه في حياتي حبّات أستطيع عدّها، ولكن هذه المرة قابل حلقي منظره بالجفاف ليغدو ابنًا غير شرعي لهذه الصحراء المترامية.

وضَعت الصينية على سطح خزانة صغيرة بجانب السرير وانحنت أمامي قائلةً بلغتها: «تفضل اشرب». ثم خرجت كما دخلت بنعومة لم أملك إلا أن أغبطها عليها. جلست على طرف السرير مُستعذبًا نشيشه أتفرّس في حبّات الفستق. نزّت النداوة في حلقي فتناولت واحدة. تفرّست في شقها ثم وسّعتُ بأناة ما بين طرفيها فقفز اللب بين ساقي وطار شغافها الرقيق. تهادى ثم غاب في وبر السجاد. دسستها في فمي فخفَّت نحوها أضراسي مُرحّبةً قبل أن تفتك بها طحنًا وهرسًا. أتبعتها بواحدة أخرى فأخرى حتى إذا عادت المرأة لم تفلح في إخفاء دهشتها وهي تشير إلى أشلاء القشور؛ وإلى الكأسِ بالتناوب.

- هبطَ عليّ الخجل ولم أجد بدًّا من الاعتراف بأني ضعيف للغاية أمامَ هذه الصنف علاوة على أني لا أشرب.

رفعت حاجبها وفي عينيها نظرة ذعر.

- ولكن هذه يا حبيبي لا يجوز.

غمغمتُ بضحكة منتوفة الريش وسألتها متصنّعًا الانطلاق والمرح.

- ولماذا لا يجوز؟ كل شيء يجوز يا حبيبتي.

رفعت كتفيها وأشارت بيدها إشارات مبهمة كأنما لتناسق بين حركاتها هذه وبين واعتراضاتها، ثمّ قدّمت لي مَنامةً ومضت خارجة. كانت من الحرير الخالص مزروعة بوجوه لرجال تنضح عيونها وأفواهها المفتوحة بالشبق، وتحت كل صورة كتبت عبارة بالعربية تناقض هذه الملامح الأجنبية وهي تتمنى للابسها نومًا مريحا هنيئًا. أغاظتني كثرة الوجوه وملمسها الناعم، بعدَ أن أغاظتني الكلمات التي لم تُسعفني كي أشرح لها أنها ولا بد حملت المنامة إلى الشخص الخاطئ، طوّحت بها حتى رأيتها تسقط على حافة السرير القصيّة، ولأمر ما قمتُ أتفقد ملابسي. أسوّيها وأشد الحزام من حول خصري حتى خلت عرى البنطال تتمزق من كثرة الشد؛ متعجِّبًا من هذا اللبس.

سمعتُ صريرًا ناعمًا لمزلاج باب أو نافذة تفتح. نظرت إلى الباب الذي دخلتُ منه فكان مُغلقًا. لمحتُ فجوة في الجدار المقابل للسرير تفضي إلى ردهة أخرى. تعلّقت عيناي بالفجوة الواسعة مندهشًا من أني لم أر بابا هناك وأنا أتفحص الديوان. مضيت لأتفحصها عن قرب فرأيت في اللحظة نفسها عباءة سوداء تسد الفراغ. ظلّت لبرهة هناك قبل أن تستدير وتغلق الباب فتعيده جزءًا من الجدار قبل أن تستدير ببطء كلولب لا يجزم الناظر أين مبدؤه ومنتهاه، ولا من أين تتوالد حركته المنتظمة! تحرّكت نحوي ولأن العباءات لا تمشي وحدها

قلت: «هذه مضيفتي». تحولتُ إلى عيون مزروعة بالفضول بدءًا من الفتحة الصغيرة فوق الأنف، وكلما اقتربت بدفع ميكانيكي لا يظهر فيه أي تأثير لساقين أو قدمين. ملأت عيناها الشهلاوان مجال الرؤية والرؤيا وصار همي أن تعود أدراجها لتعود إلي أنفاسي الهاربة.

وقفَت أمامي مباشرة ورأسها يكاد لقوامها الفارع الملتف أن يوازي رأسي. صوّبَت إليَّ عينيها مشرعة الرموش كالرماح عن كثب ثم أسبلَتهما فكان إسبالهما أكثر إيذاء في حالة الإرخاء.... تقتلُ عامدة وفي الالتفات المباشر تنشغل بإحصاء ما وقع في كنهِ القلب من سهامه الرائشة. لم تكن بحاجة لأن أخبرها بأني بت مُخدّرًا تمامًا لسبب أبعد ما يكون عمّا يفوح من أردانها من عطر وخمر لم أتنشقها إلا بعد زمن لا أدري مداده؛ كما لم أعد أدري إن كنتُ أرغبُ حقّا في أن تسفر عن وجه تتولى قيادته عينان جمرتان. خلتُ من فرط الخدر أني لم أسمعها تقول بصوت له ملمس السّتانِ المجدولة بالحرير.

ـ تأخرتُ عليك؟

قالتها بصيغة سؤال تعرف إجابته. لم يسعفني حلقي الجاف فأومأت برأسي إيماءة أثقلها العتاب. دارت عيناها على وجهي فراشتين، وتحركت يداها الممسكتان حتى اللحظة بطرف العباءة عند الوجه حركة محسوبة كأنما يتحكم فيهما نابض

رخي؛ يتخذ مركزه في العينين المصوّبتين إليّ من غير أن يَطرف منهما جفن أو رمش. أخذ طرفا العباءة ينحسران عن وجهها بالتدريج بَدْءًا من منطقة الأنف مشرّع العرنين؛ والمسحوب بعناية كأنما رسم رسمًا ليشكّل مع العينين منطقة الإثارة القصوى. هذا ما ظننته حين كفّت يداها عن الحركة وإذ واصلتا بعد برهة تنكّرَهما المدروس للعباءة؛ أعلنت وجنتاها والشفتان النافرتان عند الوسط أن حركتهما البطيئة في الكشف مردُّها لرغبة في أن أتملّى من معالم وجه بديع التكوين؛ حين يكون كل معلمٍ منه مفصولا عن البقية الباقية. وربما فعلت ذلك ليقينها بأن أعصابي أضعف من أن تحتمل وهج هذا الجمال دفعةً واحدة، فأشفقَت عليّ إذ آثرت أن تسفرَ عنه بالتقسيط.

وجدتني بلا إرادة أهوى على السرير تسكن عيني وملامحي دهشةُ وذهول. لم أستطع تحديد تلك البؤرة التي تبرغ منها أقمار كانت حين التقيتها أول مرة مجرد هلال. هتفَ قلبي المضطرم بأن فلحي مشتاق قد أخطأ القصد حتما فيما عناه بأنها امرأة ذات سطوة ونفوذ. لمَحتُ على غبشةِ الذهول في عينيها نظرةً مباهية مفادها «تماسك.... فلم تر شيئًا بعد» ثم ما لبثت المباهاة أن تحوّلت إلى زجر على ظني بأني رأيت كل مخزونها من الفتنة والجمال. وسّعَت من فجوة العباءة كاشفةً عن نحرٍ أبيض مشرّبٍ بحمرة أخّاذة فأعطت بذلك الوجه

مجاله الحيوي كي يتحرك لألاؤهُ بلا قيود. تلبثت قليلا تتلذذ بضعفي وانبهاري، وبحركة مدّربة لا أدري كيف ومتى كانت انزلقت العباءة عن الرأس والكتفين وجثمت على قدمي قطة هدّها النعاس أو الشبق.

ركلَت العباءةَ بإصبعها الكبيرة فترجّلت من على كتفها وظهرها غابة من شعرها الفاحم. تسلّقتُ بعينيّ قدميها ليتصدى لي ساقان ملفوفتان ينحسرُ عنهما فستان أزرق إلى ما فوق الركبتين؛ أخفقَ في إخفاء فخذين مجدولتين وخصر ضامر وصدر ناهد ثمرتاه فوّارتان بالحركة كلما أطبق صمت وسكون. مدّت نحوي ذراعين عاريتين تنتهي بأصابع طويلة مبرومة أظافرها بلون ليلكي. وجدتني أنهض بليونة حتى صرت أمامها وجهًا لوجه تهب علي أنفاسها المثقلة بالعطر والخمر.

ضغَطَت يدي ضغطات خفيفة فلم أجد القوة اللازمة كي أبادلها ضغطًا بضغط. تركتني واقفًا وبرمَت جسَدها لا أدري كيف واستقرّت جالسة. حسبتُ أنها ما زالت قابضة على يدي ولكن حين رأيتها تمد يديها نحوي تساءلت أن من أين وكان يأتيني هذا الملمس الناعم وهذا الخدر. مددتُ يدي فسحبتني نحوها تجلسني فغاظني من السرير نشيش لم أسمعه حين استقرت عليه.

تفرّستُ فيها لأرى إن كانت امرأة أم أنها دفقات نسيم. انسحبت شفتاها المنفرجتان أصلا وأخلتا الطريق أمام ابتسامة وضيئة وثنايا تراجعت مخلّفة خطّين أزرقين لامعين فخلتُ أن أسنانها هذه نحت أصلا من الفيروز. أومأت بأهدابها إلى الكأس وهي تبحر في وجهي.

- أراك لم تكمل.

هززتُ كتفي فزمّت شفتيها الحمراوين وحين أطلقت سراحهما تركت خطّا ملوّنًا وسط شفتيها العليا؛ كأن هذه سماء غائمة وذاك الخط قوس قزح.

- إذن أنت من النوع الذي تسكره الكأس الأولى؟!

سقطَ صوتها ثريُّ النبرة على مفاصلي رخاتٍ من النشوة. انعطفتُ نحوها فألقت بجذعها إلى الخلف كأنما تلقّت دفعة من يد مجهولة. انضغط فخذاها بفعل التقائهما حافة السرير وصار نهداها أكَمَتين وصارت الحلمتان حبتيّ فستق حلبي. أشفقتُ عليهما أن يشتققا بفعل وضعهما المريح للغاية وبفعل صحبةٍ نشأت بين يدها ويدي راحتا تتجولان على الصدر وراحت تقول: «من هنا ينبع الوجع».

تذكرت ما قاله خالد زهران عن تلك المرأة المحجبة قبل أن يدفعها إلى فلحي مشتاق. طارد ذهني هذا الخاطر بضراوة

وانحنيتُ أقبّلها على مجامع الشفتين. رفَعَت يدها فهوت شفتاي على ظاهر كفّها وغاصت في مخمل ناعم. عادت إلى الجلوس وما بين استلقائها وجلوسها أقل من انتباهة العين. حررتُ يدي واستقرت أصابعها على الزر العلوي من قميصي متسائلةً باندهاش.

- ما زلتَ في ملابسك؟!

تلفَّتَت حولَها وفي عينيها نظرة انزعاج فأشارت إلى المنامة ملقاة هناك وكان صوتي ما زال في إجازته المفتوحة. رنت بجيدها إلى حيث أشير وقامت نصف قومةٍ ربما لستعرض ردفيها العظيميتن. تناولَت المنامةَ وألقتها على كتفها فقمتُ استجابة فورية لنظرة من عينيها أتخلص من ملابسي.

نهضت تعزف بأصابعها على صدري العاري وكلّما رنت إلي انتشرت من عينيها طيورُ الرضا تلتقط بمناقيرها ما تبقى لدي من وعي. هويتُ بكلتا ذراعي أطوّق خصرها فيما شفتاها المنفرجتان كانتا هدف الإنزال. خفقَت بذراعيها فألفيتُ ذراعي تسقطان إلى جانبي فيما تشكّلت على وجهها ناصعُ البياض ألوان الطيف. ألبستني المنامة فلم أعد أرى ما عليها من وجوه. دسّت أصابعها اليمنى في أصابعي اليسرى وخاصرتي باليد الأخرى؛ حائمةً بي كفراشة في أرجاء الديوان الفسيح. جاريتُها بخطى منتظمة وأنا الذي لم أرقص قط. ألفيتُني بعد

دقائق عاريًا من المنامة وهي أيضًا عارية. لم أدرِ متى كان ذلك أو كيف! حملتها بين ذراعي ووضعتها على السرير برفق.

وظل السرير يعزف نشيشًا مُنغّمًا ثم خلته يتنهد معها وأنا أستلقي بجانبها أحاصرها بابتسامة امتنان ظلت تتصدى لي بمثلها. سألتني فجأة وهي ترفع خصلات شعري المتهدلة على الجبين والوجنتين؛ ثم لتعاود بعثرتها كيفما اتفق:

- مبسوط؟

أغمضتُ عيني أو أغمضتهما النشوة فقبّلتني على النقرة الصغيرة أسفل الذقن.

- إذن أطمع منك في جولة أخرى، إن لم تكن جولات.

نترتُ جسدي على الفور حتى استندت على مرفقي. التقطتُ شفتيها مُدركًا أن لماذا أصابني الوهن في حضرة عوزة. دحرجَت جسَدها العاري ثم مرقَت لا أدري كيف من تحت إبطي وقامت ترتدي قمصيها الشفاف.

- سنتعشى أولا.

وثبتُ نحوها قائلًا لأول مرة أنني غير جائع وأنَّ ما بي من جوع إليها فحسب. فركت أنفي ضاحكةً فغنّى لضحكتها كنار على أفنان القلب.

- سنرى حين أطعمك بيدي.

ولم أدرِ ما فعلت حتى نقرَ الباب ودخلت الخادمة مندفعةً إلى السرير ترتّبه! ولم أدر كيف فتح الباب الجانبي لأجد نفسي جالسًا وهي بجانبي؛ وأمامنَا منضدة عريضة مثقلة بأنواع الطعام والشراب! أحسستُ من ليونة الحركات والسكنات في هذا البيت أن صاحبته يكفيها النظر كي تتشكل أطيافُ الفعل. مع هذا بدأت أشعرُ بوجودي وأني أنفردُ بامرأة تتوهج في عروقها الدماء.

لم أرها تأكل. يداها كانت مشغولتان بانتقاء ما تتوقع أني أحبه، وأحيانا تطعمني بيديها فابتهلها فرصة كي أعض أصابع العنّاب. بدا لي أن تناولَ الطعام لم يكن إلا فرصة مواتية للحديث بعد أن كان انشغالها بي قد ألهاها أو شغلها عني. لم تدرِ أو كانت تدري أن صوتها غابة من سيقان ونهود. ملتُ نحوها أكثر من مرة ألثمها بفم ممتلئ. كانت تدفعني في كل مرة ضاحكة فيشب في جسدي سعيرٌ تحاول أن تكسر حدّته بكأس مترعة ترفعها إلى شفتي ثم إلى شفتيها على فترات فأعبُّ جرعاتٍ أخذَت تطول بالتدريج.

كانت تتحدث ببؤس أحيانا وبشماتةٍ في كثير من الأحيان عن لؤم الرجال، وعن بؤس المرأة حين تجد نفسها مُكبّلة في شراك رجل لا يقدّرها حق قدرها أو يحترم مشاعرها.... تساءلَت فجأة.

- ماذا تتوقع من امرأة يخونها زوجها باستمرار؟

قلّبت يدي وأنا أزدردُ ما في فمي.

- لم أفكر في الخيانة إن كانت من رجل أو امرأة.

لم تكن حتى اللحظة قد خرجت عن طورها، أو ارتفعت طبقة صوتها أكثر من اللازم.... رأيتها تضربُ المنضدةَ بقبضتها وتزعق محتدّة.

- ولكني أرغب حين نكون في الفراش أن تتذكر أنني امرأة تخون زوجًا تافهًا يحسب نفسَه مهمًّا وذا نفوذ. أنا أيضًا يحلو لي أن أتذكر ذلك.

قلت لا لأهدِّئَ من روعها وإنّما ما تقول يدغدغُ عواطفي ويجعل من الزوج غايةً في التفاهةِ حقّا؛ حين لا يضع هذا الجمال وهذه الفتنة في حوض زجاجي ليجثو أمامه ويتأمل طوال الوقت.

- لم يفت الأوان لأتذكر هذا، فالليلُ أمامنا طويل.

أعلَنَت عن سرورها بأن رفعَت الكأس، اسقتني ثم شربت من حيث وضعت شفتي، ثم انعطفت نحوي وهوت على شفتي في قبلةٍ جائعة حتى احترتُ كيف لا تتفتّتُ هاتان الشفتان من شدة الضغط. ارتعشَت يداها على وجهي قائلة وهي تلهث.

- سنستحم أولا.

حاولت أن أثنيها عن عزمها بتطويقها فزاغت بليونة وركضت من أمامي ضاحكة فلم أدرِ ما الذي يجعل ردفيها يقفزان؟ ركضها أم ضحكتها النشوى! تبعتُّها حتى وجدتها مستلقية داخل حوض كبير مليء بالماء حين دخلته كان دافئًا تطفو عليه فقاعات شفافة آسرة. ففَعَل الماء فعله واستلقينا متعانقين تتراقص الفقاقيع من حولنا. سألتني وهي ترشني بالماء.

- ماذا تنوي أن تشتغل؟

فاجأني السؤال ولهجتها الدالة أنها تعرف عني كل شيء. لعنتُ فلحي الذي لم يترك قطعًا شاردةً أو واردةً عرفها عني إلّا اخبرها بها. هززتُ كتفي مُستنكرًا تذكيرها إياي بأني لستُ في الجنة. قالت بما يعني أن سؤالها لم ينطلق من فراغ.

- لا تشغل نفسك بعد اليوم في البحث عن عمل.

حّدقت إليها مُستوضحًا فقرأت على ملامحها أنها ستكون شغلي الشاغل. هجستُ في نفسي: «إن هذا غاية المنى». ولمّا زعمتُ أنني كنتُ مزمعًا على الرحيل على أقرب طائرة جمعت شفتي بين السبابة والإبهام متوعدةً بدلال.

- إياك أن تفعلها وإلّا قتلتك.

عضضتُ إبهامَها فأطلَقت صرخةً مغناجًا أشعلت فتيل الصبر، فلم أنتظر حتى نغادر الحوض فيما الماء ينش من حولنا كأنه الغناء.

شرعت تجففي ثم أسلمت لي جسدها أجففه فارتطمت يداي أكثر من مرة بهضابها العالية، فكانت تتلوى وحين حاولتُ أن أجذبها إلى فرَّت هاربة فلحقتُ بها إلى غرفة الطعام.

كانت الأطباق مكانها. حاولت أن تدس في فمي قرنًا من الموز، أشحتُ بوجهي بطرًا فغرست طرفه بين شفتيها وقربت الطرف الآخر من فمي فصرنا نقضمه رويدًا رويدًا؛ حتى التقت شفاهنا في قبلة ظامئة كأنها الأولى. دافعتني قائلة.

- نشربُ أولًا.

واحتكّت بي وهي تمضي إلى زجاجة وكأس فلم أقتنع بأن الوقت قد حان بعد. طوّقتُها من الخلف فتركت جسدها يتلوى

بين ذراعي ثم انزلَقت محاولةً الهرب فانزلقتُ معها؛ حتى إذا أدركتها على الأرض أخذت تتدحرجُ بجسدها العبل إلى أن استقرّت تحت المائدة. مدّت لسانَها لظنها أنها احتمت مني. هبطتُ نحوها دون تفكير إن كان المكان يتسع لاثنين وحين صرت وإياها تحت المائدة وحَّدَتنا حرارةُ الدماء فلهثت قائلة.

- هذه أول مرة أفعلها هنا.

لم أقف طويلا عند تلميحها بأني لستُ الأول. حاصرتُ شفتيها مغمغمًا.

- طقوسك التي رأيتها الليلة رائعة، ولكن لا بأس من التجديد.

جذبتني إليها بقوة حتى خلت عظامي تتكسر، واستحثتني مرارًا على تذكر أنها امرأة متزوجة من رجل تافه. وطَفقنا نزوم على موج اللهاث ثم انتقلنا متخاصِرين إلى الديوان برفقة الزجاجة والكأس؛ فاستقبلنا السرير المرتب فاتحًا ذراعيه لمعركة جديدة ستدور وقائعُها عليه.

(6)

كان لهاثُها ما زال يرنّ في أذني حين استيقظت، وإذ أفلحتُ في فتح عيوني اكتشفتُ أن الساعة تجاوزت العاشرة نهارًا وأنني ملقى على سرير خالد زهران. أغفلت رأسي المحشو بالرصاص وكذا أطرافي المتراخية وتساءلت أن متى وكيف رجعت؟! حسبتُ لأول وهلة أنني كنتُ غارقًا في حلم. استعدتُ تفاصيل الحلم والواقع. تذكّرت أن تلك المرأة قد قالت أن اسمها جوهرة، وأني سألتها إن كان هذا هو اسمها الحقيقي أم أنه لاستكمال مواصفات جمالها الخلّاق؟ أكّدت ضاحكة أنه اسمها إلا إذا كان هادي الجنزاري هو اسمي الحركي.

ضحكنا معًا وأعطتني رزمة كبيرة من المال قائلة إنها عشرة آلاف، ورجتني ألّا أشغل نفسي بعد الآن بقلة النقود، ثم طلبت إصبعي ودسّت فيها خاتمًا حين يرتد عنه البصر يصيبه العشى. قلت إنه واقع وتحسستُ جيوبي فخرجَت يدي برزمة من أوراق لامعة، ولمعَ في إصبعي خاتم يشبه إلى حد كبير خاتم فلحي مشتاق فلم أشك بأنه هو.

أخرجتهُ من إصبعي أتملى من بريقه الأخّاذ ومن عبارة نُقشت في الداخل «ذكرى ليلة لا تُنسى». تأكّدت أن ليس حلمًا ما كنتُ فيه ولكن حيّرني حقًّا متى وكيف غادرت لألقى في بيت خالد زهران المفتقر للأثاث الفاخر فأتنفس الكتب وأحواض السمك. تذكرت السمك فهممتُ بالنهوض فاستسخفت الفكرة برمتها. مكثت أتمطّى في السرير تعتصرني نشوة عارمة أشعر أنها لم تكتمل بعد.

تضوّعَت رائحةُ النقود ولمعَ الخاتمُ فقلت لا بد أن أرى جوهرة. قفزتُ إلى الهاتف. أدرتُ القرص وحين رد فلحي عليَّ بحذر انهلتُ عليه بالشكر والعرفان. أطلق ضحكة وشت بأنه كان يختزنها إذا ما راقني اللقاء. سألته بإلحاح أن يرتب لي لقاء آخر سريعًا مع جوهرة. نفى أن يكون اسمها جوهرة. ولمّا أكدت له أنها أخبرتني بنفسها زاد استغرابه.

- ولمَ لا؟ فكل شيء جائز.

ثم غبط نفسه قبل أن يغبطني.

- هذا دليلٌ فذ على أنها راضية عنك.

عدت ألحّ عليه أن يأخذني إليها فأبدى أسفه، ولما كررتُ الإلحاح والرجاء هدرَ صوته موبّخًا.

- يا أستاذ أنتَ لا يحق لك أن تطلب هذا.... هي فقط حين تريدك.... أعني حين تسمح ظروفها تطلبك.

صمت للحظة ثم أتبعها ب«مفهوم» فأحسستُ بعرق ينز من جبيني، ولكن لدهشتي جفّ سريعًا وهو الذي كان في حالات أدنى من هذه يُغرقني ساعات حتى أخمصي؛ لا يجففه إلا ردٌّ شافٍ يريحني ويسحقُ الخصم. دهشتُ من أني لم أغضب بل ازددتُ تهافتًا راجيًا من فلحي مشتاق أن يغفر لي إن كنتُ جاوزت حدّي، أو أسأت الأدب. قال بلهجة متعالية.

- لا بأس.... لا بأس.

ثم بلهجة تقصّد ألا تكون اعتذارًا.

- ما أردتُ قوله: عليكَ ألا تُظهِرَ اللهفةَ وإلا سقطتَ من عينيها كغيرك للأبد.... فتخسر الكثير.

ضغطتُ رزمةَ النقود فتضوّعت عنها رائحة مميزة دفعتني وملمسُها الباذخ إلى الصراخ.

- لا.... لا أريد أن أسقط.

قال مرة أخرى «لا بأس» ثم أغلق الخط بلا سابق إنذار. لم أكترث إذ رحت أعبُّ النظرات من النقود ومن خاتم حدستُ

أنه غالي الثمن. ثم مضيت إلى المرآة أمنّي النفسَ بلقاءات أخرى أكثر إثارة تورثُ الجسدَ ونفسي هذا الخدر.

طالعني وجه ممتقع تفترشه خطوط قانية ورضوض زرقاء لا تتركها غير أسنان وأظافر فجزمت بأن هذا حدث بعد السكر. انثال في صدري السرور وأكاليل الظفر؛ فهتفتُ رافعًا يدي «لقد انتصرتُ وها هي خارطة المعركة الفاصلة على وجهي وأطرافي». لوّحت بالرزمة والخاتم صارخًا «وها هي ذي الغنائم».

عدتُ إلى السرير أكثر تفاؤلا بلقاء جوهرة مرة أخرى ومرات. تناولتُ رزمة النقود فتجسّدت أمي أمامي على الفور تمسكُ بفكيها ألمًا. انتعشَت ذاكرتي المخدّرة فقلت: إنها بحاجة إلى طاقم أسنان. هممتُ بأن أستل من الرزمة ما يكفل لها التخلص من الألم.

جمدت يداي إذ تذكرت ما ينتظرني من مصروفات أولها ابتياع ملابس تليق بمن سيلاقي جوهرة؛ فانطفأ انتعاشُ الذاكرة وعادت زكيّة لتجلسَ في زاويتها المعهودة تتحسس فكيها وترفو الثياب. أعدتُ النقود إلى جيبي واستلقيت على السرير وأظنني عفوتُ وأنا أحلم أنني مع جوهرة في يخت باذخ، بينما فلحي مشتاق يغمز لنا مشجّعًا من غرفة القبطان.

تركتُ السرير وقد تركني ما استوطن رأسي من رصاص. غسلتُ وجهي فلدغني الماء البارد نوعا ما والصابون. غليتُ شايّا وأشعلت لفافة امتص منها بشرهٍ؛ وكلما ارتشفتُ من الكوب رشفةً تنزلت في حلقي كالحنظل. تخيلت جوهرة تسقيني من كأس مترعة كلما انتهيت ملأَتها فأصابني القرف من مشروب كالشاي؛ ليس له نكهة أو لذغة تتركها شفتا جوهرة على الكأس، أو تتركها الخمر.

أزحتُ الكوب جانبًا. قمتُ أذرع المكان بضيق واضطراب. تعجبت أكثر من مرة كيف ركبتني السذاجة حين صحبني المحمودي إلى المزرعة فتركتُ تلك العربة المتخمة بألوان الخمر، وكيف تركتُ عوزة أسيرة اللهفة؟ تذكرت أني مثلها إذ خرجتُ من ليلة واحدة بعشرة آلاف. كدتُ أصعق لهذا الخاطر ثم تضوّع في صدري الزهو لأنَّ جوهرة الفاتنة دفعت لي راضية ربما استكمالا لتوقها أن تخرج عن المألوف.

شعرتُ بالاختناق وأنا أطوف في أرجاء البيت بلا هدف إلى أن ساقتني قدماي إلى المكتبة. تصفّحت مجموعة من الكتب بقرف ثم وقعت عيناي على دفتر خلد زهران فتناولته ببرود ورحت أقلب صفحاته وأقرأ بغير حماسة وكيفما اتفق.

«قال جرجس عبراني بعد إجازة قضى بعضها في باريس: ليتك كنت معي لترى أثرياء العروبة كيف يتهافتون على

الروليت والخمر والنساء، وكلّما فتكت بهم استجاروا من الرمضاء بالنار. ولم أكن بحاجةٍ إلى أن يخبرني جرجس أن مقتلنا بين الأفخاذ».

«أشعرُ أحيانًا بأني إنما أحرثُ في صخر. الشباب الذين أعوّل ويعوّل عليهم الوطن الجريح يتعرضون لهجمة شرسة من حياة الرفاه؛ وغول المظاهر والاستهلاك تبدأ بسيارةٍ وحافظة مفاتيح».

«زارني والدي. لأول مرة يزورني. بعد أن أخذته في جولة واسعة بالسيارة لم يكن مسرورًا. ظل يُعلنُ أن هذه البلاد بعيدة عن فلسطين. قلت له: ليست العبرة في البعد يا رجل يا طيب؛ فأمريكا أكثر بُعدًا عن دولة الصهاينة ولكنها أقرب إليها من حبل الوريد».

«مَن تُراها سترضى برجل في صدره كومة من الحجارة أثقل بكثير من أعوامه الخمسة والثلاثين. أبي وأمي وأخوتي ومعارفي الذين ليس أوّلهم أو آخرهم جرجس عبراني يرون غير هذه الرأي. لا يعترفون أو لا يودون الاعتراف بأن من الصعب على شخص مثلي لم يذق طعم الطفولة والصبا والشباب؛ أن يكف عن إحساسه بأنه ليس عجوزًا متهدّمًا في الستين».

«هذا أول يوم لي في المشفى الحكومي. قابلتُ مديرَه الذي كانوا يسمونه بفلحي مشتاق. حاول الرجل أن يمنحني إحساسًا بأنه مريح، ولكن لأمر ما لم أرتح له، وهذه ليست عادتي دائمًا.... أن حكم على الناس من النظرة الأولى».

«سألتُ الطفل مجد بن عمران وقد أثارني من قبل بمشيته المتثاقلة على الشاطئ إن كان يعرف مسقط رأسه! قال وقد أدهشه السؤال: مِن فلسطين. أنت تعرف.... وطفقَ يُحدثني عنها ناسيًا أنني أعرف، فأدركتُ لحظتها أن لماذا أغتالُ تشاؤمي بعض الأحيان».

«تسلّمتُ إيصالا كالعادة بأني دفعتُ مبلغًا من راتبي للمجهود الحربي. كالعادة أحسستُ بالارتياح رغم أني أحيانًا أسأل نفسي عن جدوى البندقية بين غابات القصب».

«كلما سافرت واضطررتُ إلى إبراز وثيقة السفر؛ ألقت عيون شرطة الحدود والموانئ عليّ نظرة توجّس، وألقتني في قفص الاتّهام. أعرف عندها من أين جاءت مأساة شعبي ومن أين تجيء!».

«لو لم تُوجد إسرائيل لأوجَدها العرب. هذه المقولة قرأتها أو سمعتها. أصدّقها الآن أكثر من أي وقتٍ مضى فحكمُ الأفراد

بحاجة دائمًا إلى مشجب يعلق عليها هؤلاء أسباب التعسّف والظلم؛ وتكميم الأفواه عن المطالبة بالحرّيات».

«اليوم فقط عرفتُ لمَ لمْ أرتح لرؤية فلحي مشتاق من النظرة الأولى. لم يكفه ما وصلني من رذاذ سمعته السيئة. جاءني إلى مكتبي على غير العادة وصاح متكلفًا المرح «ابشر يا دكتور خالد، لقد فُتحت لك ليلة القدر». قلت له «يا ساتر استر». تجاوز عن سخريتي اللاذعة ومال نحوي على المكتب «أتذكر تلك المرأة التي طردتَها من مكتبك وسقتها إلي». هززتُ رأسي متوجّسًا فمال أكثر وملامحه تتفسخُ من فرط الصفاقة والخزي « إنها تحب أن تراك». لم أطق تفاهته فأرشدته إلى الباب».

طويتُ الدفتر وقد تشكّلت على ثغري ابتسامة ساخرة. قلت في نفسي: «بدأ خالد زهران يطعمُ نفسه جوزًا فارغًا» أغراني هذا الإحساس بمتابعة الفقرات.

«لا بد أن أزور البحر مرة كل أسبوع على الأقل، فهكذا أنا أحب أعرف كم أنا تافه وصغير».

«لا يدهشني ما تتلقاه الثورة من طعنات في الوجه والقفا؛ فتاريخنا غنيٌّ بالشراك ينصبها العجزةُ والحاقدون على

الرجال الأفذاذ. مِن هنا كانت نهايات الكثيرين ممن حملوا على أكتافهم غبارَ المعارك، وصهيلَ الجياد ونشوةَ الفرح».

«قمتُ من النوم فزعًا هذا الصباح. يحدث لي أحيانًا فقد عشِقَتني الكوابيس. كنتُ أنتشل أبي من بئر فنجا هو وغرقتُ أنا. أحسستُ لدى استيقاظي ببطني ممتلئة بالماء. قمتُ وبلت».

«التقيتُ عند الضحى شابًا لم يختزل موت عمه شيئًا من وسامته المفرطة. أدركتُ من ثيابه أنه رجل حقيقي لا تهزه العواطف. ارتحت لمرآه كثيرًا وحين قال إنه من يافا غنّى كنارٌ بعيد. ومع هذا لم أعانقه».

صفنتُ قليلًا وهتفتُ فرِحًا «هذا أنا» وشرعتُ أفرُّ الصفحات بحثًا عمّا يخصني فوجدت في الصفحة قبل الأخيرة.

«يلمّح ابن بلدي هادي الجنزاري كلّما التقينا إلى أفضال فلحي مشتاق عليه. لم يصدق بعد حرفًا واحدًا مما قلته له عن هذا الثعلب. يبدو غريبًا وطيّبًا أكثر بكثير مما تصورت. يسؤوني أكثر أن أجلد نفسي عاجزًا عن مدِّ يد العون كيلا تدفعه الحاجة إلى الوهم بأن الذئب إنما يبتسم حين يرى أنيابه بارزة».

«مسكينٌ هذا الجنزاري الذي يدور كالفراشةِ حول النارِ مرةً، وخيوط العنكبوت مراتٍ ومرات، غيرَ مقتنعٍ البتة أن تحرّكاته

تزيد من فرصِ الصياد لتثبيته في شباكه... حذّرته بيد أنه أحمق أكثر مما كنت أظن».

طوّحتُ بالدفتر حتى ارتطم بالسقف وهوى أرضًا. صرختُ «هذا هراء». أحسستُ بالاختناق ولمّا شعَّ الدفء في جيبي القابضة على النقود صممتُ على ألّا أظل في هذا البيت دقيقة واحدة. لملمتُ ملابسي وحشرتُها داخل الحقيبة ثم هرعتُ إلى الهاتف واتصلت بفلحي مشتاق مُصمّمًا على أن أخبره بما يقوله خالد هذا عنه.

عدلت عن ذلك في آخر لحظة وزعمت أني أتصل لأخبره بأني مغادر إلى فندق محترم، وأني سأتصل به من هناك ليجدني بسهولة حين يريدني. غمغم بغير حماسة أن نعم وأغلق الخط. حملتُ الحقيبة واتجهت إلى باب الخروج مرورًا بغرفة الأسماك التي قررتُ أن لا أطعمها قائلًا بشماتة «هذا أفضل».

أوقفتُ سيارة أجرة وعرجتُ على المشفى. ألقيتُ المفاتيح في يد جرجس عبراني. أبدى اندهاشه من حركتي هذه وربما من الكدمات على وجهي.

- لا تُدهش... فرأي صاحبك فيّ ألعن من ذلك، ثم إنه صار معي نقود.

أخرجتُ الرزمة.... لوّحت بها تحت أنفه. زال اندهاشه حقّا ولكن لتحلَّ في عينيه نظرةُ إشفاق؛ فلم يعد لدي شك في أن خالد زهران قد حدّثه طويلا عن علاقتي بفلحي مشتاق. هززتُ كتفي بعدم اكتراث وأوليته ظهري مغمغمًا.

- إنه نسخة من خالد زهران وكلاهما يحسدني.

(7)

اخترتُ جناحًا فسيحًا في فندق ضخم بخمسة نجوم يُطلّ على البحر. لم أدقق كثيرًا فيما إذا كان الجناح كذلك بل إنني فضلتُ أن يكون في الجهة المعاكسة. في البداية رفض موظف الاستقبال أن يعطيني غرفة واحدة، ولما ثبتَ له أني بلا خبرات أو تجارب هنا شرح لي بضيق أن هذا الفندق والفنادق التي أراها لا ينزل فيها إلا ذوو المال والجاه؛ وكذلك الأجانب من غير العرب. قلتُ له مُصعّرًا خدي أن معي المال الكافي، وألقيتُ بالرزمة على الحاجز الرخامي بيننا. لمسها بطرف إصبعه غير مبال فتحوّلت في عيني إلى نشارة خشب. تنبّه الرجل إلى الخاتم في إصبعي.... مدَّ يده. تناول يدي وراح يتفحصه باهتمام. مطّ شفتيه أخيرًا وقال:

- هذا مع هذه تنفع.

سحبتُ يدي قائلًا.

- إنه ذكرى عزيزة علي.

هزّ كتفيه وأشار بإصبعه بقرف كأنما يطرد ذبابة. قفز فلحي مشتاق إلى خاطري.... فاستدرتُ نحو الرجل قائلًا.

- هل تسمح لي بالهاتف؟

غمغمَ بضحكة ساخرة عاقدًا ذراعيه أمامه باسترخاء.

- لماذا؟ هل ستتصل برئيس الوزراء؟

انثال الغمّ في صدري. قلت بصوت مخنوق.

- سأحدث صاحِبًا.... الدكتور فلحي مشتاق.

وثبَ الرجل من مكانه متخذًا هيئة الاستعداد وسألني متلعثمًا.

- وهل الدكتور فلحي صاحبك؟

هززتُ رأسًا اعتراه الشموخ فبسط يديه، ولمّا تلكّأت خطف يدي وراح يهزها قائلا تأتأةً.

- الدكتور فلحي وأصحابه على الرأس والعين.

ثم نادى أحد السعاة وأشار عليه أن يحمل حقيبة «البيك» موصيا بأفضل جناح في الفندق. لحق بي رجل الاستقبال قبل أن أصعد وأودَعني اسمه. ربتُّ له ظهره بعظَمة فتشكّلت على وجهه وهو يشيّعني إلى الأعلى أطيافُ الرجاء. وقر في نفسي

أنني رجل مهم حتى بمعزل عن فلحي مشتاق لذا دأبتُ خمسة أيام على إغداق النفود على الفرّاشين والسعاة، فلم يشكّوا للحظة أنني واحد من الأمراء.

كرّستُ لدى كل من في الفندق هذا الشعور بأحاديثي المتكررة عن صداقتي لفلحي مشتاق؛ وبإفراطي في طلب المأكولات. أمَّا المشروبات الروحية فقد أبدى مدير الفندق لي أسفه مُصرّحًا أن القانون لا يسمح بتقديمها لغير الأجانب من غير العرب. واشتعل لسانه بالأسف بعدما لاحظ أنه قد أصابني الغم.

خلال الأيام الماضية لم أظل حبيس الفندق. استأجرت سيارة سياحية أتجول في النهار كيفما اتفق، أما الليل فلم يسبب لي الوقت فيه أدنى مشكلة؛ ففي كل ليلة هناك سهرة فنيّة يتخللها عزف ورقص وغناء من فتيات حسان متماثلات في كل شيء؛ كأنما انتقاهن شخصٌ واحد أو لجنة متجانسة. القوام والجمال والدلال لحد الغنج. كنتُ أحس بعيني تغادران محاجرهما وبشفتي السفلى تتهدل. لعلّ هذا ما لفت نظر أحد الموظفين إلي وقد تقدّم مني في الليلة الثانية. انحنى على أذني هامسًا.

- من تعجبك أكثر من غيرها؟

هتفتُ وأنا ألملمهن في حزمة واحدة تحت مرمى البصر المشتعل بالرغبة.

- كلّهن بلا استثناء.

هزّ رأسه متفهمًا ولمحت في عينيه وعدًا أكيدًا بأنه سيخدمُني، وقد فعل. فما كدتُ أعود إلى جناحي وأهمّ بخلع ملابسي بعد انتهاء السهرة حتى نقرَ الباب، وإذ فتحته مدّ الرجل عنقه واضعًا فمه على صيوان أذني.

- قد أحضرت لك قمرًا.

لم ينتظر ليرى ردّة فعلي. التفتَ إلى الوراء مُشيرًا بيده فمرقَت فتاةٌ ممشوقةُ القوام ببذلة الرقص. انعطفتُ إليها بعد أن أغدقتُ عليه النقود فألفيتها على دراية بما هو مطلوب منها وأكثر.

لم يكن شيء يقلقني في الأيام الماضية إلا انتظار أن يتصل بي فلحي مشتاق بعدما أخبرته أين أنزل؛ وبعدما داعبتُ غروره بأن ذكر اسمع وحده كفل لي جناحًا في فندق محترم، وجعلَ كل من فيه يتعاملون معي بوجل وإكبار.... كان السأم يجتاحني أكثر في ساعات الصباح بعد أن أستيقظ لأتناول إفطارًا دسمًا. أغفو بعده ساعة أو ساعتين فتكون الساعة قد اقتربت من الثانية عشرة حسب التوقيت المحلي، وكذا ساعتي التي دفعتها أخيرًا إلى الأمام ساعتين.

أرّقني غياب صوت فلحي عن طول هذه المدة. سارورتني الشكوك في أن تكون جوهرة قد تناستني؛ ثم عللتُ نفسي بأنها متزوجة وأن فلحي مشتاق قد ألمحَ إلى أنها رهينة الظروف. مع هذا ظللتُ نهبًا للأرق فخمسة أيام في هذا الفندق التهمَ البقشيشُ وحده نصف ما معي من نقود؛ وقد لا يكفي المبلغُ المتبقي والخاتم لدفع ما يترتبُ علي.

أزعجتني فكرة التخلي عن الخاتم فقلت لا بد لي من أرى فلحي مشتاق وجهًا لوجه؛ ما دام لا يكترث إذا ما اتصلت به بعدما أغلق الخط بلا سابق إنذار. ركبتُ السيّارة السيّاحية المركونة في باحة الفندق وانطلقتُ بأقصى سرعة ممكنة. امتصت السرعة الجنونية كثيرا من القلق والشكوك وأورثتني تفاؤلا بالأيام المقبلة. عندها تسنى لي أن أتذكر أنني خلال الأيام الخمسة الماضية اتصلت ببيت سعيد الجنزاري.... مرة ردّت علي حسنة فأغلقت الخط، ومرة أنيسة فأغلقته أيضًا من غير كلمة واحدة، وفي المرة الثالثة ردّ رجل وإذ سألته إن كان هذا بيت الجنزاري قال إن الاسم يعودُ لمالك البيت القديم حسبَ ظنّه، بينما هو قد استأجره من مالكهِ الجديد اليوم. شكرتُ للرجل لطفه كأنما هو من حرّرني من إحساس الذنب تجاه أنيسة تحديدًا إذ لا بدّ أنهما قررتا الرحيل أخيرًا.

ضاعفتُ من السرعة فتمثّلت لي نيران أمامي بوجهها المخروطي فدهشتُ لكونها ظلّت طيلة الأيام الماضية مدفونة

تحت رمال كثيفةٍ من النسيان؛ أو أن لهفتي على لقاء جوهرة جعلت كلَّ شيء عداها منتهى التفاهة والسخف. ضاعفت من السرعة أكثر فاهتزت ملامح نيران وتلاشت.

حين أطلّت عيادة فلحي مشتاق احتلّت الرهبةُ من لقائه مكانَ الصدارة؛ فصار همي أن أدخل إليه غير مرتعش الأوصال، مضطرب الجنان.... استقبلني خميس في الردهة المفضية إلى المكتب وقد فارقه الكثير مما كان يخصّني به من تقدير واحترام. سألته عن الدكتور فوضع ساقًا على ساق مُشيحًا بوجهه؛ وأخبرني ببرود أنه جاء بعد العصر مع ابنه دالي، فأمضى دقائق ثم خرج.

شجّعني بروده على التواري عنه قاصدًا منزل فلحي مشتاق معللًا نفسي بأن سيُتاح لي رؤية دالي؛ ولكن حين أصاب الوهن تلك القدم الضاغطة على البنزين لم أجد بُدًّا من الاعتراف بأني لم أعد أجد الجرأة اللازمة كي أطلب فلحي مشتاق بالهاتف قبل أن يطلبني.

حال قرعتُ الجرس نبحَني الكلب من مكمنه في الزاوية، ثم هاجمني بعد لحظات من خلال قضبان البوابة السوداء. ظللت مكاني إذ بلغت بي الرهبة مداها من لقاء فلحي؛ فلم يعد هناك في مفاصلي متسع لأن أخاف من كلب مشرّع الأنياب. كفَّ عن النباح فجأة ومضى يبصبص بذيله حتى جثا عند قدمي

روزا الواقفة على الشرفة المطلة على الدرج والحديقة المنسقة. كانت تراقبني عن كثب ثم رفعت يدها متأخرة تردُّ على يدي المرفوعة تحية لها، أو تنبيهًا بأني موجود.

طال وقوفها وتفرسها بي فهجستُ بأنها لم تعرفني فصرخت بأعلى صوتي بأني هادي الجنزاري ومددتُ يدي عبر القضبان إلى المزلاج. جذبته فانفتحت البوابة فمرقتُ بخطواتٍ ثابتة إلى أن صعدت الدرجات وصرت أمامها. طالعتني عينا روزا ملغومتين بالشك والقلق فدبَّ في مفاصلي الارتعاش. قلت مُشيرًا إلى صدري وأنا أغتصب ابتسامة.

- أنا هادي الجنزاري. ألم تعرفيني؟

قالت بلهجة قاطعة.

- الآن فقط عرفتك.

تنهدتُ ارتياحًا ولكن ظلَّ يقلقني برودها وموجات الشك تتساور على محيّاها الذي لم يعد جميلا كعهدي به. شككتُ في أنها عرفتني حقّا فذكّرتها بأني من أنقذ دالي على الشاطئ. حاولت أن أسهب فرفعت يدها بتقزز وقاطعتني بازدراء.

- أعرف هذه القصة، ولكن لم أعرفها بحذافيرها إلا الآن.

ازدردتُ ريقي بصعوبة وأنا لا أدري سببًا واحدًا يجعل حالها تنقلب رأسًا على عقب. قالت وهي تمدُّ يدها لتداعب رأس الكلب.

- لم يعد لدي شك في أن تلك الحادثة افتعلتها أنت ودكتورك المأفون.... كان ابني الطعم فيها وأنا كنتُ الهدف.

قلَّبت يدي حيرة وغمغمتُ بصوت مخنوق.

- لا أفهم.

سدَّدت إلي نظرة ما توقعتُ أبدًا أن تحبل هاتان العينان بمثلها.

- لا يهمني إن كنتَ تفهم، أو في منتهى الغباء.

ثم استدارت نحوي عاقدة ذراعيها أمام صدرها وقالت بلهجة تقطر سخرية.

- هه؟ وبعد يا شاطر؟ بما أوصاك الدكتور العزيز حين أرسلك إلي؟

حدست بأنها على خلاف شديد معه مما يدفعها إلى معاقبة أصدقائه نكاية به. أصابني هذا الظن ببعض الارتياح فقلت بمرح.

- في الواقع لم أرَ الدكتور منذ مدة طويلة ووجدتها فرصة كي ألتقيه وأرى دالي العزيز.

وتلفّتُّ حولي متسائلًا بلهفة.

- أين دالي؟

تشكّلت على زاوية فمها ابتسامة تقطر سخرية، ورفعت حاجبها قائلة.

- ألا تسأل عن الدكتور أولا؟

تذكرت أني لم أر سيارته، أو أنني لم أحرص بما فيه الكفاية لأرى إن كانت أمام المنزل أو في المرآب. سقطَ لذلك في حلقي العجز وفي أعصابي الرهبة أكمَلَتهَا بأن سدَّدَت إلي نظرة يتوقد في الاتهام.

- دعك من تصنّع البراءة وأخبرني من منكما صاحب هذه الفكرة العظيمة؟ أنت أم والدكتور المُبجّل؟

عدت أقلّب يدي عجزًا وحيرة فقالت ملوّحة غضبًا أمام وجهي.

- عد إلى صاحبك وأخبره بأن روزا التي يعرفها غريرة ساذجة قد استيقظت من سباتها العميق.

جفَّ حلقي تماما وأخذ العرق ينز من جبهتي، ولما قلت بصعوبة أنني لا أدري عمّا تتحدث سددت إلى نظرة ازدراء ما لبثت أن تحوّلت إلى ضباب وغمغمت كأنما تحدث نفسها.

- مهما يكن من أمر فقد عاد دالي.... الأسلوب كان فاجعًا ولكنّه أتى.

ثم انتفضت مُسدّدة إلي تلك النظرة المفعمة بالازراء وصرخت.

- عد أيها الفحل إلى ذاك العاجز وأخبره إن كنتَ تستطيع بأنه أتفه شيء على وجه الأرض.

ولمّا ظلّلتُ جامدَ القسمات انتهرَت الكلب تحرّضُه عليَّ فوثبَ هذا نحوي؛ فلم أجد بُدّا من إطلاق ساقي للريح التي لم تكن؛ ولم يحمني غير باب السيارة حين أغلقته من بعدي في لهوجة.

عدتُ إلى جناحي في الفندق أنضح بالعرق فلمحت السعاة والفرّاشين وموظف الاستقبال يتهامسون؛ وقد أنذرهم شكلي أنني على غير ما يرام. نزعتُ ثيابي وألقيت بجسدي في الحوض ولمّا خرجتُ من الحمّام كان الكثير من وقائع هذه الزيارة قد تلاشى مُخلّفًا حسرة مبعثها أن روزا قد نجت من بين ما دامت وحدها في البيت.

بت على يقين من أن دالي ليس ابنًا لفلحي فاجتاحني غمٌّ لا يوصف لأن روزا حرمتني من أن أهب لها غلامًا آخر. توهّج جسدي لهذا الخاطر فتمنيتُ لو أن فلحي يتصل الآن ويهتف بي أن أسرع لأن جوهرة بانتظاري. رمقتُ الهاتف بحنق ثم خطر لي وأنا أنظر إليه أن أتصل بنيران لتأتي فنكون بعيدين عن العيون. التقطت السماعة وطلبتُ من البدالة رقم المتجر. جاءني صوتها محروق الأنفاس ففقلت لها إني هادي الجنزاري.... صمتت للحظة ثم قالت معاتبة.

- الحمد لله على السلامة.... لقد تبدل صوتُك وصرتَ تذكر اسمك بالكامل!

ثم غيّرت لهجتها في الحال بعدما أخبرتها بأني موجود في الفندق. طفقت تحمّل نفسها مسؤولية انقطاعي عنها ثم قالت بعد تردد.

- على أي حال لدي أخبار ستسرّك حتمًا.

سألتها بغير حماسة عن هذه الأخبار السّارة فصمتت لبرهة أكثر من اللازم؛ كأنما لتتأكد من أن صوتي قد اعتراه البرود حقّا. مع هذا قالت باندفاع.

- ألم أطلب منك مهلة للتفكير؟ لقد فكرت جيّدًا ووجدت أن الحق معك.

استفسرتُ منها عمّا تتحدث فغرقَ الخط بيننا في الصمت ثم سمعتها تطلق زفرة استياء قبل أن تقول بلهجة أثقلها الأسى.

- لا شيء.... انسَ الموضوع.

أحسستُ بأنها ستبادر إلى إغلاق الخط فهتفتُ باسمها. غمغمت أن ماذا أريد فعرضتُ عليها أن نلتقي في الحال. دبّت في صوتها الحماسة من جديد.

- إذن سأكون بانتظارك في الاستراحة المعهودة.

طقطقتُ بشفتي مُستسخفًا الفكرة وتعللتُ بأن الوقت غير مناسب للاستراحات هذه، ثم قلت وكلي اعتقاد بأنها ستقبل.

- نلتقي هنا في الفندق.... في جناحي الخاص.

وأعطيتها اسم الفندق وعنوانه، فران عليها الصمت وخلت صوتها يتشتت في مسارين.

- أهكذا إذن.

أكّدتُ لها أن هذا أفضل مكان يمكننا أن نكون فيها وحدنا تمامًا. جثمَ عليها الصمت كرة أخرى قبل أن تصفعَني بإغلاق الخط. ألقيتُ السمّاعة من يدي مغتاظًا واندهشتُ لأنها تبدو على غير ما يرام. خطفت مفاتيح السيارة وغادرتُ الغرفة

وأنا أصفّر بغير اكتراث. حين وضعت مفاتيح الجناح على الحاجز الرخامي أمام المسؤول قام احترامًا؛ ولم يجلس إلا بعدما استدرت متوّجهًا إلى الباب. غمرتني لحركته هذه نشوة عارمة فأطلقت الصفير مُنغّمًا ودهشتُ أكثر من أن نيران لا تعنيها العروض من رجل مثلي يقّدره الجميع.

كنتُ على وشك التحرّك بالسيارة حين رأيتُ موظف الاستقبال يهرول خلفي قائلا بكثير من اللهوجة؛ أن هناك مكالمة لي من الدكتور فلحي مشتاق شخصيًّا. تلكأت قبل أن أترك موضعي خلف المقود ثم وأنا أغلق الباب متأفّفًا مما أدهش الرجل؛ فسررتُ لأني منحته إحساسًا لا يقل أهمية مما كان يشعر فيه. لم أستطع التمثيل أكثر من هذا القدر فغالبت نفسي بصعوبة كيلا أقفز راكضًا فأظهِر للرجل إني لستُ مهمّا بما فيه الكفاية كما ظل يعتقد كغيره في الفندق طول الوقت. لحسن حظي أو من باب التأدّب تركني الرجل مع الهاتف فجرى على لساني تذلل وتهافت أنكرتهما على نفسي لأول وهلة؛ ولكن صوت فلحي كان ينبئ بمدى نشوته لحالته هذه. أكملَها بأن أطلقَ لصوته العنان آمرًا.

- تعال في الحال.

وأغلق الخط فركضتُ بلا حذر ولم أنتبه إلا والرجل إياه ينحني أمامي عند المدخل؛ ولمّا كنتُ قد تجاورنه بمترين على

الأقل عدتُ القهقرى ونفحته بقشيشًا زاد ظهره انحناءَ، وزادني هيبةً كاد يقلم أظفارها ركضٌ مأفون.

زعقت عجلات السيارة لحظة انطلاقتي المفاجئة وظلت تزعق كلما انعطفت إلى شارع؛ أو تجاوزت سيارة أخرى يطلق صاحبها من بعدي بوقًا متصلا يتخلله رذاذ الشتائم. لم أكترث فوجه جوهرة وجسدها العبل يمتصّان الفضاء.

ترجلت أمام مدخل العيادة ورحت أقفز كل ثلاث درجات معًا، ولكن حين بلغت باب المكتب توقفت فجأة يتنزّل في أعصابي الخوف. أنقذني من حالة الشتات هذه خروج خميس من دورة المياه. أبدى اندهاشه من وقوفي وسألني باستهجان.

- ألم يطلبك الدكتور؟

هززتُ رأسي إذ لم يسعفني حلقي الجاف فنقرَ الباب قائلا ببساطة.

- إذن ادخل.

دخلتُ لأجده جالسًا خلف مكتبه ولم يبدُ عليه لمرآي أي اهتمام. تجاهل يدي الممدودة وتشاغل للتو بتقليب أوراق كانت مهملة. هجستُ بأن زوجه عنّفته على ما تعتقد أنها صفقة أبرمناها أو بسبب زيارتي الحمقاء وهو ليس في البيت. ركبني خوف

فظيع ودهشتُ لأني لم أفكر بهذا حين اتصل بي؛ ومن ثم حين رحت أنهب الطريق نهبًا. شرع يقلّب وجهه ذات اليمين وذات الشمال تبعًا لافتعاله تحريك الأوراق ما بين يديه؛ لتكون تحت مساقط الضوء المنهمر من النافذة. قال أخيرًا دون أن ينظر إلي.

- لم أنسك كما تجرّأت واتهمتني عبر الهاتف.

وألقى الأوراق من يده بحركة تنذر بأوخم العواقب ثم خطف علبة سجائره. تناول واحدة غرسَها بين شفتيه وهو لا يفتأ يفترسني بعينيه فاقتنعت أكثر بالحكمة من بقائي واقفًا أمامه كتلميذ بليد. بحثتُ عن ولّاعتي بلهوجةٍ فرفع يده أن لا. تناول ولاعته من الدرج. أشعل بها لفافته ثم رشقني بنظرة خلتها تغوص فيّ حتى العظم قبل أن يواصل برصانة اكتشفَ جدواها منذ عدت من غزوتي ليلة المزرعة.

- كنتُ في الأيّام الماضية أرتّب لك وضعًا مريحًا في عمل سيرضيك حتمًا.

دلت لهجته أنه لا يأخذ رأي ودلت لهجتي وكلامي أن العمل بات آخر ما أفكر فيه. هتفت بالتياع وقد ارتكزت بيدي على سطح المكتب.

- وجوهرة؟! ألم تطلبني؟

سدد إلي نظرة أضيقَّت لها حدقتاه فنزعتُ يدي عن المكتب على الفور وضممتها إلى جنبي. ضغطَ أسنانه مُحاذِرًا أن يرفعَ صوته كما يشتهي.

- لا تذكر اسمها على الإطلاق سواء كان أمامي أو أمام غيري.... مفهوم؟

هززتُ رأسي بإذعان وظلَّ رأسي يهتز بما يوافق إصبعه المحذرة.

- إن سمعتُ حرفًا مما جرى تلك الليلة أو مما يجري بعد ذلك فلن تجد من يندمُ غيرك أشدَّ الندم.

طمأنته بمرح نسبي أن هذا ليس من طبعي فصرخ.

- أنا لا تهمني طباعك. يهمني أن تصغي جيدًا لما أقول فتنفّذه بالحرف.

طفقتُ أهز رأسي حتى انفثأ غضبه أو خيّل إلي ذلك، ولمّا ضجّ في صدري الشوق إلى جوهرة قلت بصوت مشروخ.

- ولكني أسأل إن كانت قد طلبتني.

عاد يضغط أسنانه والتلويح بإصبعه.

- أنت لا تسأل.... عوّد نفسم على ألّا تسأل.... هل تفهم؟

أجبته بنعم فافترسني بنظرة أخرى ليطمئن على أني بت عبدًا مطيعًا ذليلًا. قال وهو يسحب من لفافته نفسًا طويلا ثم ينفثه على مهل.

- على أي حال فالعمل الذي اخترته لك يتيح لك أن تراها كل يوم تقريبًا.

حاولتُ أن أكبت زفرة ارتياح ولكني لم أفلح. لاحظها فأطلق ابتسامة لأول مرة ولكن بمقدار. توارت سريعًا إذ وقعت عيناه على الخاتم في إصبعي. دفن اللفافة في المنفضة وخطف يدي مُتجهّمًا وراح يتفرّس في الخاتم ويقارنه بخاتمه؛ ولمّا تبين أنهما نسخة طبق الأصل دفعَ يدي؛ وظلَّ جامدًا كأنما يروز فكرة تشغله ثم انتفضَ أخيرًا وانحنى نحوي قائلا.

- ستكون ساعيًا بالاسم في شركة زوجها وسائقًا فعليًّا وخادمًا لها.... باشكار يعني.

جلستُ من فرط الذهول وهمستُ مُستنكرًا.

- باشكار؟

غرس فيَّ عينيه وكرر ساخرًا من اعتراضي.

- أجل باشكار.

ثم تراجع بظهره إلى المسند وهو يستلّ لفافة أخرى غرسها بين شفتيه.

- هل تظن أن زوجها قَبِلَ هكذا بالساهل أن يسوق شاب وسيم مثلك سيارة زوجه؛ بدلا من سائقها العجوز المتهدم الذي اختاره بنفسه لها؟ سائق عجوز يتشنج إذا ما سعل؟ نعم هو تحت أمري ورهن إشارتي، لكن ليس بأمرٍ كهذا. فالعِرض يا هذا رأس مال الرجال الحقيقي هنا.

ثم انحنى موبّخًا.

- هل تعتقد أنه قبل بالساهل؟ سطوتي وحدها ليست كفيلة لإجباره على ذلك.

سألته ذاهلًا إن كان زوجها هذا يعرفني فتشاغل عن الرد بإشعال اللفافة، وإطفاء الولاعة وإشعالها عدة مرات. حدستُ بأنه قد حدّثه عني ووصفني له لذا قلت له مُندهشًا وأنا لا أدري أن مجرد طرح السؤال قبول.

- إذن كيف تقبّل ما دام قد عرف أنني وسيم، وما دام غيورًا إلى هذا الحد الذي تصف.

تفحّصني بنظرة بدأت اغتباطًا لقبولي بالأمر الواقع، وانتهت بانزعاج لكوني حتى الآن لا أقدّر مواهبه حقّ قدرها. قلتُ مُطلقًا ضحكة اعتقدَت أنها ستمسح إحساسه بالغبن.

- أعرف أنك أقنعته.... فضائلك على رأسي وعيني... ولكن....

رفع يده مقاطعًا.

- لكن هذه تثير أعصابي فدعك منها.

ثم استلَّ من أحد الأدراج ورقة مطويّة لوّح بها أمام وجهي وهو يرشق خاتمي بضيق.

- كان من المفروض بعدما رأيت لهفتك على هذه السيدة أن أخصيك فعلًا كما طلب مني زوجها؛ ولكنني أفعل هذا في الظاهر. لذا كتبتُ لك هذه الشهادة حين يقرؤها رئيسك المقبل سيرتاح كثيرًا. ولكن إياك أن تغضب حين يناديك أيها الخصي.

فغرتُ فمي الدهشة.... مع هذا حاولت أن أخطف الورقة من يده.... أبعدها في اللحظة المناسبة.

- لقد خنتُ مبادئي فقط لأنه سبق لك وأن أنقذت ابني. لقد رددتُ لك هذا الجميل حقّا بطرق شتى؛ ومع ذلك لم أنسَ

الجميل كما لم أنسَ أني أخبرتك ذات مرة بأني انجذبتُ إليك، ورأيتُ فيك شبابي المُعذّب.

ثم أشار إلي أن أصغي وراح يقرأ علي الشهادة التي أعلن فيها بلا مواربة أنني فاقد للرجولة إثر عملية أجريت لي في عاصمة غريبة بناء على طلبي. طوى الورقة أخيرًا ورنا إليَّ بثبات ليرى أثر ذلك عليّ؛ ولمّا وجد أني ما زلت ذاهلًا ضحك مُشجّعًا.

- قلت لك إني خنتُ مبادئي لأول مرة وهذا من أجلك. كان من المفروض لو لم أكن خائنًا أن أنسحب من هذا الأمر، وأتركك وشأنك.

وحين رأى أن الذهول انكسرت حدّته؛ تناول ورقة أخرى من الدرج. ألقاها أمامي بإهمال ودفع إلي قلمًا وأمرني أن أوقّع على ما جاء فيها؛ مِن أنني هرعتُ إلى الأطباء راجيًا أن يجروا لي عملية بعدما طالت شكوكي في أني رجل حقًّا؛ وبعدما وجدت نفسي أشتهي كما تشتهي النساء. كنتُ قد انتهيت من التوقيع قبل القراءة حتى إذا عاد الذهول لم يكن له معنى على الإطلاق كما لم يكن معنى للاعتراض.

- ولكن كيف أكون كذلك؟

طوى الورقة هذه وضمّها إلى الأولى ودسّ هذه المرة سيجارًا بين أسنانه وقال كأنّما لم يسمع شيئًا.

- بهذه سيقتنعُ الزوج المغفل أكثر وينام ليله الطويل.

ثم أطلق ضحكة احترت في تفسيرها.

اقنعتني نبرة صوته العميقة أنه يبغي صالحي حقّا؛ فانهلتُ عليه بالشكر مكررًا أن فضائله على رأسي. رفع يده مقاطعًا.

- دعك من هذا يا صاح! لن أقول أن لي النصف مما ستغدقه عليك السيدة.... أقول وهذا في غير صالحي.... يكفيني ربع الغنائم.

جحظت عيناي كأنّما لم يكفني ما جرى كي أخرج عن طوري.

صرخَ مُحتدًّا.

- ماذا تظن نفسك؟ هه؟ هل كنت من صُلبِ أبي وأنا لا أدري؟

أومأت برأسي متفهّمًا برضوخ وتجرأت على رفع يدي كي يكف. هدأ على الفور وأشرق وجهه بالابتسام.

- هكذا أريدك.... كن عمليًّا، فأنا لم أطالبك بأتعابي الماضية. ما حددته لا يمثل غير جزء يسير مما سأبسطه عليك من حماية طول الوقت إذا ما جدّ الجد.

هززتُ رأسي متفهّمًا فأطلق ضحكة رضا ساهمت في استكمال شروط الانسجام بيننا؛ فمدّ علبة السيجار نحوي. أخذت واحدًا وأنا أنهض مقوس الظهر ولما هممت بالجلوس بادرني بالقول وهو يهرب بعينيه إلى النافذة.

- لقد أحسنتَ صنعًا إذ تعففت عن افتراس عوزة.

ظلّ ظهري مُقوّسًا يجتاحني الذهول ليقيني بأن صالح المحمودي نفسه لا يعرف شيئًا عن تعففي هذا؛ وهو الوحيد الذي يمكن نقل هذا الخبر. حدستُ بأنها عوزة ثم استبعدت ذلك. لذا صار همي بأن يطلعني كيف عرف قصتي مع عوزة ولكنه التفتَ أخيرا إلي وعيناه مصيدتان.

- لقد أدهشني حقّا ما سمعت. كيف تمالكت نفسك ولم تهرس عظامها هرسًا؟

وعاد يتفحص الخاتم في يدي عن كثب قبل أن يلقيها قائلا بشيء من الرضا.

- على أي حال فأنت عملت شيئًا رائعًا تلك الليلة وإلّا لمَا وجدت مناصًا من مُساعدَتك، عفافك أو تعففك قدّم لي ولك على السواء خدمة رائعة.

تغافل عن سؤال ضجّ في عيني أن كيف عرف! ونادى خميس. أعطاه الورقتين وطلب منه باستعطاف مغاير تماما لما كان يبديه من صرامة لوقت طويل.

- خذه يا خميس إلى حيث أخبرتك.

وحرّك يده كأنما يهشُّ ذبابة فتبعتُ الرجلَ إلى الخارج مُحاذرًا أن أتلفَّت خلفي. أمرني خميس بأن أركب سيارة فلحي مشتاق ولما أنبأته بأن معي سيارة قال بضجر.

- يا أخي اتركها.... لن تطير.

وراح يخترق بي الشوارع المزدحمة بسرعة لا تتناسب وسنه؛ إلى أن توقّف أخيرًا أمام بناية كبيرة غالطت نفسي لقولها أنها شركة المحمودي. ظللت أغالطها وأنا أقرأ اليافطة وبعد أن برز لي الرجل الزجاجي بعينين مشاكستين على غير العادة مُرحّبًا بحماسة مفرطة؛ دفعَته إلى التطوّع بإيصالي إلى المحمودي ودفعتني إلى مزيد من الشكوك. رفعت له يدي فكفّ عن الحركة فبرز شعبان فوق بسطة الدرج تتقدمه نظرةٌ حرتُ في تفسيرها.

حاذاني وراح يستفسرُ بحرص عن وضعي في الشركة؛ وعمّا إذا كان ما سمعه صحيحًا. سألته متخوّفًا مما سمع فرشقني بنظرته المُحيرة وتركني أواصل طريقي خلف خميس الرشيق كالمُهر.

وقفَ بي أمام مكتب المحمودي. نقر على الباب والتفت إلي وفي عينيه أمر بالانتظار. دخل وتركني خلف الباب المغلق فأشفقت على نفسي. أشفقتُ أكثر على شعبان الذي لحق بنا تنتابه حيرة فيما إذا كان عليه أن يرحب بي أم ينفض يديه مني للأبد. لكزني أخيرًا وقال إنه يريد الحلاوة، ولما نظرت إليه مُستفسرًا أخرج مظروفًا من جيبه. سلّمني إياه فقرأت تحت عنوان المرسل اسم «الأستاذ بكري». خفق قلبي خفقات واهنة وهممتُ أن أفتح المظروف. حال دون ذلك خميس بعد أن خرج مُشيرًا إلي أن أدخل قبل أن يهبط الدرج برشاقة كما صعد.

تلكأت قليلا أعدّل من وضع ثيابي ثم دخلت تاركًا شعبان يقرض أظافره ندمًا على ضياع البقشيش. كان المحمودي باسطًا الورقتين أمامه على المكتب يتمعن فيهما بوجه طافح بالسرور؛ فدهشتُ كيف تأتّى له ذلك من صفرة اليرقان، ثم قلت: لقد وجد في الورقتين لغفلته ما يبهجه. مع هذا لم أجد جوابًا شافيًا على سؤال ضجّ في صدري حين قرأت اليافطة أن لماذا يحملني خميس إلى المحمودي بالذات! متيقّنًا أن فلحي

مشتاق لم يخبرني من رئيسي في العمل إمعانًا منه بازدرائي وتحقيري لا غير، وإذ تيقّنتُ بأنه الرئيس المعني لم أستطع تصديق أنه زوج تلك المرأة الفاتنة جوهرة. أحسستُ نحوه ببعض الإشفاق، أشفقتُ عليه أكثر حين تقصّد أن يهملني هذه المدّة كلّها متظاهرًا بالقراءة. قال بعدها باستغراب أقرب إلى الشماتة.

- لقد سبق لي أن عرضتُ عليك وضعًا أفضل من هذا!

ثم نفخَ ضحكة ساخرة هازًّا رأسه.

- حقًّا.... لله في خلقه شؤون.

تجاوزتُ لهجتَه الساخرة وما في عينيه من نظرات لم أتبينها بعد. قلت في نفسي كل شيء يهون في سبيل أن أكون إلى جانب جوهرة، وأن أراها متى أشاء. تحسس حلقَه قبل أن يقول آمرًا.

- هات لي أشرب.

لم أتلكأ للحظة واحدة. وثبتُ إلى الخارج أبحث عن ماء ولمّا دلني شعبان المتربص خلف الباب إليهِ مُذكرًا بالقشيش حملتُ الكوب الممتلئ ودخلت فيما شعبان راح يهبط الدرج؛ ويقهقهُ ملء الفم ويغني «عطشان يا صبايا دلوني عالسبيل». تناول

المحمودي الكوب مصوّبًا إلي عينيه الجاحظتين بما فيهما من نظرة كادت أن تخرجني عن طوري.

أخذ يرتشف الماء على مهل كأنّما يمتص حلوى وعيناه مصوّبتان إلي. مسح فمه ومدّ الكوب نحوي فمددتُ يدي فجذبه باسمًا. كرر ذلك أكثر من مرة وقد تحوّلَت ابتسامتُه إلى ضحكة نشوى؛ فتلوّى المظروف في يدي مُعترضًا على هذا العبث. وضع الكوب على المكتب وتناول إحدى الورقتين، لوّح بها أمام وجهي وصار يمررها على أنفي جيئةً وذهابًا فجثت ذقني على الصدر. خلتُ عيناه تشعّان ببريق الظفر وهو يقول باستمتاع.

- هكذا إذن؟! تشتهتي كما تشتهي النساء؟! عظيم.... عظيم.

وأحسستُ بحركته وهو ينهض مادًّا سبّابته ليرفع بها ذقني الجاثية. ثم فحَّ صوته.

- اذهب الآن.... سنلتقي الليلة يا حلوة في المزرعة التي دفعت فيها عشرة آلاف لامرأة نامت مع امرأة.

وقفَ شعرُ رأسي وانتصبت في عروقي دماء تهدرُ بالغضب. أكمل بنبرته البغيضة.

- حين حدّثني الدكتور فلحي عنك لم أصدق ولكن عوزة أكّدت لي ذلك بعدما طمأنتها بأن ما أخذته صار حلالا زالالا عليها.

وقرصني من وجنتي قائلا.

- عظيم.... عظيم.... نلتقي الليلة.

بلغت ضرباتُ قلبي أعلى الحلق وخلت أنه سيقفزُ من مكانه وسط الصدر أو أنه قفز فعلًا. كدتُ أمسك بتلابيبه وأسحق رأسه على المكتب أو رخام النافذة، طويت قبضتي فعلًا.... شعرتُ بشيء ما يتكسر بين أصابعي.... تنبّهت إلى الرسالة.... انتصب الأستاذ بكري بيني وبين المحمودي.... سمعته يقول: «لماذا تغضب؟ هي خطوة واحدة حقًّا ولكنّها تكفي للسقوط»....

كُتِبت هذه الرواية ما بين 20– 29 آب 1984م

انتهت...